

شارل بلا

تاريخ
اللغة والآداب العربية

تعريب

رفيق ابن وناس وصالح هيزم

والطيب العساس



دار الغرب الإسلامي

شارل بلا

تاريخ اللغة والآداب العربية

تعريب

رفيق ابن وناس وصالح هيزم
والطيب القناس



© 1997 دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

دار الغرب الإسلامي

ص . ب . 5787 - 113 بيروت

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية ، أو أشرطة ممغنطة ، أو وسائل ميكانيكية ، أو الاستنساخ الفوتوغرافي ، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر .

بيان

كتاب: تاريخ "اللغة والآداب العربيّة" Langue et littérature arabes ألفه بالفرنسية المستشرق شارل بلا Charles Pellat ونشرته مكتبة أرمان كولين Armand Colin بباريس سنة 1952 في طبعة أولى وسنة 1970 في طبعة ثانية منقحة ومزودة. وكان المؤلف قد عرض مخطوط نص الطبعة الأولى على الأساتذة أندري باسي وجورج كولين ومحمود المسعدي وهنري بيراز وأفاد من ملاحظاتهم ولما ظهرت الطبعة الثانية رأيت أن أعرب هذا الكتاب لما تبين لي فيه مع صغر حجمه من قيمة عظيمة إذ فيه يقدم المؤلف بنظرة نقدية ثاقبة ونزعة تأليفية قويّة خلاصة موجزة دقيقة تجمع بين الشمول والعمق عن تاريخ اللغة العربية وآدابها منذ الجاهلية إلى الستينيات من قرننا هذا معتبرا أن الآداب لا تشمل الشعر والنثر الأدبي أو الفنّي فحسب بل كذلك فنونا عديدة أخرى مثل العلوم الدينية والفلسفة والتاريخ وفنّ الرحلة والجغرافيا. وإيماننا مني بجدوى العمل الجماعي أو المشترك وقد كان من نتائجه تعريب ما يلي:

الأصل	التعريب	المشارك معه
Regis Blachère: - 1 Moments tournants dans la littérature arabe in studia Is- lamica. 1966	1 - "منعرجات الأدب العربي" مجلة الفكر تونس جانفي 1974	1 - حمادي صمود
Tzvetan Todorov: - 2 L'Histoire	تاريخ الأدب بقلم	حمادي صمود

	تودوروف (مجلة الفكر العربي 1976 تونس	de la littérature encyclopédique de sciences du lan- gage Paris 1972
رفيق بن وناس	شوقي بقلم عزيز أياضة مجلة الحياة الثقافية بتونس 1980.	Aziz Abada: Shaw- qui in MIDEO 1963
صالح حيزم ورفيق وناس.	كتاب الأدب العربي تأليف اندري ميكال تونس 1980.	La littérature arabe. Collection que sais-je? Paris
صالح حيزم	ما التاريخ الأدبي؟ بقلم انطوان آدم مجلة الفكر تونس جويلية 1981.	Antoine Adam: Qu'est-ce que l'histoire littéra- ture in Revue de l'enseignement supérieur Paris 1959
صالح البكاري	الشعر العربي ببغداد إلى معروف الرصافي بقلم رجب بلاشير (حوليات الجامعة التونسي 1984) وقد راجعه محمد البعلاوي	Regis Blachère: La poésie arabe à Bagdad jusqu'à Ma'ruf al-Rusafi Par- in ARABICA is 1962

والملاحظ أنها جميعا تهتم بالتاريخ الأدبي عامة وتاريخ الأدب العربي خاصة في تياراته وعلامه وإيماننا مني إذن بجدوى العمل المشترك كلمت بكل لطف المؤلف في تعريب هذا الكتاب فوافق مشكورا واشترت من دار النشر حقوق الترجمة "ثم عرضت على زميلي وصديقي رفيق بن وناس وصالح حيزم ونحن كثيرا ما نلتقي للجدّ طورا وتارة للعب أن نعرب هذا الكتاب وها نحن نعربه وننشره بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة مؤلفه وفاءً له وتقديرا لعلمه

عربنا الكتاب تعريبا أميناً وزدنا ضمن هوامش رقمناها ترقيما أبجدياً (أ) فوضحنا بعض تلميحات المؤلف وأثرنا المصادر والمراجع بتحسينها ومن الأمانة أن نقول إننا اعتمدنا في ذلك بالاضافة إلى ما نعرفه الأعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة وخاصة كتاب سيزفين تاريخ التراث العربي. وبصورة أخص دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها باللغة الفرنسية بل وقد سألنا بعض أصحابنا عن بعض الجزئيات كلّ هذا رغبة منا في الاقتراب من الكامل ونرجو أن نكون قد قربنا وقد أبى زميلنا وصديقنا محمد البعلاوي لأريحيته وحبّه للعلم إلا أن يطلع على هذا الكتاب بعد أن أعددناه للطبع (ب) وأبدى لنا بعض الملاحظات ونحن نغتنم هذه الفرصة لشكره وشكر صديقنا الحبيب اللمسي صاحب دار الغرب الإسلامي الذي قيل أن ينشره هذا التعريف بيروت

إن هذا الكتاب وإن كان في الأصل موجّهاً إلى "الجمهور الفرنسي المثقف الراغب في التعرف على إنتاج كتاب اللغة العربية" يفيد كل الفائدة الطلبة

أ - نلاحظ أننا قد وضعنا ضمن المتن أرقام صفحات النص الفرنسي حتى يسهل على من أراد ذلك أن يتثبت من تعريبنا وعسى أن يفيدنا من شاء من القراء بملاحظات وأغتنم هذه الفرصة لشكر الطالبة الآنسة ريم وناس لمساعدتها على التثبت من الموافقة بين صفحات النص الفرنسي وصفحات النص العربي وإبدائها بعض الملاحظات حتى حول التعريب ب- نشكر جزيل الشكر السيد خليفة الحسني من كلية الآداب منوبة تونس على صبره على رقب كامل النص على آلة الماكنتوش كما أشكر الزميل حسين البعقوبي إذ حاول أن يساعدنا على إعداد فهرس الإعلام.

العرب المرسمين بمختلف الكليات لإعداد الاستاذية في اللغة والآداب العربية فإليهم خاصة نقدّمه وإني أوصيهم بل أكاد أقول وأنا الأستاذ إنني أطالبهم بقراءته في النص العربي أو في نصه الأصلي والانطلاق منه لدراسة الأدب العربي دراسة شاملة معمّقة كما نرجو أن يرتضيه زملاؤنا وكذلك أصدقائنا من غير ذوي الاختصاص فيرغبهم في أن يطالعوا في ساعات فراغهم مصادر الأدب العربي قديمه وحديثه وشعره ونثره أو ما يلذّ لهم منها ممّا قد ينبتهم إليه هذا الكتاب وختاماً أرجو أن يجد القراء عامّة في تعريبنا من الإيجابيات وهي تحسب للمترجمين الثلاثة أكثر مما يجدون فيه من السلبيات وهي تحسب علي وحدي

الطيب العشاش.

شارل بلا⁽¹⁾

(1914 - 1992)

يوم الاربعاء 28 أكتوبر 1992 توفي المستشرق الفرنسي شارل بلا ويوم الجمعة 30 أكتوبر تمت مراسم دفنه بكنيسة القديس جيل SAINT-GILLES ببورلاران Bourg la Reine بضاحية باريس.

عانى من المرض في السنوات الأخيرة من عمره وقاومه ثم ألزمه سرطان في الرئة خبيث فتآك، فراش المستشفى مدة ثلاثة أسابيع واختطفه الموت ممن تبقى من أهله وخاصة من ابنته وحفيديه ومن زملائه وأصحابه وطلبتته من بني جنسه ومن العرب. اختطفه الموت وهو لا يزال وإن بلغ التاسعة والسبعين من عمره، في أوج العمل في ميدان كان ميدانه الأساسي، العمر كله، ميدان الحضارة العربية الاسلامية في شتى مظاهرها.

- ولد شارل بلا يوم 28 سبتمبر 1914 بسوق أهراس بالجزائر وقضى صباه ببيثتها وبها بدأ تعلمه وفي سنة 1924 انتقل مع أسرته من الجزائر إلى المغرب وزاول دراسته الثانوية بمعهد Lyautey بالدار البيضاء ولم يتجه لمّا شبّ إلى ما يقال إنّ والديه كانا يرغبان فيه أي الدراسة بالمدارس العظمى ومدرسة Polytechnique خاصة بل سلك الطريق المفضية إلى التدريس وعمل في البداية على أن يكون ميدان تخصصه اللغة البربرية إحدى لغات البيئة التي بها نشأ ونتج عن ذلك خاصّة بين سنتي 1947 و 1950 بعض المقالات القصيرة بل وبعض الدراسات المفردة المطوكة عن هذه اللغة (رقم 13 و 14 مثلاً من قائمة مؤلفاته إلى سنة 1984 كما ضبطها ونُشرت سنة 1987 بالعديدين 139 و 140 من

1 - سبق أن نشرناه بعدد 33 من حوليات الجامعة التونسية.

المجلد 35 من مجلة الكراسات التونسية Les cahiers de Tunisie وهما مخصّصان لتكريمه ونشير إليهما من الآن بالقائمة) لكنّ تأثير بعض أساتذته وخاصة لويس ما سينيون (Louis Massignon) وحسن حظّ العربية قد حولاه عن حبّه الأول إلى التخصّص في الحضارة العربيّة والاسلاميّة عامّة واللغة والآداب العربيّة بصورة خاصّة. اذ شرع في تدريسها بالمعهد الثانوي بمراكش سنة 1934 ثمّ أدّى الخدمة العسكرية بالجزائر والمغرب ثمّ عيّن رئيس مصلحة الاعلام بالمخابرات الفرنسية المضادة بالمشرق وتعرّف على مجموعة من الكتاب والشعراء وساهم في اصدار مجلة شهرية وفي سنة 1941 عاد إلى فرنسا ثم إلى الجزائر ثم كانت الهجرة إلى باريس حيث عيّن للتدريس بمعهد لويس لوفران Louis Legrand بشارع القديس جاك ونجح في مناظرة التبريز سنة 1946 وعيّن من سنة 1951 إلى سنة 1956 بالمدرسة القومية للغات الشرقية الحيّة بشارع ليل L'Ecole Nationale des langues Orientales vivantes Rue de Lille ثم انه سرعان ما أتمّ إعداد أطروحة دكتورا دولة كانت الرسالة الأساسية فيها عن البيئة البصرية وتكوّن الجاحظ "نشرت بباريس سنة 1953 (رقم 44 بالقائمة) وأصبح أستاذا للغة والآداب العربية في جامعة الصربون أو على الاصحّ بمعهد الدراسات العربيّة والاسلاميّة التابع لها بنهج الفور Rue du Four ثم بشارع سانتاي Rue de Santeuil (باريس III) ثم للصربون القديمة (باريس IV) ومديرا لهذا المعهد في فترات مختلفة حتى تقاعد في نهاية السبعينات وان لم يقطع الصلّة، وقد عيّن أستاذا (émérite)، بطلبة الدكتورا الذين كانوا يتوافدون عليه صباح كل يوم خميس بمكتبه بالطابق الثاني (باريس III شارع سنتاي) ثم إن شارل بلا لثن لم يرتق إلى خطة أستاذ بمعهد فرنسا (Collège de France) فقد عيّن في بداية الثمانينات عضوا بأكاديمية النقائش والآداب

L'Académie des Inscriptions et belles Lettres من بين أعضائها الخمسة والاربعين وظلّ يحضر جلساتها عشية كلّ جمعة حتى وفاته.

II - كانت اهتمامات شارل بلا طيلة حياته متنوعة لكنها متكاملة.

لقد جمع إلى التعلّم والبحث مهمة التعليم وتكوين الباحثين درّس خاصّة في مستوى الاجازة أو الاستاذية ومستوى التبريز وكان سنة 1950 ثم لسنوات عديدة أخرى عضوا بلجنة هذه المناظرة ثم رئيسا له سنة 1976 وبعض السنوات الموالية وجلّ المبرزين التونسيين من فرنسا يعرفون ويقدرّون تعليمه ودقيق ملاحظاته ومساعداته لبعضهم على التسجيل والإعداد. ثم إنّه كما كان يحلو له أن يقول بين الجدّ واللعب كان "صانع الدكذاترة" إذ هو ساهم في مناقشة العديد من رسائل الدكتوراه بنوعيتها دكتورا المرحلة الثالثة ودكتورا الدولة ويعرف الكثير من أساتذتنا مساهمته كما أشرف على العديد من الأطروحات التي أعدها عشرات الطلبة من المشرق وخاصّة من شمال افريقيا وبصورة أخص من تونس أولاها التي ناقشها حمادي بن حليمة في سنة 1969 عن المسرح العربي المعاصر وآخرها التي ناقشها يوم 10 ديسمبر 1988 عن شعر الشيعة إلى القرن الثالث للهجرة، ولم يكن شارل بلا يجتمع بطلبته في باريس فقط بل كان يلتقي بهم حيث كان يمارس وجها آخر من وجوه نشاطه نعني «المحاضرة» فقد ألقى محاضرات عديدة بجامعات جلّ البلاد العربية بل وفي غيرها من سائر البلاد الاسلامية ولكن لا الدروس بجامعة الصربون ولا متابعة رسائل الدكتوراه ولا الأسفار والمحاضرات منعتة من البحث والترجمة والتأليف ولا حتى حدّت من نشاطه في هذه الميادين وبالقائمة التي أشرنا إليها 562 عنوان بين كتب ضخمة أو صغيرة ومقالات مطوكة أو قصيرة نستشفّ منها خصائص أساسية نودّ أن نبرز أهمّها بالاعتماد على بعض العناوين.

- : تتمثل الخاصية الأولى في تعدّد حقول اهتماماته وتنوعها.

1 - اعتنى باللغة العربية وخاصة، وهذا عجيب إذ هو كلاسيكي - باللغة العربية الحديثة (رقم 33) أو بالعربية الحديثة (رقم 84) كما اعتنى ببعض المسائل الصرفية (رقم 36) أو البلاغية (رقم 109) وساهم بعد وفاة رجبس بلاشير في اعداد القاموس ذي اللغات الثلاث العربية والفرنسية والانجليزية كما اعتنى بتأثير الفرنسية في لهجات المغرب (رقم 561).

2 - واهتم بالجغرافيا فألف في مسائل معينة (رقم 31، 50، 148، 540) وترجم فصولا من مؤلفات الجغرافيين العرب مثل ما كتبه عن المغرب المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم (رقم 27).

3 - واهتم بتاريخ العرب والمسلمين من خلال قضايا معينة دقيقة حول حلف الفضول في الجاهلية (250) حول الرسول (11، 112، 113) حول الشام وفلسطين في أخريات أيام صلاح الدين (رقم 388) وحول الباكستان (112 - 113) كما أعاد تحقيق أحد الكتب التاريخية الأساسية وترجمته نعتي كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر... للمسعودي في سبعة أجزاء الاثنان الاخيران منها مجموعة فهارس تكون بحق موسوعة أدبية وتاريخية وجغرافية. اهتم شارل بلازدهار المسلمين كما اعتنى بمراحل تراجعهم خاصة في الميدان الثقافي (رقم 111).

4 - ولم يهمل شارل بلا الأديان والمذاهب أو الفرق الاسلامية بل اعتنى بها بالانطلاق خاصة من آثار الجاحظ فتعرض إلى الخوارج (رقم 363) والامامية (رقم 150) والمعتزلة مبرزاً شخصية بعض اعلامهم الجاحظ في المقام الأول.

5 - ولكن لئن كانت عنايته باللغة والجغرافيا والتاريخ والفرق هامة فان عنايته بالأدب أهم.

أ) اعتنى بتاريخ الأدب العربي العام فآلف فيه منذ سنة 1952 كتيباً جدياً مفيداً (رقم 30) وأعاد طبعه سنة 1970 كما ترجم قبل ذلك كتاب كارلوناينو «تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية» (رقم 28) وحرر فصل الآداب العربي في موسوعات عديدة.

وخصص فصولاً عديدة لمسائل خاصة درسها عبر التاريخ مثل «النثر العربي ببغداد» (رقم 159) أو الأدب العربي بالأندلس (رقم 114) أو الأدب العربي وقضايا الأدب المقارن (رقم 255).

ب) اهتم بالشعر العربي فآلف لدائرة المعارف الإسلامية فصولاً يصعب إحصاؤها عن شعراء فحول أو مقلين من الجاهلية إلى القرن الخامس للهجرة وجمع ودرس أشعار بعض الشعراء من المشرق والمغرب مثل ابن المفرج (رقم 10) ومحمد بن يسير الرياشي (رقم 77) وابن شهيد (رقم 170) وقد ألقى عنه دروساً بجامعة عمان بالأردن باللغة العربية نشرت في كتاب (رقم 225) ثم درس الموشح والزجل «همزة الوصل بين ثقافات مختلفة» (رقم 360) كما درس الدوبيت (رقم 399) والشعر الملحون (فصل ملحون دائرة المعارف الإسلامية) وكان في جل أعماله حول الشعر المحقق المدقق الذواقه لفناً اعتبره بعض المستشرقين من الجنان المضمون بها على غير أهلها. وكم عبّر لنا عن إعجابه ببعض القصائد وبعض الأبيات من مثل قول دعبيل الخزاعي (من الكامل).

أين الشباب؟ وأية سلكا؟... لا أين يطلب؟ ضلّ بل هلكا.

أوبيت ابن وهبون (من الطويل)

تنبأ عجباً بالقريض ولودري بأنك تروي شعره لتألها

ج) ولكن مهما كان سلطان الشعر قوياً وسحره عجيباً فإن هوى شارل بلا كان مع النشر حديثه وقديمه مغريبه ومشرقيه فمن الأدب الحديث استهواه نشر جبران خليل جبران فترجم منذ سنة 1947 بعض قصصه (رقم 18 و19).

وسحرته شهرزاد فحدثت عن أسطورتها في الأدب المعاصر (رقم 373) طلبة كلية التربية بطرابلس ثم درسها بالاشتراك مع السيدة هيام أبي الحسين شخصية أدبية (رقم 408) ولكن النشر القديم هو الذي شدّه إليه طيلة حياته فاهتم بأهم أعلامه وآثارهم اعتنى بآبن المقفع وترجم خاصة كتابه... «رسالة في الصحابة». ترجمة نموذجية (رقم 409) واعتنى بآبن قتيبة فحقّق بالاشتراك مع محمد حميد الله كتاب الأنواء (رقم 86) ثم بيّن موقفه من الثقافة العربية (رقم 157) كما حقّق وترجم كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني (رقم 45) ودرس حياة ابن شهيد وآثاره وخاصة رسالة التوابع والزوابع (رقم 225) وكذلك ابن حزم (رقم 53).

ولكن أين عنايته بهؤلاء من عنايته «بصاحبه» أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؟ فهو الذي به عرف شارل بلا واشتهر ومن آثاره انطلق إلى آثار غيره ويصعب أن نحصر وجوه اهتمامه به فقد درس البيئة التي بها تكون بيئة البصرة (رقم 44) وأبرز حياته بها كما تتبّع حياته ببغداد وسامراء (رقم 40) ثم أحصى آثاره مرة أولى (رقم 87) ومرة ثانية (رقم 557) مقدّماً في فقرة موجزة ما أمكن جمعه من معلومات حول كل أثر من آثاره التي بلغت 245 أثر. ثم حقّق الكثير من آثاره وترجمها ودرسها ونشرها كتباً مفردة أو فصولاً في المجلات نشير إلى أبرزها مثل رسالة التريب والتدبير (رقم 73) فكتاب البخلاء (رقم 29) وكتاب التاج (رقم 49) وكتاب التبصّر بالتجارة (رقم 51) وهما منسوبان إلى الجاحظ، وكتاب القول في البغال (رقم 74) ورسائله في ذمّ الكتاب (رقم 92)

و«الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في فعله (رقم 129) ومفاخرة الجواري والغلمان (رقم 177) وتفضيل البطن على الظهر (رقم 401).

واعتمد شارل بلا آثار الجاحظ ليبين أبرز آرائه في بعض الشعوب والاشخاص وبعض الكتاب والشعراء وبعض القضايا الادبية العامة والخاصة وانطلق منها ليؤلف فصولا أو كتباً مفردة مطوكة عن بعض القيم العربية الاصلية وكتب حول مفهوم المروءة عند قدماء العرب (رقم 548) وكتب خاصة فصلا عن الحلم والحلماء عند العرب (رقم 374) ثم رسالة كاملة (رقم 375).

ب وج : وهناك خاصيتان ثانية وثالثة نستشفها من آثار شارل بلا انطلاقا مما كتبه عن الحلم. فهو أولا لا يكتفي بالتعميم بل كثيرا ما يعود إلى نفس الموضوع فيتعمقه وينقحه وكثيرا ما يتدارك أخطاءه متواضعا تواضع العلماء ثم هو ثانيا لا يكتب فحسب في لغته الأصلية أي الفرنسية بل يكتب في لغات عديدة هي بالإضافة إلى الفرنسية العربية والاطالية والاسبانية والانقليزية وان شئت زد البربرية فهو يحذق حذقا تاما هذه اللغات الخمس أو الست يحرر بها ويحاضر ويترجم منها وإليها وقائمة مؤلفاته بذلك تشهد.

د) أما الخاصية الرابعة فتتمثل في قدرة شارل بلا على العمل الجماعي فقد اشترك مثلا مع كريمته ايفات Yvette (رقم 204) ومع هيام أبي الحسين (رقم 408) ومع محمد حميد الله (رقم 86) ومع غيرهم في اعداد مقالات أو تحقيق كتب أو تأليف قواميس ولعل أهم مثال على قدرته في هذا الميدان مساهمته في الاشراف منذ منتصف الخمسينات على دائرة المعارف الاسلامية فالمقالات التي حررها وأمضاها باسمه عديدة وعديدة كذلك المقالات التي وعد بها جماعات ثم أخلفوا الميعاد فحررها هو وأمضى Red. فهو لا يؤمن بما أقره بعض الفقهاء «من أن العلماء بعضهم على بعض أشدّ تحاسدا من التيوس في

زرائبها» بل يؤمن بالتعاون في تواضع ويعرف أن الكبير لا ينفع ويؤمن بالاحترام المتبادل وكثيرا ما كان يردد قول الراجز:

نقطع أرضا ونلاقي أرضا إن البلاد غلبتني عرضا

(هـ) أما الخاصية الخامسة فتهم العمل أو بالأحرى «الجهاد» المستمر فقد قاوم طول حياته ولم يستسلم لليأس أبدا.

تلاقي مثلا أثناء الحرب قلة الورق مستعملا على ما يقال علب السجائر الجيتان Gitanes وتغلب على تكاليف الطباعة الباهضة برقن النص الفرنسي وكتابه النص العربي بخط يديه كما يظهر ذلك في رسالة في الصحابة لابن المقفع وقد نشرها ضمن سلسلة اشراف عليها لما كان في آخر أيام نشاطه التعليمي مديرا لمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة باريس IV وفي ما يلي وفي ما يلي انموذج من ذلك:

٥٤٥ - مع أن أصول الوظائف على الكور لم يكن لها
ثبوت ولا علم ، وليس من كورة إلا وقد غيرت وظيفتها
مراك ، تخفيت وظائف بعضها ونفيت وظائف بعض ؛
فلو أن أمير المؤمنين أعمل رأيته في الشؤطف على الشؤطف
والقوى والأرضين وظائف معلومة وتدرج الدواوين بذلك
وإثبات الأمور حتى لا يؤخذ ردة إلا بوظيفة قد عرفها
وضمنها ولا يجرى في عمار إلا كان له فضلها ونفعها
نرفعونا أن يكون في ذلك فساد لدعيته وعمار الأرض وحسن
لأبواب الحيانة وحسن العمل .

و) ويبدو من كل ما تقدم أن اهم ما يميّز نشاط شارل بلا هو الجدّ ولكنّ من صاحب ابا عثمان الجاحظ وفهم قوله: «من كان صاحب علم ممرّنا موقّعا، الف تفكير وتنقيب وحلف تبينّ وكان ذلك عادة له لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل ليخرج بذلك من شكل إلى شكل فان الاسماع قد تملّ الاصوات المطربة واللاتار الفصيحة والاغاني الحسنة اذا طال ذلك عليها». قلنا من صاحب ابا عثمان وفهم قوله هذا وتبينّ منهجه في التّأليف لا يمكنه الا ان يكون مثله يجمع بين الجد واللعب في التّأليف وفي الحياة وكذا كان شارل بلا وهذه هي الخاصية السادسة التي نستشفها من آثاره ومن صلاتنا به.

- ونقرّ ان ميزات شارل بلا عديدة ولكننا نكتفي بهذا ونختتم بما قدّم به رسالة في الحلم قال: «ربي انعمت فزد أطل الله بقاءك وادام نعمته عليك وجعلك ممن يشكر للباحثين كدودهم وللعلماء وجهودهم ويحمد للمستشرقين اخلاصهم وللمستعربين تجرّدهم ولكلا الفريقين سعيه الحثيث في احياء تراث الشعوب وانكبابه على دراسة لغاتهم ونشر ادابهم دفاعا عنهم وتنويرها بمآثرهم وتخليدا لم يستحق ان يخلد إلى الأبد من رسوم حضارتهم» والسلام.

الطيب العشاش

توطئة

[5] إن الجمهور الفرنسي المثقف الراغب في التعرف على إنتاج كتاب اللغة العربية لم يكن لديه طيلة سنوات عديدة غير طبعات متتابعة من كتاب كليمان هوبار "الأدب العربي" المنشور بمكتبة أرمان كولين في سلسلتها "تاريخ الآداب" وهذا الكتاب، وهو مجموعة من التراجم تجاوزها اليوم الزمان أيضا تجاوز، يشينه زيادة على ذلك ما ينقصه من النظرات الواسعة وهو لا يمكن القارئ غير المتخصص ولا الطالب المبتدئ من التوجه الوجهة الحسنة ولا من تبين تطور الأدب العربي واتجاهاته الأساسية تبيننا واضحا.

كان ينقصنا إذن بفرنسا كتاب سهل تناوله إلا أن ج.م. عبد الجليل قد تلافى والحمد لله هذا النقص الفادح إذ قدم منذ سنة 1943م " للطلبة ولمن كانوا يرغبون في إتمام ثقافتهم العامة" الطبعة الأولى من كتابه "الوجيز في تاريخ الأدب العربي" وهو يرضي إرضا تاما حاجة الطلبة الذين هم دوما يرغبون في الحصول على أداة عمل سهلة التناول وحاجة القراء الذين يحدوهم الشوق لتوسيع معلوماتهم حتى ينزكوا في إطار أعم ما كان شاع من أسماء الكتاب وعناوين الكتب.

ولكن قد كان بدا لنا سنة 1952 من الممكن - رغم قيمة هذا الكتاب - أن نقدم عرضا جديدا عن الحركة الأدبية عند العرب ومن تكلم العربية سالكين مسلكا مختلفا أي معرفين، وذلك في خطوطه الكبرى، بنظام اللغة العربية وتطورها ورأسمين، وذلك في معالمها العامة، صورة للأدب [6] نؤكد فيها على الاتجاهات والآثار أكثر من تأكيدنا على الكتاب ندرسهم فرادى.

إن العالم العربي لم ينفك منذ ذلك التاريخ يحتل مكانة متعاظمة ضمن تطور البشرية فنتج عن ذلك أن تطلع إلى حضارته وأدبه جمهور لا يزال يتكاثر. وقد تعهدت بعض المنظمات مثل اليونسكو بأن تنشر بالغرب، أو على الأقل أن تقدم له بصورة أوضح وأن تجعله يقدر، الآثار الأدبية لأمة كان لها في القرون الوسطى في ميدان الفلسفة والعلوم شهرة لا تضاهي، غير أن

أدبها بمفهومه الدقيق لا يعرفه إلا القليلون. وهكذا فإن آثارا عديدة لم تكن جميعا ذات طابع أدبيّ قد أشرفت على نقلها الهيئة العالمية لترجمة الروائع ودعي ف.بيات لتأليف "مدخل إلى الأدب العربي (باريس 1966) وهو كتاب عنوانه، وهو جدّ متواضع، لا ينطبق على محتواه انطباقا تامّا. وقد ظهرت في نفس الوقت ترجمات أخرى لآثار أدبيّة ومختصرات عديدة في لغات أوروبية مختلفة. أمّا في اللغة الفرنسيّة فإنّ أ. ميكال قدّم منذ عهد قريب (1969) في سلسلة " ماذا أعرف؟ " تاريخا للأدب العربيّ، هو بالضرورة موجز غير أنّه في طريقة عرضه غزير الإشارة ثمّ طريف. (أ)

ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن الكتاب الوحيد من بين المؤلفات المخصّصة لهذا الموضوع باستثناء الدّراسات العلميّة المفردة، الرامي إلى تدريس الأدب، لا كما كان الشّأن من قبل إلى تقديم مجرد نظرة عامّة هو « تاريخ الأدب العربيّ منذ نشأته إلى نهاية القرن XV ل:ر. بلاشير وهو يقدم في الأجزاء الثلاثة (ب) الصادرة من 1952 إلى 1966 في بحث عميق جدا صورة للإنتاج الأدبيّ في اللغة العربيّة في القرن الأوّل للإسلام. ويبدو حاليا أن هذه الدّراسة النقديّة، وقد كانت ضروريّة، قد توقفت ولا يسعنا إلا أن نرجو لهذا العمل (ج)، وقد شرع فيه من أجل المتخصّصين قبل القراء المثقّفين، أن يتواصل فيبلغ منتهاه. وأمّا ما يطمح إليه هذا الكتيب ونحن نقدّمه في [7] طبعة ثانية منقّحة مجدّدة فدون ذلك بكثير. وقد حملنا ما حظيت به الطبعة السّابقة من قبول على أن نحافظ على الطريقة التي كنّا اتّبعناها أي أن نهتمّ بتطوّر طرق التّعبير والأغراض الأدبيّة محدّدين قدر الإمكان التراجم ومتجنّبين كلّ التجنّب إعداد مجرد فهرس. وستمكّننا هذه النظرة من أن لا نتبع دائما تخطيطا موحّدا وهكذا فإنّنا

أ- عربنا هذا الكتيب وطبعته الشركة التونسية لفنون الرسم تونس سنة 1400 / 1979.

ب- عرب هذه الأجزاء الثلاثة الدكتور ابراهيم الكيلاني. ونشرها بدمشق سنة (1) 1956؛ (2) 1973 (3) 1974

ثم أعادت الدّار التّونسيّة للنشر والمؤسسة الوطنيّة للكتاب بالجزائر نشرها بتونس سنة 1986 والملاحظ أن

هذه الترجمة تدل على ضعف المترجم في فهم الفرنسيّة كما تدلّ على أنّه لم يفهم أهم مقصد من مقاصد

المؤلف إذ هو لم يترجم ما ختم به بلاشير كل فقرة من مصادر ومراجع نقديّة هي أساسية لمواصلة البحث.

ج- مات الاستاذ ر. بلاشير يوم 7 / 8 / 1973 وإنّه لمن المفيد أن يتحقّق الرّجاء على يدي طلبته.

سنرتب ضمن كل فصل مختلف طرق التعبير حسب ما يبدو لها من أهمية نسبية في الفترة المعنية بالأمر. فعلينا حتما أن نختار وأن نحذف الآثار الخارجة عن الأدب في مفهومه الصحيح كما نحذف الشخصيات الثانوية غير الطريفة وإن كانت أثارها مفيدة.

وحجم هذا الكتاب الصغير يمنعنا من ناحية أخرى من أن نقدم مختارات مطولة من الآثار غير أننا كي نتلاقى هذا النقص سنذكر في الأثناء الآثار التي ترجمت إلى اللغة الفرنسية حتى يتمكن القاريء الراغب في إرضاء تطلعه بصورة مباشرة بدرجة أكبر من الرجوع إليها، والآثار المترجمة لا تمثل في جملتها إلا قسما ضئيلا من الأدب وهذا النقص الظاهر وإن كان يؤسف له تعليقه واضح إذ أن الآثار الفنية لا تهتم عادة إلا المتخصصين في حين أن الآثار الأدبية لا يمكن نقلها حقا إلى لغة أوربية إلا بخيانتها فالحذف والاقتباس والتحويل أمور لا بد منها غير أن المترجمين ما زالوا لا يقبلونها إلا مكرهين. ولنا حل مرضي يتمثل في تقديم منتخبات وقد سبق أن نشر عدد من المجموعات يمكن أن نذكر من بينها:

— قرانجري دي لاقرانج: منتخبات عربية. باريس 1828

هومبار: منتخبات عربية أو مختارات من الشعر العربي غير المنشور. باريس 1819

ـ ف ـ ميشال: مختارات مترجمة من الشعر الشرقي: أ. فويني. باريس 1830

ـ ج ـ دافيد: ترجمات واقتباسات لأشعار عربية وفارسية باريس 1844

ف. دي مرتينو: وعبد الخالق باشا ثروت: منتخبات من الغزل عند العرب ط 3 باريس 1902

[8]. ل: ماشوبال: مؤلفون عرب. باريس 1924 .

ـ س ـ بن شنب: الشعر العربي الحديث: مترجمات. وهران 1945

ـ ج ـ صوفاجي: مؤرخون عرب. باريس 1946 .

أ. درمنقام: أحلى النصوص العربية باريس 1951

ـ ر ـ خوام: الشعر العربي أو نسيمات الأسفار من جنان الأشعار باريس 1960

ـ ف ـ فيات: عظمة الإسلام. باريس 1961

ـ ف ـ متاي: منتخبات في اللغتين من الأدب العربي المعاصر. بيروت 1961

ـ ر ـ خوأم: أقاصيص عربية. باريس 1964

ـ منتخبات من الأدب العربي المعاصر:

ـ الرواية والاقصوصة

ـ ر.و.ك. مكاريوس. باريس 1964

ـ المقالات: لـ: أ. عبد الملك. باريس 1965

ـ الشعر: لـ: ل. نوريس وأ. طريبة. باريس 1965

وانه لمن المؤكد من ناحية أخرى أننا قد اعتمدنا أعمال المستشرقين محاولين جهدنا أن نقدم خلاصتها غير أننا لم نر من المفيد أن نحمل عملنا شحنة ثقيلة من التعليقات الخاصة بالمراجع. لكن قد بدا من الضروري أن نقدم لكل فصل بل أحيانا لكل فقرة هامة بذكر الكتب الأساسية التي تصلح أن تكون منطلقا لما قد يكون من أبحاث حول مسألة معينة وقد حصرنا اختيارنا في ما كتب بالفرنسية إلا أننا قد سمحنا لأنفسنا في حالات خاصة بذكر مراجع في لغات أخرى. فعلينا أن نعلم فعلا في ما يخص ميداننا أن أغلب المراجع ليست باللغة الفرنسية ولا هي بالعربية بل هي بالألمانية والانجليزية. ويحسن من جهة أخرى ألا ننسى البتة أن كل باحث سواء أكان متخصصا في العربية أو لم يكن يمكنه أن يعود في دراسة جميع المسائل المتعلقة بالأدب العربي إلى المرجعين الأساسيين التاليين وقد أخذنا فعلا عنهما الكثير.

ـ دائرة المعارف الإسلامية. وهي معجم أبحاث في الجغرافيا وعلم البشر والتراجم للشعوب الإسلامية. 4 مجلدات وملحق ليدن ـ باريس 1913 - 1942 (قد رتب المصطلحات فيها والاعلام على حروف الهجاء [اللاتينية] وقد طبعت في الآن نفسه باللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية، والطبعة الجديدة وهي تصدر بالانجليزية والفرنسية فقط هي لجذ أوسع.

و ضروري - مقسّم إلى عصور بوب الانتاج الأدبي داخلها حسب البلدان والفنون، وتشمل الفقرات
المخصّصة للمؤلفين بعض الأخبار في تراجمهم وقائمة في آثارهم المطبوعة أو المترجمة أو
المخطوطة أو الضائعة وقائمة مراجع جدّ مفصّلة وقد شرع في إعادة كتاب بروكلمان وإتمامه ف -
سزقين بعنوان تاريخ التراث العربي: الجزء الأول. ليدن 1967. [ب]

ولعلّه علينا أن نذكر أن لفرنسا اليوم أربع مجلات:

" مجلة الدّراسات العربيّة " أريكا ARABICA

" الشرق " - أريون Orient

" مجلة الدّراسات الإسلاميّة " Revue des Etudes Islamiques

" دراسات إسلاميّة " : استوديا اسلاميكا Studia Islamica

أ- عربّ هذا الكتاب مع الجمع بين المجلدين والملاحق الثلاثة وصدر في أجزاء على النحو التالي ج 1، 2، 3، 6
(تعريب عبد الحليم النّجار) ثم ج 4 و 5 (تعريب يعقوب بكر ومراجعة رمضان عبد التّواب) ونشرته دار المعارف بمصر
في سنوات مختلفة بين 1959 و 1977 وصنعت فهارس هذه الأجزاء ديرة الخطيب (جامعة حلب 1984 - 1991)
ثمّ أصدرت الهيئة المصرية العامّة للكتاب بالقاهرة من 1993 - 1995 تعريباً آخر بإشراف محمود فهمي حجازي
في 9 أجزاء.

ب- صدر منه إلى سنة 1984 تسعة مجلدات تهم (1) الدّراسات القرآنية والحديث والتاريخ والفقه، (2) الشعر، (3)
الطب ، الصيدلة وعلوم الحيوان والبيطرة، (4) الكيمياء وعلوم الفلاحة، (5) الرياضيات، وعلوم مواقع المجوم، (7)
علم التنجيم، (8) علوم اللغة أو المعجمية وأخيراً (9) علم النحو. والملاحظ أن هذا الكتاب الهام قد عربّ في مجلده
وبهمنّا المجلّد الخاصّ بالشّعر عربّه محمود فهمي حجازي وراجع الترجمة عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم ونشرته
(جامعة الامام محمّد بن سعود الاسلاميّة بالمملكة العربيّة السّعودية في 5 أجزاء بين سنتي 1403 و 1404 /
1983 - 1984) كما نشرت سائر الأجزاء

تجمع فصولاً في الأدب العربي وتقدم ولاسيما "مجلة الدراسات الإسلامية" مجموعات مراجع Abstracta.

ولم يتواصل إعداد "مجموعة الكتب العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة بأوروبا المسيحية من 1810 إلى 1885 ل:ف-شوفين. لباج 1892 - 1922 - 12 جزءاً. غير أنه لنا الآن كتاب "فهرس المؤلفات المتعلقة بالإسلام. ل:ج. د. بيرسن. I - كمبيريدج 1958 (1906-1955) II - كمبيريدج (1962) (1956-1960) [أ] (...) [ب]

[10] والسنوات المذكورة هي سنوات تاريخنا [الميلادي]. ولنا جداول موافقة بين التاريخين جد مفصلة ودقيقة لكنّها عسيرة الاستعمال ولنا جداول أخرى حجمها أنسب علينا نستعملها متى وجب التدقيق (1). غير أنه من الممكن إذا كان التقريب كافياً أن نقتصر على عملية حسابية سريعة: يبدأ التاريخ الهجري سنة 622م. ويتقدم سنوياً على الميلادي بأحد عشر يوماً أي بما يقارب ثلاثة أعوام كل قرن. فيكفي إن كنّا نعرف سنة من تاريخنا [الميلادي] أن نطرح 622 وأن نضيف إلى الحاصل ثلاثة بالمائة منه. فسنة 1445 ميلادياً مثلاً توافق سنتي 848-849 هـ. وهذه العملية المتقدمة نتيجتها:

$$1445 - 622 = 3 + (1445 - 622) = 848.$$

100

[أ] تواصل هذا الفهرس الشامل على النحو التالي: III (1961-1965) ط1 1967 (ثم ط2 1974 وط3 1979) IV (1966-1970) ط1 1972 (ط2 1978 وط3 1979) V (1971-1975) ط1 1977; VI (1976-1980) وهو قسمان 1: المقالات ط. 1: 1983 ثم 2 (الدراسات المفردة) ط. 1 1983 [ب]- من السطر الخامس والعشرين من الصفحة التاسعة إلى السطر السادس عشر من الصفحة العاشرة بين المؤلف كيف نقل الأصوات العربية إلى اللاتينية ثم كيف عامل أسماء الأعلام. 1- نوصي ب: ه.ج. كتيّنوز. جداول الموافقة بين التاريخين الميلادي والهجري. [ويمكن كذلك اعتماد كتاب "التقويم الهجري والميلادي تأليف فرمان فرانفيل المنشور بالانقليزية بلندن وطورنطو سنة 1963 م / 1383 هـ وقد عرّفه حسام محيي الدين الالوسي (مطبعة الجمهورية بالعراق سنة 1389 هـ / 1970 م)].

مقدمة

مراحل اللغة والآداب العربية الكبرى

إن تاريخ اللغة والآداب العربية في كتاب جد متعمق وجد مفصل يمكن أن يكون - مجزأ - إن أردنا اعتبار مراحل تطورها العديدة والمظاهر الخاصة التي اكتسبتها بمختلف البلاد الناطقة بالعربية. غير أن هذا التقسيم المفرط في التجزئة يكون في بحث أردناه عمدا موجزا - على درجة من عدم الصلاحية تختفي معها خطوطه الكبرى والحال أننا إلى رسمها قد قصدنا. ولذا فإننا، ونحن نلاحظ أن مراحل التاريخ الأدبي لا يمكن أن توافق مراحل التاريخ السياسي وهذه أكثر دقة، سنقتصر على إبراز أربعة عصور أساسية لا نذكر لها حدودا إلا من باب تبيان معالم الطريق

1 - إن اللغة العربية قبل الإسلام هي أساسا لغة تخاطب والآداب المكتوب منعدم غير أن الشعر مزدهر وقد تكون نوع من اللغة الأدبية الشعرية وإن القرآن هو الأثر الأدبي الأول عند العرب. وإن الدين الجديد المرسل، وهو لم يقض على الشعر الذي واصل بالعكس السنة القديمة، قد كان سببا في تطور فكري عظيم. وفي حين نشأ نثر عربي فإن اللغة كانت موضوع بحوث أوائل اللغويين وأصحاب المعجمات الذين سعوا [12] إلى استخلاص قواعد نحوها وجمع مفرداتها. وهذه المرحلة التي تمتد من الجاهلية إلى عصر بني أمية وتنتهي في العقود الأولى من القرن VIII، هي مرحلة نشأة الأدب.

2- وفي عهد الخلفاء العباسيين الأول ضُبِطَت اللغة العربية الفصحى ضبطا نهائيا باعتبار مذهب العرب على الأقل - غير أن مفرداتها نمت في نفس

الوقت بالاتصال بالثقافات الأجنبية. وأشعّ الأدب إشعاعاً قوياً ببغداد أولاً ثم، بعد انقسام العالم الإسلامي، بمختلف الأقاليم وفي القرنين العباسيين الأول والثاني جمعت عناصر مذهب إنسوي عربي أضفى عليه تآلف الثقافات الإيرانية والإغريقية والهندية إشعاعاً غير معهود.

ورغم التأثيرات الأجنبية فإنّ الشعر ذا الطابع القديم - وقد كان أقلّ مؤقّتا بظهور شعر تجديديّ - قد استعاد منذ القرن IX مكانته الممتازة كما أعيد الاعتبار للسنة الشعرية وقد استفاد النثر على العكس من ذلك من الظروف الجديدة ففي هذا العصر وضعت أغلب الآثار التي تكون التراث الأدبي عند العرب ومرحلة النهضة هذه لا توافق موافقة تامّة تاريخ الخلافة العباسية فقبل غزو المغول بمدة طويلة (احتلال بغداد سنة 1258 كانت قد ظهرت على الأدب علامات تدهور).

3- بعد سقوط الخلافة العباسية ونهاية السيادة العربية هدّت اللغة العربية في مراكزها الأقوى اللغة التركية واللغة الفارسية وغمرتها دون أن تثرها وقد أعرض الغرب الإسلامي عن الشرق وحاول أن يحافظ على السنة القديمة غير أن تمجيد الماضي وتقليد القدماء والشعور بأن كلّ شيء قد قيل لم تكن تساعد على ظهور آثار طريفة. وفي هذه العصور المظلمة - إن نحن استعملنا عبارة قد حظيت بالشهرة - ليس هناك إلا بعض الفرادى أفاقوا من سباتهم وألقوا على عالم أظلم أضواء سرعان ما خبت.

4 - وحملة بونابارت على مصر أعادت بلاد [13] الشرق الأوسط إلى المدار العالمي: فقد اندفع الشاميون والمصريون في حماسة تشكر وسرعان ما حاكاهم سائر العرب، في الاتجاه الذي رسمته أوربا فهذبوا لغتهم وأثروها وجدّوا في إعادة خلق أدب دون أن يتحرّروا تحرراً مطلقاً من عبء الماضي وهذه بالنسبة إليهم مرحلة تجدد مرحلة انبعاث يحقّ لنا أن ننتظر منها أعظم النتائج.

خصائص الأدب العربي العامّة

أمّا وقد حدّدنا على هذه الصّورة عصور الأدب الكبرى فبإثّه سرعان ما يتبادر إلى الذّهن سؤال ذو ثلاثة أوجه: لماذا وكيف ولمن نظم وألف شعراء العرب وكتّابهم أشعارا وكتبنا؟ إنّ جوابا مناسبا -إنّ تيسّر- قد يساعدنا على أن ندرك إدراكا كافيا الطّبيعة الحقّ والخصائص المميّزة لإنتاج غزير نودّ أن نكون قادرين على الحكم فيه حكما عاما.

ما الغرض من نظم القصائد وتأليف الكتب؟

إنّ الصّورة المعهودة، صورة الشّاعر يدفعه دافع لا يقاوم، ليست غريبة عن العرب. ويكون من السّهل أن نحصر مؤلّفات هي - إنّ صحّ التعبير - عفويّة فقصائد الشكوى والقصائد الغزليّة ومقطوعات بعض الشعراء المقلّين القصيرة لم تكن في الظاهر تنظم دائما لغاية معيّنة غير أنّ هذه القصائد لا تمثّل إلّا قسما ضئيلا نسبيا من الإنتاج المحتفظ به، في حين أنّ الآثار العظيمة التي وصلتنا هي خاصّة مدائح وأهاج وقصائد دعت إليها المناسبات ونستشفّ منها في غير عسر نيّة خفيّة: الدّفاع عن القبيلة ومهاجمة القبيلة المعادية والفخر ونظم أبيات لتعلّق "ميسانّي" (أ) أو لشكره أو لإمتاعه.

وقليلة هي في ميدان النّثر الآثار التي [14] تصدر عن حاجة مطلقة خالصة إلى التّعبير عن الرّأي. بل إنّ الملاحظين الأقلّ خبرة سرعان ما يمكنهم أن يلاحظوا ما للاشتغالات الدّينيّة من مكانة عظيمة في الأدب. فهو تمجيد دائم

أ - عرّنا بهذه الكلمة كلمة Mécène وهو شخص روماني عاش في القرن الأول قبل المسيح وكان نصيرا للأدب والفنون وكلمة mécénat عرّناها بميسانيّة نسبة إلى هذا الشخص ويمكن تعريبها برعاية الآداب.

لله ورسوله والإسلام واللغة التي نزل بها القرآن. وتمثل دراسة السنة النبوية وسيرة محمد والفقه والشريعة إلى جانب تفسير القرآن قسما هاما من النشاط الفكري. وإلى هذه العلوم الدينية المحض تنضاف البحوث اللغوية والمعجمية وهي علوم متفرعة عن الدين إذ هي تمكن من فهم النصوص المقدسة والدفاع عن اللغة السماوية الأصل كما هو شأن العربية. والبلاغة غايتها إبراز محاسن القرآن وقد نشأ التاريخ بنسبة كبيرة عن دراسة حياة النبي وعن وجوب معرفة تراجم رواة الحديث وحتى الجغرافيا فإنها تمكن من تمجيد الله بوصف عجائب الطبيعة.

فإن نحن انتقلنا - تاركين العلوم المتصلة اتصالا وثيقا بالدراسات الدينية - إلى الجانب غير الديني من الأدب فإننا لا نكتشف إلى جانب المقالات الفلسفية والمؤلفات العلمية في الطب والفلك والحساب والكيمياء إلا آثارا الغاية منها التعليم أو الإمتاع. غير أنه يجب أن نبادر بملاحظة أن أشهى كتب الإمتاع ليست إلا مجاميع من النوادر تتبع في ميدان الهزل الطرق المطبقة على دراسة الأحاديث وتحد إلى أبعد حد الجانب الواعي من التخيل. والقطيعة، بصورة مبكرة، بين العامية والفصحى نتج عنها كذلك أن تطور، بصورة تكاد تكون قطعية، أدب علماء يكتبون لعلماء أو أدب ديني أو أدب إفادة أو نشر هو بعد "هادف" كثيرا ما نخرج منه بالشعور بضجر مرهق.

[15] أساليب الكتابة

للعرب ثلاثة مذاهب أساسية للتعبير تختلف اختلافا بيّنا: الشعر والنثر المسجوع والنثر المرسل فبناء اللغة العربية يقدم في كل يسر منابع للنظم لا تقدر إذ أن النظم مبني على مزاجية بين مقاطع قصيرة ومقاطع طويلة تساعد البحث عن الإيقاع أما الصرف وهو يستعمل طرقا يمكن تطبيقها على كل مادة فهو يضاعف الكلمات من النوع الواحد ويسهل السجع والقافية.

وتدلّ أقدم المؤلفات التي وصلتنا على قدرة على النظم قد حصلت قبل الإسلام بعهد طويل. فقواعد النظم والهيكل والأغراض قد حدّدت تحديدا واضحا في الآثار القديمة أو الناحية منحى القدم وتجديدات العصور اللاحقة لم تفكّك إلا نادرا الهيكل التقليديّة أو هي نتجت عن هذه القوالب بعد تطوّر طبيعيّ.

وتتكوّن القصيدة العربيّة من أبيات متفاوتة العدد مبنية كلّها على قافية واحدة بالاضافة إلى التصريح في البيت الاول - يشتمل البيت على مصراعين متساويين بتركبان من تفاعيل تتكوّن من مقاطع طويلة وأخرى قصيرة ويتكوّن المقطع القصير من حرف وحركة (مثل بَ والمقطع الطويل يتكوّن أساسا من حرف وحركة طويلة (مثل: بَا) أو من حرف وحركة قصيرة وحرف ساكن (مثل: قَدْ) وقد يتكوّن عرّضا من حرف وحركة طويلة وحرف ساكن (مثل: بَاب) والتفعيلات المتكوّنة من المزوجة بين مقاطع قصيرة ومقاطع طويلة ثمان وهي:

-V - (فعولن) -V - - (مفاعيلن) -VV -V (مفاعلتن)

-V - - (فاعلاتن) -V - (فاعلن) -VV -V (متفاعلن)

-V - - (مستفعلن) - - -V (مفعولات).

وتمكّن جوازاات تتمثّل في تقصير مقطع طويل أو تعويض مقطع طويل بمقطعين قصيرين أو سقوط مقطع من الزيادة بنسبة كبيرة في عدد التفاعيل الثماني الأصليّة دون أن تمنح الشّاعر مع ذلك حرّة مطلقة. وهكذا فإنّ العبارة الأوفى شاعريّة التي يمكننا أن نتصوّرّها لا يمكن^[16] إدراجها في بيت من الشّعر إلا بصعوبة كبيرة إن هي احتوت على ثلاثة مقاطع قصيرة أو ثلاثة طويلة

متتابعة ويوجد ستة عشر بحراً كلاسيكياً ليس من المفيد إثبات رسمها.
وأطولها - على سبيل مجرد الملاحظة - يتركب من ثلاثين مقطعاً:

.. V - V V / - V - V V / - V - V V / - V - V V / - V - V V / - V - V V

(متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن // متفاعِلن / متفاعِلن / متفاعِلن).

وأقصرها من ستة عشر بل من ثمانية أحياناً

- - - V / - - - V // - - - V / - - - V

(معايِلن / فعلاَتِن // معايِلن / فاعِرتِن)

تصبح (مفاعِلن // فعول) V - V // - V - V .

وهذا العروض^[أ] وهو لا يخلو من أن يذكّرنا بعروض اليونان واللاتين ابتكاراً للعرب^{د. ف. وق} إن حذاء "حادي" وهو يتبع سير الإبل الموزون هو أصل الشعر. ويغلب على الظن فعلاً أن سير الحيوان قد عدل وقع الغناء قبل أن يفكر الحادي في استعمال التأثير المعاكس.

ويتكوّن الهيكل أو القالب الكلاسيكي أساساً من القصيدة وهي تفرض على الشاعر تخطيطاً مضبوطاً وتحدّ من طفرات إلهامه والقصيدة - ويجب أن تضمّ على الأقل سبعة أبيات - تفتح بمقدمة غزليّة (النسيب) تخصّص لذكرى

أ: كتب العروض أكثر من أن تحصى ونوصي على سبيل المثال بالكتاب المعاصر الكلاسيكي: تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب للشّيخ محمد بن أبي شنب- أدريان ميزوني ناپ باريس طبعات عديدة. ط. 3. 1954 وقد أعادت نشره دار الغرب الاسلامي ببيروت سنة 1990 في طبعة رابعة مع مقدمة بقلم أبي القاسم سعد الله وفصل عروض بدائرة المعارف. الاسلاميّة الطبعة الفرنسيّة I/ 688 - 698 بقلم فوتهولد وائل وقد اعتمده محمد اليعلاوي في مقاله: مشكلة الدوائر الخليلية وصلتها بحقيقة الوزن في الشعر العربي بحوليات الجامعة التونسية IV / 101 - 120 (سنة 1967) وفي كتابه أشاتات في اللغة والأدب والنقد. دار الغرب الاسلامي بيروت 1992.

امرأة من المفروض أن الشاعر قد أحبها ثم إنه وهو يمر بأثار ريع مهجور يذكر أن قبيلتها قد نزلت بذلك المكان وأنه قد عرف به إلى جنب حبيبته أياما سعيدة غير أن "غراب البين" كان قد أنبأه أن هذه السعادة لا تدوم. ولم يعد بوسعه إلا أن يتبع بخياله رحيل من أحبها وأن يذرف الدمع على ذكرى أيام هواه الزاهية وتتركب عادة على معنى من هذه المعاني صورة للمرأة تقليدية تتكون من قوالب جاهزة وتشابيه بالغزلان والمها وحيوان الصحراء.

وهذه المقدمة هي بعد اصطناعية في أقدم آثار الشعر العربي وهي لذلك تدل على استعمال قديم. ولا شك أنه قد كان يسود علاقات الرجل بالمرأة تحرر شبيه بما يمكننا أن نلاحظ [17] في «مجالس الحب» عند التوارث (أ) اليوم. ومن الممكن أن تكون علاقات حرة أو زيجات مؤقتة قد تمت زمن الإقامة أيام الربيع.

وبعد النسب يصف الشاعر رحيله إلى الأشخاص الذين يريد مدحهم. ويمكنه هذا الرحيل من فرصة يصف فيها مطبته ومسلكه وحيوانات الصحراء وما يتعاطاه من الصيد دفاعا عن نفسه أو ضمانا لقوته كما يصف الأخطار التي عليه أن يواجهها.

ثم إن القسم الأساسي من القصيدة يتضمن مدح شخص أو جماعة ويكون الغرض فيه تمجيد العرض وهو عند الأفراد الشجاعة والحرية وإقراء الضيف وكرم الأصل وعند الجماعة البلاء في الحروب والاستقلال والمحامد الجماعية.

وقد يتضمن هذا القسم أيضا مثالب خصم أو قبيلته (الهجاء) كما قد يتضمن بكاء ميت عزيز (الرثاء). وفي قصائد الهجاء كثيرا ما يعرض القسمان الأول والثاني بنوع من الإشارة إلى المعنى بالأمر في حين أن الرثاء يعتبر فيه القسم الغزلي في غير محله فتسبق مدح الميت خواطر عامة في الحياة والموت ومصير الإنسان.

أ - القبائل المعربة المتنقلة بين حدود النيجر والجزائر ومالي.

وهذا الهيكل القديم [أ] يحمل مع ذلك بذور جميع العناصر الضرورية لتطور خصيب: وفعلًا فمنذ القرن VII نشأ عن المقدمة الغزلية شعر غزليّ مستقلّ وقد أفردت بعض المعاني التي كانت تطرق عرضاً في شعر المدح وكونت نواة أغراض مستقلة كالخمريات مثلاً وأصبح الهجاء، وقد اختصر وخفف، مقطوعات لواذع. في حين استقلّ عن الرثاء - وقد كان يشمل عنصراً فلسفياً - نوع من الشعر سميّ "الزهديات".

وقد دعت في العصر العباسيّ عوامل خارجية أعظم الشعراء إلى أن يحطّموا الهياكل التقليدية وقد كانت تبدو اصطناعية بدرجة مفرطة وغير مقبولة في مجتمع حضريّ غير أن هذه المعركة العربية بين القدماء [18] والمحدثين لم يكن لها إلا قليل من النتائج الدائمة وسرعان ما استعاد التقليد سيادته.

وثاني مذاهب التعبير التي عرفها العرب هو النثر المسجوع وهو في الحقيقة أقدم من الشعر ويتميّز عنه بانعدام بحور منتظمة. ويتّصف خاصّة - وهو أحياناً موزون - باستعمال كلمات في جوار قريب موحدة القافية فهذا النثر المسجوع - وقد استعمله قبل الإسلام الكهّان والخطباء - قد أقرّه القرآن استعمله أيضاً بعد الإسلام دعاة وسياسيّون كانوا يعرفون كيف يؤثرون في مستمعيهم لكن ولئن ظهرت بعض الفواصل في نثر أحسن الكتاب كذلك فإنّ مبدأ إعجاز النصّ القرآنيّ قد حمى طيلة ثلاثة قرون الأدب العربيّ من هذه الطريقة في التعبير ولم يصبح استعمالها عادياً إلا بداية من القرن X.

وقد شرع الكتاب فعلاً، وقد نفدت لديهم امكانيّات الخيال، يجمعون جهودهم في الأسلوب فتهافتوا - ولم يلتجئوا إلى الشعر الخالص - على النثر

أ- ضبط ابن قتيبة عن بعض أهل الأدب (الشعر والشعراء دار الثقافة بيروت 1964 ص 20 - 21) هذا الهيكل وعلل تعليلاً نفسياً واضحاً تتابع عناصره معتمداً أساساً العلاقة بين الشاعر والسامع

المسجوع فاكتمسح منذ ذلك الحين جميع ميادين الأدب من الرسائل الرسمية والخاصة إلى ترجمة حياة الكتاب والتاريخ . ويبدو أنه يجب أن نبحث عن مبدأ هذا الاكتساح في إجماع الأوساط الأدبية على الاعتراف بأفضلية آثار الشعراء والنثر الذي هو على وتيرة واحدة وقد أصبح مادة أدبية قد بدا للمولعين بالشعر كما تبدو الأمة [أ] المهمة وكانت بساطته تبدو لهم عطلا. فرأوا من المفيد ليرفعوا قليلا من قيمته أن يوشحوه على الأقل بواحد من أوشحة أخيه ومنافسه أعني القافية.

و«يجب أن نحذر من الحكم بقساوة لا مبرر لها على النثر المسجوع فقد قدم للأدب العربي بعض أعلaque أو آثارا أحكمت أساليبها إحكاما دقيقا يمكن أن تعتبر أمثلة نموذجية لنظرية الفن للفن ولكن لا يمكن من جهة أخرى أن ننكر أنه قيّد البيان الدقيق الكامل، وهو مبرر النثر الوحيد، بعدد [19] القيود وأضعف أساليبه بأن فرض على الكتاب أحيانا عديدة أن يقتصروا على فواصل قصيرة متجانسة وأنه في نهاية الأمر قد حمل الكثير منهم على التوضحية بالمعنى في سبيل المبنى» (1) غير أنه لم يحلّ تماما محلّ النثر المرسل وهو آخر ما ظهر من طرق التعبير، إذ أنه يفترض تطورا فكريا يمكن للشعر أن يستغني عنه كما يفترض استعمال الكتابة، حتى أمة اشتهرت عن جدارة بحافظة وفيّة وفاء عجيبا فالنثر طيلة القرون الثلاثة الأولى للهجرة . كما كتب أيضا خير الحكّام: و. مارسى، «قد ظفر بالعالم العربيّ بنصيبه من الأفق».

أ- شبه المؤلف النثر يستدولا (Cendrillon) [قطة الرماد] وهي في بعض القصص العجيبة شخصية احتقرت ظلما.

1- و. مارسى: "اللغة العربية" في مجلة الدراسات العربية عدد 21 جانفي - فيفري 1945¹ وقد أعيد نشره في "فصول ومحاضرات باريس 1961".

وقد وافق ظهوره هناك كما هو الشأن في جميع البلدان الأخرى مظاهر نمو القدرة على التفكير والبحث العلمي. وفعلًا فبعض محترفي التفكير الاستقرائي، المتكلمون وفقهاء مختلف المذاهب هم الذين ساهموا قبل جميع الكتاب الآخرين في تطوير النشر [الشعر الخالي من الوزن] أ ومهما يكن من أمر فإنه قد كان تكون في القرن III نشر عربي غزير مختلف في أساليبه صالح للقصص بقدر ما هو صالح للبحث الجدلي قادر على تتبع جميع اتجاهات التفكير والتعبير عن مختلف دقائقه غير أن هذا النشر، وقد كانت دقة الألفظ وانسجام عددها كل حليته، كان قد ترك المجال بعد مائة عام للنشر المسجوع.

ويبدو من نافلة القول أن نذكر بأن النماذج من النشر الجاهلي التي نقلتها الروايات هي نماذج منتحلة ونستثنى من ذلك على أغلب الظن الامثال والقصص والأساطير على تفاوت صلتها بالتاريخ فهي إن كانت حرقت - لم تحرق عمدا . ويجب أن نتذكر أن القرآن نفسه لم يسلم إلى التدوين إلا بعد [20] وفاة النبي وإن تدوين النص القرآني قد نشأت عنه فكرة أن لا شيء - عدا الكتاب المقدس - كان يجب أن يدون. ويضاف إلى هذا الرأي قلة المواد الصالحة ليدون (1) عليها. وعلى قدر ذلك تأخرت نشأة النشر. وإنما اتجه نشاط العلماء المسلمين طيلة قرن على الأقل إلى العلوم الدينية. وفعلًا فإن الفتوحات قد كانت أدخلت في حوزة الإسلام شعوبا لم تكن عربية ولا كانت تفهم بيسر النص المنزل بل يخشى منهم التحريف بحيث إن الاهتمام بصيانة سلامة القرآن وبالتالي اللغة العربية كان من أول ما وقع الاشتغال

أ- في النص الفرنسي جاءت العبارة باللغة اللاتينية.

1- كان العرب في عهد الرسول يستعملون الجلد وسعف النخل وعظام الابل وحطام الفخار ثم استعملوا الأكرام ثم إلى القرن X أوراق البردي والرق. وأول مصنع للورق أنشئ ببغداد سنة 794 غير أن الورق لم ينتشر إلا في القرن IX ، وفي القرن XV ظهر في البلاد العربية الورق الأوربي المصدر.

به. وكان يحسن أيضا أن تقدم للامة أصول فقهية صحيحة وطلب ذلك من صحابة الرسول والتابعين باعتبارهم قادرين أن ينقلوا نقلا أميناً أقوال محمد وأعماله وهكذا نشأ علم الحديث أي دراسة الأحاديث النبوية وقد عمل أقوام على إعداد مجاميع من الأحاديث من شأنها أن تكمل أحكام القرآن وأن تحل المشاكل المختلفة التي كانت تعترض المسلمين وكل حديث مصدر ضرورة بسلسلة الرواة أي الإسناد وله أهمية كبرى في آثار العرب العلمية وتبعاً لذلك في قسم كبير من الأدب . والحديث -لكي تكون له قيمة- يجب أن يكون هكذا موثقاً بسلسلة ممن هم حجة ودرجة ثقة هؤلاء الرواة هي فحسب التي ستكون موضوع نقد [21] العلماء ومن هنا نشأ فن تراجم الأعلام وهو يمكن من تصنيف كل شخص بل إن هذه الطريقة العملية وهي تجنب المؤلفين تبعة المسؤولية هي أيضاً -وهذا أعظم خطراً- قد اتبعت في الفنون الأخرى واستعملت بصورة جد طبيعية في المؤلفات التاريخية المتفرعة عن الحديث وفي أوائل كتب الإمتاع حيث تكون أكثر النواذر هزلاً مصدرية بإسناد على أنه كثيراً ما يكون مصطنعاً. وبداية من القرن X حذفت السلسلة وبقيت الطريقة على ما هي عليه وانقلب الكتاب إلى مجرد ناقلين للأعمال السابقة. وإلى النقول في مفهومها الصحيح تضاف الشروح والحواشي أو المختصرات تقتطع اقتطاعاً ويلفّق بعضها إلى بعض تلفيق الأوراق تقتطع بالمقص وتلفّق بالغراء. وفي النهاية فإن الأمر يتمثل في تقديم نفس المادة في صور مختلفة. وأخطر نتائج مبدأ الحجة هذا، وهو في أساسه من أصل ديني أنه حول العرب عن كل تجديد دائم في الجانب غير الديني من الأدب فالكتاب العربي في العصور المتأخرة سواء كان دينياً أو قصدت منه المنفعة العاجلة وسواء كان مختصراً أو مجموعاً موسوعياً فإنه قلما يستحق أن يذكر في غير فهرس شامل يستعمله العلماء المتبحرون في العلم وهذا الإنتاج الضخم المتكدس على

رفوف المكتبات قد ينحصر- لو عملنا على أن نستخرج منه ما يحويه من طريف حقًا- في كميات ضئيلة رغم ثروته الظاهرة. ويمكننا أن نجزم دون أن نفرط في التناقض أن الأدب الحق الأدب الذي له قيمة عالمية لم يجد مجالاً للتعبير إلا في الشعر وفي عدد قليل من المؤلفات المكتوبة نشرًا مرسلاً أو سجعاً سنحاول أن نلفت إليها عناية القراء وللعرب مع ذلك مؤلفون ذوو قيمة أنشأوا فنونا طريفة جديدة بأن يتعاطاها الكتاب غير أن الواحد من هذه الفنون، بعد فترة يتبع فيها مقلدون ضعفاء طريقة الاستاذ، يأفل ويزول أو يحرق عن وجهته الأولى ويشوه ويجر كالغفل الثقيل.

[22] ومن ناحية أخرى فإن مخافة التجديد، وهو على الصعيد الديني يساوي البدعة، تضيق إلى حد بعيد اختيار الكاتب. فالأديب الذي يشعر بمؤهلات خاصة لم يكن دائما حراً حرية مطلقة في طرق الغرض الملائم لطبعه فالشاعر يخضع لقيود يفرضها الاحترام الضروري للهيكل القديمة في حين أنه على الناثر -ويمكنه نظرياً أن يكتب كما يشاء بل أن يستغل حرية الرأي والتعبير التي تيسرت في بعض العصور- أن يسيطر هو أيضاً على نفسه وأن يخضع لمقتضيات خارجية: فكلاهما سيسعى إلى الفوز باعجاب جمهوره ليفيد منه جوائز هامة.

لمن يكتب الكتاب؟

بصورة عامة لئن وجدت في جميع العصور قصائد نظمها أقوام تخلصوا مؤقتاً من كل اعتبار مادي، فقليل هم الناظمون الذين لم يحاولوا أن يضمنوا عيشهم بالتغني بمدح شخص قوى كريم وكثيرة هي في هذا الميدان الأخبار التي تظهر لنا الشعراء بمظهر المتسولين المتحيين للفرص المتأهبين لاستغلال الكبرياء البشرية. وليس هناك فعلاً في أغلب الحالات أي وجه للمقارنة بين قيمة القصيدة الحقيقية والصلة التي يسندها إلى صاحبها ميساني

يهزّه التملق أو الطرب أو هو خاصّة يغار على سمعته وهذا الميل إلى البذخ والهبّة السخيّة هو أساس الميسانيّة وهي ستسيطر على الشّعريّ وتوجّهه. وقد سبق من قبل الإسلام أن كان الشّاعر عالّة على قبيلته وقد كان يفتخر بها ويدافع عنها غير أنّه - ولا حرج عليه - كان يمدح، رجاء الكسب، أقواما أعيانا كان الإباء يمنعهم أن لا يقدموا له سخيّ الجزاء. ولم تتغيّر الحال بعد الإسلام إلا قليلا فقد كان النّاطمون من الدّرجة الثّانية يجدون في أقاليمهم ما يكفي من الأنصار يجبرونهم عند الاقتضاء على العطاء مسلّطين عليهم تهديدا بقصائد في الهجاء لاذعة مضمون انتشارها على الأقلّ لدى الخصوم.

وكان أكبر [23] الشّعراء سرعان ما يتوصّلون إلى أن يُقبلوا ببلاط دمشق ثمّ بغداد حيث كانوا يتقاضون أجره مشفوعة بصلات عرضيّة ثمّ إنّ اللامركزيّة وأقول الخلافة العباسيّة وقد أدّى إلى نشأة إمارات مستقلّة - قد شجّعها الميسانيّة إذ عمل كلّ أمير على أن يجمع حوله حاشية من الشّعراء والكتّاب مهمّتهم أن يجعلوا من عهده أكثر إشراقا وأنّ يخلّدوا خصاله. فأخذ الشّعراء ينتقلون من إقليم إلى آخر إلى أن يمكّنهم القدر من إكتشاف الميسانيّ المرجو. ونذكر أنّ هذه الطريقة ليست خلوا من الخطر على الشّعريّ وقد أصبح مهنة واقتضى من النّاطم معرفة تامّة بحشد من القوالب الجاهزة المتوفّرة في كلّ حين ومن جهة أخرى فإنّ الشّاعر الذي يذهب ليعرض خدماته من بلاط إلى بلاط متهيّئ لقبول جميع ألوان الانحطاط ويجد نفسه أحيانا وقد حطّ به إلى درجة مضحك تافه. غير أنّه بفضل هذه الميسانيّة قد استمرّ الشّعريّ يتعاطاه العرب وقد أنتجوا آثارا قيّمة إلى أن حرم الشّعراء - وقد انتقلت إدارة الامّة الإسلاميّة إلى أيد أجنبيّة - من أنصار متفتّحين وتبعاء لذلك من إلهام مفيد.

أمّا بالنّسبة إلى الكتّاب فالمشكل في مستوى آخر. فمن الكتّاب جماعة لم يتقيّدوا بفضل ثروتهم الشخصيّة بأيّ نشاط مأجور ومنهم آخرون معلّمون

وتجّار وأصحاب صناعة وقد احتفظوا لذلك باستقلال تامّ. وهكذا فالملاحظ أنّ أشهر المؤرّخين العرب لم يكونوا مؤرّخين رسميين. والذين انتسبوا إلى الإدارة واعتمدوا على مصادر محفوظة ضمن وثائق الدولة هم أيضا لم يكتبوا دائما لتنفيذ أمر عليّ. لا ولا يبدو كذلك أنّ أصحاب مؤلفات التّسليّة قد كتبوا لإمتاع شخص عظيم لكن لنا على العكس من ذلك أخبار عديدة عن الجوائز التي انتظرها وتحصّل عليها الكتّاب الذين كانوا يهدون مؤلفاتهم إلى خليفة أو وزير ومن الثّابت أنّ العباسيين كانوا [24] يصلون زيادة على الشّعراء كتّابا مكلفين بتهيئة الرأي العامّ أو شرح قرار هامّ يكاد شأنهم في ذلك يكون تماما شأن الصّحافيين في العصر الحديث. وكان الميسانيّ في بعض الحالات الخاصّة يطلب كتّابا لاستعماله الشخصيّ في مكتبته الخاصّة (1) وما كان ذلك ليمنعه من أن يطلع عليه مفتخرا، العلماء الوافدين عليه والذين كانوا أحيانا يقطعون مسافات طويلة للنظر في هذه النسخة الوحيدة وقد كان أعلمهم بوجودها ما شاع عنها بين الناس.

حالة المحافظة على الأدب القديم

لعله لا يحسن أن نقدّر أهميّة جمهور القراء ونجاح كتاب من الكتب بعدد النّسخ التي وصلتنا إذ أنّنا نعرف أنّ آثارا رئيسيّة لم تسلم من عوادي الزمان. وصحيح أنّ الأمر يتعلّق عامّة بكتب ضخمة جدّا كان نسخها جدّا باهظ. ونلاحظ على كلّ حال، وليس في هذا شيء عدا ما هو جدّ طبيعيّ، أنّ المخطوطات الدّينيّة غزيرة في حين أنّ آثارا أدبيّة هي أهمّ بالنسبة إلينا قد ضاعت نهائيا ولم نعد نعرفها إلا بفضل كتب المصادر التي احتفظت لنا بعناوينها أو أحيانا

1- انظر عن المكتبات العربيّة. في العشر: المكتبات العمومية وشبه العمومية في ما بين النهرين والشام ومصر في القرون الوسطى. دمشق 1967.

بفضل الموسوعات التي نقلت لنا منها فصولا. والملاحظ أن لنا في ما يخص أقدم عصور الأدب فهرستا ذا قيمة لا تقدر نحن مدينون به لابن أحد الوراقين هو ابن النديم. ففهرسته [أ] وقد ألفه سنة 988 يكشف عن إنتاج ثري ثراء غير عادي في عصر كان الورق فيه لا يزال نسبيا [25] غاليا. وأن العناوين التي يعددها تؤسفنا أسفا مراً لضياح عدد وافر من الكتب التي ظهرت في أزهي عصور الأدب العربي أما بالنسبة إلى العصور اللاحقة فإننا نملك فهرستا غنيا جداً ألفه عالم جامع تركي هو حاجي خليفة (1608-1657) (1) ومعجم موسوعيا في المطبوعات العربية مفيدا جداً نشره سنة 1929. أ. سركيس. [ب]

وقد يصادفنا أحيانا أن نشير إلى أثر من هذه الآثار المذكورة فحسب في هذه الفهارس غير أنه علينا أن نعمل بحذر إذ أن العناوين العربية كثيرا ما تخدع وما لنا إلا أمل ضعيف في أن تبدد شكوكنا اكتشافات جديدة فإن عميلة إحصاء ما في المكتبات العامة والخاصة هي فعلا قد تقدمت كثيرا ويغلب الظن أن جل الكتب المحفوظة هي الآن معروفة.

وإدراج بعض الصفحات الجميلة المصورة عن مخطوطات قديمة في طبعات ممتازة قد يوهم القارئ غير الخبير أن فك الخطوط في نصوص القرون

أ- الملاحظ أن هذا الكتاب طبع طبعات عديدة ولعل أحسن طبعة هي الطبعة الأخيرة (الدار التونسية للنشر) تونس) والمؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر) 1405 / 1985 وقد حقق الكتاب وقدم له مصطفى الشوي.

1- ترجمه الى اللاتينية فلوفل لبيزيت. لندن 1835-1858. المقصود: كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. [وقد أعادت طبعه بالأوفسات مكتبة المثنى ببغداد وقد أكمله اسماعيل باشا البغدادي بجزئين (4,3) ساهما ابضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون كما أضاف جزءين آخرين (5, 6) ساهما هدية العارفين: أسماء المؤلفين وآثار المصنفين (1951 و 1955)

[ب] - المقصود: "معجم المطبوعات العربية والمعربة" في جزأين القاهرة 1346 / 1928.

الوسطى عمل يسير ولكن الأمر لسوء الحظ ليس على هذه الصورة وأجمل المخطوطات تتطلب جهودا كبيرة. وقد بادر العرب لما عرفت المطبعة بالشرق بعد حملة بونابارت على مصر باستعمال هذه الطريقة العلمية ولكن الناشرين لم يهتموا باعتبارات علمية ويظهر لنا أنهم كثيرا ما اقتصروا على أن يقدموا للطابعين المخطوطات التي كانوا قد تمكنوا من الحصول عليها. غير أنه قل أن يخلو مخطوط من الخطأ لأن الناسخين المتتابعين وما هم بالعلماء لم يكونوا يفهمون دائما النص الأصلي أو كانت أذنهم تخطئ السمع. فالأخطاء التي كانت تضاعفت عبر العصور قل أن أصلحت في الطباعات الأولى غير أنه كان للمطبعة فضل تمثل في جعل روائع القرون الوسطى في متناول جمهور غفير هو أحيانا [26] قادر على أن يصلح جزئيا النص المطبوع وفي نفس الوقت فإن المستشرقين، وقد كانوا يملكون مجموعات من المخطوطات يثريها باستمرار ما يتحصلون عليه من جديد، كانوا أخذوا على عاتقهم مهمة، لا نفرط مهما شكرناهم عليها إذ أنهم توصلوا إلى تحقيق طباعات نقدية لا تزال تعتبر حجة وقد بلغت هذه العملية من النجاح ما رأى معه عدد من الناشرين العرب أنه من الأنسب أن يقدموا إلى المطبعة نسخة مطبوعة بأوربا.

وهذه الطريقة غير النزيهة والعقيمة إذ أن التعاليق كانت تحذف هي لحسن الحظ إلى الزوال مذ شرع علماء عرب تكتونوا بالمدرسة الاوربية في إعداد طباعات نقدية لآثارهم الأدبية وفي حين يبلغ بأوربا طبع أقصر نص عربي أثمنا مجحفة فإن الشرق يطبع بتواتر سريع ويقدم طباعات حسنة تتضمن تعاليق نقدية وشروحا تاريخية ولغوية وأدبية وقائمات مراجع وفهارس غير أنه خلافا لما يجري بالنسبة إلى الآداب الكلاسيكية التي درس آثارها وأصلحها أجيال من المتخصصين في الدراسات اليونانية واللاتينية فإن الطبع الصحيح إن لم نقل النهائي للكتب العربية الجديدة بالنشر لدى الجمهور، لا يزال يتطلب جهودا طويلة.

الفصل 1

اللغة العربية وتاريخها

قائمة مراجع

- تاريخ اللغات السامية العام لـ أ. رينان (ط1. 1855) هو على قدمه لا يزال صالحا في جملته.

- ك. بروكلمان: المختصر في اللغات السامية. ترجمه عن الألمانية إلى الفرنسية و. مارسي وم. كوهين باريس 1910.

- أ. ميبى وم. كوهين. لغات العالم. باريس 1924.

- ب. دورم. اللغات والخطوط السامية. باريس 1930.

- ه. فليش. مقدمة لدراسة اللغات السامية. باريس 1947.

تقدم هذه الكتب معلومات دقيقة وتمكن من المقارنة بين اللغات السامية أما في اللغة الفرنسية فأشمل كتاب في النحو العربي هو كتاب م. ثودفروادي مونيبي ور. بلاشير: نحو العربية الفصحى "باريس. طبعة جديدة 1966. وكتاب مبادئ العربية الفصحى لـ ر. بلاشير. باريس. الطبعة الرابعة 1961 هو تمهيد رائع وكتاب النحو العربي لـ ج. لوكونت باريس 1968 يقدم عرضا يفهم مباشرة. ونشير في مستوى آخر إلى أعمال ه. فليش: بحث في فقه اللغة العربية. 1. بيروت 1961 [أ] وكتاب العربية الفصحى: محاولة في بيان هيكل ألسني. الطبعة الثانية بيروت 1968. وتاريخ اللغة العربية ما زال لم يدرس دراسة عامة غير

أ - [الجزء II من هذا الكتاب صدر سنة 1979 في بيروت].

أن فترة طويلة منه قد درسها ج. فوك في كتابه. عربية " ترجمة. كلود دنيوزو. باريس 1955. [1]

ويمكننا لدراسة العربية العصرية النظر في: ج. ليسارف: الأدب العامي والنهضة العربية الحديثة (مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي [28] بدمشق III. II. 1932-1933) وفي: ف. مونتاي: العربية الحديثة. الطبعة الثانية باريس 1961.

أما في ما يتعلق بالعربية العامية فلنا قائمة مراجع كاملة قدمها و. فيشر: دراسة بناء العامية العربية الحديثة. لاهاي 1959 ويضاف إليه عن المالطية الأعمال اللاحقة لـ ج. اكيلين وكذلك أعمال ك. كوهين العامية العربية بموريتانيا. باريس 1963 وعامية اليهود العربية بتونس. لاهاي 1964؛ ن. توميش العامية العربية بالقاهرة لاهاي 1964.

يرى سفر التكوين [ب] أن تقسم إلى ثلاثة أقسام شعوب آسيا القديمة وينسب إليهم جدودا أبناء نوح الثلاثة وهم سام وشام [حام] وياث وانطلاقا من هذا التقسيم المناسب وإن كان مخطئا أصبح يسمى منذ نهاية القرن XVIII باسم الساميين اليهود والآراميون والعرب والحبشيون وألحق بهم في القرن XIX الآشوريون واللغات التي تتكلمها هذه الشعوب المتقاربة في النسب تقاربا متينا تسمى اللغات السامية. وتنتمي العربية إلى المجموعة الجنوبية من هذه اللغات مع لغة جنوب الجزيرة واللغة الحبشية في حين أن المجموعة الشمالية تمثلها الكنعانية (العبرية والفينيقية) والآرامية والآكادية. وتعود جميع هذه اللغات الخاصة إلى أصل واحد هو السامية المشتركة وهي نفسها منحدره عن لغة سامية أولى لا نعرف عنها إلا القليل. ولنا أقدر على تبين

أ- عربي بعنوان "العربية" دراسات في اللغة واللهجات والأساليب رمضان عبد التواب ونشرته مكتبة الخانجي بمصر سنة 1400هـ/1980م.

ب- الأول من التوراة أي الكتاب المقدس بالنسبة إلى اليهود، وقد جاء في طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1987؛ وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما وياث. ومن هؤلاء شعبيت كل الأرض.

اللغة السامية المشتركة إلا أنه يمكن أن نتصور خصائصها الأساسية انطلاقاً من العناصر الموجودة في جميع اللغات المعنوية بالأمر ففي هذه اللغات تتكوّن أغلب المواد من ثلاثة عناصر حرفيّة أو صوتيّة حولها يقوم التوازن. وهكذا فإنّ الكلمات لكي تصبح ثلاثيّة تنزع ذات الحرف الواحد أو الحرفين منها إلى التوسّع في حين تنزع ذات الأربعة فما فوق إلى النقصان والحروف في هذه اللغات هي الغالبة في حين أنّ الحركات يقتصر دورها على التغيّرات المعنويّة وتتضاف إلى الجذر زيادات أماميّة وداخلية وخلفية لتغيّر المعنى الأصلي الذي يؤدّيه وبالنسبة إلى الفعل فإنّ معنى الزمان [29] له أهميّة ثانويّة في حين أنّ الصيغة (الماضي والمضارع) أساسيّة وأنّ التعبير بجمل بسيطة معطوفة سابق للتعبير بالجمل المركبة ونحن إذا أردنا أن نعود إلى الماضي لتبيين وإن بصورة عامّة أقدم حالات اللغة العربيّة فإنّنا لا نكاد نجد إلا بعض النقوش يعود تاريخها على أبعد تقدير إلى القرن IV الميلادي وهي خالية من النقاط والحركات وهي لذلك ذات قيمة وثائقية محدودة.

وعلى أغلب الظنّ فإنّما في القرن II أو III اقتبس العرب خطهم عن النبط مع تبسيطه وتحويره وهذا الخطّ القديم الذي اقتصر فيه على إثبات الحروف والحركات الطويلة والذي كان التبسيط قد أدّى فيه إلى وضع رمز واحد لحروف عديدة كان مستعملاً بمكّة في عهد الرّسول وقد كان له بعض الكتاب اعتمدتهم لتدوين القرآن غير أنّ الكتاب المقدّس هو الذي أدّى فعلاً بالعرب إلى تحسين نظام خطهم: فاستعملوا في نهاية القرن VII أو بداية VIII نقاطاً ملوّنة للدلالة على الحركات القصيرة والتجأوا من ناحية أخرى للتمييز بين الرّموز المتعدّدة الدلالات إلى نقط رسموها باللون الأسود وقد أضيفت تحسينات أخرى بعد ذلك بقليل لكن منذ القرن VIII كانت الألفبائيّة المستعملة اليوم قد ضبطت نهائياً ويلائم هذا النظام كلّ الملاممة اللغة

العربية. ولئن قام العرب بمحاولات للمزيد من تحسينه أو ليستعملوا على غرار الأتراك الألفبائية اللاتينية فذلك لأنَّ غلبة الحروف في الاستعمال تبلغ حدًا الحركات القصيرة معه كثيرا ما لا تُرسم. وإنَّها لموجودة في عدد من المخطوطات والكتب المطبوعة كما أنَّها موجودة في جميع نسخ القرآن غير أنَّها لاَّنها توجد في مستوى غير مستوى الحروف، كثيرا ما يصل بنا الأمر إلى إهمالها. يجب أن نقول في الحقيقة إنَّ جسد الكلمة وحده يكتب على السطر في حين أنَّ روحها المتمثلة في الحركات القصيرة ترسم فوق [30] السطر أو تحته ممَّا يوجب في الكتابة اليدوية إيقافا للقلم ورجوعا إلى الوراء وفي النصوص المطبوعة تركيبا مثلثا وباهظ الثمن إذ أنَّ الطبع بتنسيق الحروف أحادا لا يزال عند الكثير من الطابعين ضربا من الترف ثمَّ إنَّه من سوء الأدب تجاه القراء أن يرسم الكاتب الحركات إذ أنَّ كلَّ قارئ معروف بالقدرة على وضعها مواضعها غير أنَّ الأمر في الواقع ليس مع الأسف على هذه الصورة وإن كان يكفي أحيانا كثيرة الاقتصار من حين إلى آخر على ذكر حركة ترشد القارئ وتجنِّبه خجل الخطأ. فنحن إذن نتبيَّن أنَّ صعوبة أولى تأتي في دراسة العربية لا من تعلُّم الألفبائية ذاتها ولكن من قراءة النصوص المجردة من الحركات ممَّا يفرض حتما معرفة الصَّرف والنحو والمفردات وبعبارة أخرى فإنَّه علينا لكي نقرأ قراءة صحيحة نصَّا عربيا أن نفهمه أولا غير أنَّ الفهم موقوف بدوره على القراءة الصحيحة وإنَّا نجد أنفسنا هكذا أمام حلقة مفرغة من أشدَّ ما يغيظ وهكذا فإنَّ الحروف الثلاثة ك - ت - ب - يمكن قراءتها بالكيفيات التالية وعلينا أن نختار بينها حسب السَّياق هذا إن كان السَّياق واضحا وضوحا كافيا: كَتَبَ، كُتِبَ، كَتَّبَ، كُتِّبَ، كُتِّبُ بَل، إن لم تكن بعض الحركات الطويلة غير مرسومة كما هو الشأن غالبا في النصوص المنقوشة، كِتَابُ، كَاتِبُ، كَاتِبَ إلى آخره... وسبب آخر من أسباب عسر هذه

اللغة أننا نجد على مستويين مختلفين لغتين الواحدة فصحي يستعملها صاحبها مبدئيًا حين يكتب أو حينما يتكلم في لغة رفيعة والأخرى يقتصر على التكلم بها ويستعملها في الحديث العادي. وهذه الازدواجية اللغوية لا تخلو من ضرر بالنسبة إلى الأجانب إذ أنه لئن كانت اللغة العربية الفصحى مشتركة بين البلدان الناطقة بالعربية بل هي تتجاوز حدودها أحياناً فإن العربية الدارجة [31] تفرعت إلى مجموعات عديدة من اللهجات هي نفسها مشتتة إلى عدد لا يحصى من اللهجات المحلية.

العربية الفصحى

هذه اللهجات الموجودة الآن إلى جانب لغة الكتابة ناتجة عن اتحاد عوامل عديدة منحدره من بعض الوجوه عن اللهجات القديمة بشبه الجزيرة العربية المتفرعة عن اللغة السامية المشتركة. ويمكننا إذن أن نفترض مسبقاً أن العربية الفصحى يعود أصلها إلى واحدة من تلك اللهجات رفعت إلى مستوى لغة أدبية إلا أن المشكل ليس حله على هذه الغاية من البساطة إذ أن المعطيات التي لدينا متناقضة قد شوشتها نظرية اللغويين العرب وفعلًا فإنه مما يكاد يكون يقينا اليوم أن شعراء البادية يستعملون في نظمهم لهجة شعرية قد فرضت فرضاً على اللهجات المحلية وأساسها على الأغلب لهجات نجد غير أن لغة القرآن توافق تمام الموافقة تلك اللهجة ويجب التسليم بأن الكتاب المقدس قد أنزل لا بلهجة مكة كما قد يتوقع البعض إذ أن الرسول مكّي بل باللغة التي كان الشعراء يستعملونها غير أن هذه النظرية وقد اتفق المستشرقون على قبولها لا تقنع الإقناع التام إذ أنها توجب الاعتراف بصحة الأشعار الجاهلية التي بلغتنا، ولقد تساءل بعضهم محقّقين إن كانت هذه لم تحوّر لتوافق اللغة القرآنية وأكثر من ذلك فإن بعض المستشرقين قد بلغ بهم الأمر إلى أن يزعموا أن النص القرآني هو الذي حوّر ووفق بينه وبين لغة نجد.

وانعدام وثائق موثوق تماما بصحتها يفتح الباب لجميع الافتراضات في حين أن هذه البحوث النظرية ليس لها في الحقيقة إلا قيمة محدودة ومهما يكن الأمر بالنسبة إلى أصل العربية الكلاسيكية الحقيقي فالأنسب فعلا أن نعرف النظريات التي بنيت عليها أعمال صانعي اللغة العربية الحقيقيين أي اللغويين [32]. فهم يرون أن آدم كان يتكلم العربية أثناء مقامه في جنة عدن، أما بعد الخطيئة فإن لغته قد فسدت وأنتجت الأرامية وأن اسماعيل بن ابراهيم لا غيره من قبل هو الذي أحيا اللهجة القديمة التي احتفظ بها من بعد في تمام صفاتها العرب الذين استقروا حول الحجاز. فاللغة الأصلية قد اتخذت بالقرآن صورة نهائية غير أن الكتاب المنزل ليس إلا جزءا من أنموذج مثالي كان للعرب منه عناصر أخرى متفرقة.

إن لغويي القرن VII وخاصة لغويي القرن VIII وقد اعتمدوا هذه النظرية التي تقر طابع العربية الإلهي، قد وجدوا أنفسهم أمام مشكل مزدوج: فلقد كان الأمر يتمثل بادئ ذي بدء في استنباط قواعد النحو لحماية القرآن من كل تحريف وبعد ذلك في ضبط ألفاظ القرآن ثم في إحصاء اللغة عامة ففي حين كان المفسرون والفقهاء يسعون إلى تلاقي ما شهدوه في الأحكام القرآنية من مظاهر النقص بالاعتماد على الأحاديث التي احتفظ بها صحابة الرسول وذريتهم فإن النحويين واللغويين قد أجروا بحوثا ميدانية واسعة لدى البدو الذين كانوا قادرين على أن يقدموا إليهم العناصر الخارجة عن القرآن للغة القديمة وقد كان الشعر القديم يعتبر معينها الأصح.

والمقارنة بين طرق الفقهاء وطرق اللغويين في البحث يمكن أن نتعمقها إلى حد أبعد فمعايير أولئك الأساسية، القرآن والسنة والإجماع والقياس والاجتهاد يقابلها عند هؤلاء دراسة ألفاظ القرآن والأخبار والشعر القديم والاستعمال والقياس. فاللغويون، شأنهم في ذلك شأن المحدثين، قد ميزوا بين

المخبرين البدو وحذفوا من أول وهلة اللهجات التي يمكن أن تكون قد شوّهتها عناصر أجنبية ثم إنّه قد اتبعت طرق عمل خاصّة لدى كل واحدة من المدرستين الكبيرتين اللتين نحن مدينون إليهما بضبط [33] النحو واللغة: فالبصرة وهي تعتمد العقل في جميع نشاطاتها، كانت تريد أن تخضع اللغة إلى المنطق، أما الكوفة فقد كانت تطبّق نزعة عمليّة حذرة وتعتمد على الاستعمال والإثنتان قد صهرتهما بغداد أثناء القرن X حيث لم يطل الأمر باتجاه الكوفة العملي أن يسود.

وهكذا فإنّ اللغة العربيّة الكلاسيكيّة هي نتيجة إحصاء تمّ خاصّة في القرن VIII وتعلّق بالقرآن والحديث والشعر القديم واللهجات التي اعتبرت هي الفصحى أي لهجات نجد والحجاز. وكان هذا النشاط تجسّم في مؤلفات نحو ولغة عليها اعتمدت حسب مبدأ الحجّة العامّ المؤلفات التي تلتها.

وفي ميدان النحو فإنّ أبرز ممثلي مدرسة البصرة هم: الخليل بن أحمد (م بين 786 و791) والأصمعي (740 - 828) وخاصّة سيبويه (نحو 792) وكتاب النحو كتاب هذا الفارسي المتوفّي في ريعان شبابه، "الكتاب" بحث منهجيّ يسيطر على جميع الدّراسات النحويّة عند العرب. إنّ الكتاب، وقد شرحه أشهر العلماء وفسّر من المشرق إلى اسبانيا، لا يزال حجة حتّى بين المستشرقين فهم طالما اقتصروا على اتباع إمام النحو العربي^[1].

أ - طبع الكتاب طبعة أولى بيولاك (القاهرة) سنة 1316 / 1898 و 1317 / 1899 في جزئين ثم حقّقه وشرحه عبد السلام محمّد هارون ونشرته سنة 1397 / 1977 في 5 أجزاء الهيئة المصريّة العامة للكتاب بالقاهرة.

أما بالكوفة فإنه يكون من الحيف أن ننسى الكسائي (805م) (1) وقد نجح في التغلب على سيبويه وكذلك الفراء (822 م) (ب) وقد عهد له بمهمة مؤدّب في بلاط بغداد، ثم ابن السكيت (858م) [ج] غير أن انتقائية كاتب مثل ابن قتيبة (889 م) [د] قد كانت صهرت المدرستين في واحدة أبين وأقدر على إرضاء ما تحتاجه في العاجل الأمة. ويحتل ابن جنّي (1002م) [هـ] كذلك منزلة وسطا أما الزمخشري (1075 - 1144) فقد اعتمد معارفه النحوية الواسعة في تفسير للقرآن شهير [و] ومجموعة من المؤلفات [ز] ذات الغاية التعميمية التبسيطية تكمن قيمتها خاصة في وضوحها وبساطتها.

أ: آثاره العديدة والمتنوعة لم تصلنا ويلج المؤلف إلى المناظرة التي جرت بينه وبين سيبويه لما جمع بينهما يحيى البرمكي للمناظرة في عدة مسائل وخاصة ما عرف بالمسألة الزنبورية وقال ويقال إن الكسائي سأل سيبويه «قد كنت أظن أن العقرب أشدّ لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟» فقال سيبويه «فإذا هو هي ولا يجوز النصب فقال له الكسائي «لحنت» واعتمد الكسائي رأي جماعة من فصحاء الناس (منهم أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان؟) وأقرّوا رأيه. والحكاية مشهورة متواترة في كتب النحو وأخبار النحاة.

ب: الفراء لقب أبي زكريا يحيى بن زياد تنسب إليه كتب عديدة عن النحو والمعاجم والقرآن وصلنا منها مثلاً جزء من كتاب معاني القرآن* (القاهرة 1374 / 1955) والمقصود والممدود دمشق 1983 والقاهرة 1988.

ج: من أشهر مؤلفاته المطبوعة كتاب القلب والابدال نشره 1903 ببيروت أوّلست هفتار وكتاب الأضداد نشره مع مجموعة أخرى من كتب الأضداد أوّلست هفتار وأنطون صالحاني (بيروت 1913) وخاصة كتاب (إصلاح المنطق وقد شرحه وحققه أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون ونشرته دار المعارف بمصر ط 2 / 1375 / 1956.

د: خاصة في كتابه أدب الكاتب وقد طبع عدة مرات أفضلها طبعة ثرونارت بليدن سنة 1900 وقد أعادت دار صادر هذه الطبعة سنة 1387 / 1967

هـ: أشهر مؤلفاته الخصائص وقد نشره جزئياً محمد علي النجار سنة 1913 ثم نشر في 3 أجزاء (بدار الكتب بالقاهرة 1952 - 1956) وسمّى صناعة الإعراب وقد نشر بالقاهرة 1954. وقد أعد عنه عبيد القادر المهيري رسالته الرئيسية للإحراز على دكتوراه الدولة من جامعة الصربون بباريس ونشرها ضمن منشورات الجامعة التونسية سنة 1973 كما نشر أحد كتبه الثانوية وهو علل التثنية بمجلة حوليات الجامعة التونسية العدد الثاني سنة 1965.

و: المقصود كتاب «الكشاف عن حقيقة التنزيل انظر مثلاً طبعة القاهرة 1365 / 1946

ز: يمكن أن نذكر مثلاً معجم أساس البلاغة (القاهرة 1372 / 1953) وخاصة وهو كتاب مهم جداً المفصل في النحو وقد طبع مكرات وازداد أهمية بشروحه وخاصة شرح ابن يعيش (م 643 / 1245) وقد طبع مكرات منذ طبعة ليزنيق 1882 - 1886 والطبعة المتداولة اليوم طبعة المنيرة القاهرة د.ت وقد أحسن بهجة عاصم العطار إذ نشر فهارس شرح المفصل* بدمشق 1411 / 1990.

وبإسبانيا اشتهر ابن مالك (1203 - 1274) [34] بفضل ألفية تعليمية في النحو (1) إلا أنه اهتم خاصة بتأليف كتب مختصرة يوشك إيجازها غالباً أن يصل إلى الغموض ثم هناك بربري هو ابن آجروم (1273 - 1323) قد قدم أيضاً لعرب شمال إفريقيا أداة يسيرة الاستعمال غير أنها مفرطة في التقريرية وبالتالي مضرّة لتعليم النحو بل أن آجروميته وقد ادرجت في برامج أغلب معاهد التعليم قد حظيت حتى عند دارسي العربية بالقرن XIX (2) وقد حظي كذلك بعض الحظوة (3) نحوي آخر هو المصري ابن هشام (1309 - 1360) غير أن مؤلفاته شأنها في ذلك شأن مؤلفات سابقيه ومؤلفات مجموعة من المؤلفين الآخرين ليست إلا مختصرات مدرسية، المادة التقليدية فيها لم تجدد.

أما في ما يهم المعجمية فإن أعمال العلماء لها في نظرنا أهمية أكبر إذ إنه لئن كان يمكننا أن نعيد النحو العربي انطلاقاً من القرآن والنصوص القديمة فإنه يكون من الصعوبة بمكان أن نحصي اللغة بدون الاعتماد على المعجمات وهي على ما هي عليه من نقص، لها على الأقل فضل الاحتفاظ بعدد هام من الكلمات والأشعار القديمة.

وفي هذا الميدان فإن البحوث الأولى قد تبلورت حول عدد من المحاور مثل الفرس والإبل والمطر وغير ذلك. إلا أن أول معجم منهجي يعود تاريخه إلى

-
- 1- ترجمة ل. بنتو: الألفية قسنطينة 1887. ترجمة أخرى من قبل أ. فوفويار: كتاب لدراسة النحاة العرب. بيروت 1888. الفية بن مالك أو الخلاصة الألفية هي تلخيص في حوالي 1000 بيت من الرجز لكتاب سابق للمؤلف نفسه في حوالي 2757 بيت لا يزال مخطوطاً وقد طبعت الألفية طبعت عديدة ولعل ميزة ابن مالك تتمثل في أنه لم يعتمد في شواهد على القرآن والشعر فحسب بل اعتمد كذلك على الحديث
 - 2- ترجمة ل. بوسال باريس 1833 وهناك ترجمة أخرى إعداد ل. ج. بريني: الجزائر 1846 والطبعة 1866.
 - 3- قطر الندى وبلّ الصدى ترجمة أ. فوفويار: ليدن 1887. ترجمة بحث في نحو الجمل توجد بكتاب: مختارات نحوية باريس 1829 إعداد: س. دي ساسي

القرن VIII. وقد يكون من عمل الخليل ابن أحمد (م بين 786-791) أو من عمل عالم مجهول هو على كل حال الأكبر إن لم يكن اللغوي العربي الحقيقي الأوحده. وإننا لا نملك من كتاب العين هذا [35] غير مختصر (أ) إلا أننا نستشف منه منهج مؤلفه وهو عقلي إذ أنه يحاول جمع مفردات العربية انطلاقاً من امكانيات التركيب الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي لحروف الهجاء العربية. ثم إن الترتيب الهجائي يعتمد مخارج الحروف فلقد كانت إذن العملية هامة إلا أنه لا يظهر أنها لقيت النجاح الذي تستحق ثم إن بعض الناقلين الجديين قد جمعوا المادة اللغوية التي حصلها سابقوهم فكان لنا تبعاً لذلك معجمات ضخمة أهمها الصحاح للجوهري^[ب] (1002م) لسان العرب لابن منظور (1232-1311)^[ج] القاموس للفيروز أبادي (1329-1414)^[د] وشرحه تاج العروس للزبيدي (القرن XVIII).^[هـ]

[أ] خلافاً لما كان شائعاً فإن كتاب العين للخليل بن أحمد لم يضع فقد طبع بتحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي في 8 أجزاء بمطابع وزارة الثقافة والاعلام العراقية في ما بين 1980-1985.

[ب] تاج اللغة وصحاح العربية حققه أحمد عبد الغفور عطار في 6 أجزاء. وقدم له في جزء كامل ونشرته دار الكتاب العربي بمصر 1376 - 1377 / 1956 - 1957

[ج] طبع طبعات عديدة كما ألفه صاحبه. ثم نشرته دار لسان العرب ببيروت بعد أن أعاد بناء على الحرف الأول من الكلمة يوسف خياط ونديم مرعشلي في ثلاثة أجزاء. وجزء رابع للمصطلحات العلمية والفنية ثم نشرت مؤسسة الرسالة ببيروت سنة 1607 / 1978 "فهارس لسان العرب في 7 أجزاء وقد أشرف على برامجه أحمد أبو الهيجاء وصنعه وقدم له خليل أحمد عامرية ودعمت البحث جامعة اليرموك بإربد بالأردن.

د: هو القاموس المحيط ويقال له أيضاً القاموس الوسيط وكذلك القاموس المحيط والقاموس الوسيط في ما ذهب من لغة العرب شامطيط. ولكن المشهور وربما الصحيح هو العنوان الأول وقد طبع عدة مرات أولها بعناية المستشرق الانكليزي لسندين بكلكتا سنة 1817 ثم بالقاهرة عدة مرات لعل الأخيرة هي طبعة سنة 1386 وهو لا يزال في حاجة إلى طبعة علمية مفهومة والملاحظ أن الطاهر أحمد الزاوي قد نشر بالدار العربية للكتاب بتونس - ليبيا (ط 3 - 1980) كتاب ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير^[للفيومي] وأساس البلاغة^[للزمخشري]

هـ: طبع تاج العروس من جواهر القاموس طبعات مختلفة جزئية وتامة خاصة بالقاهرة وبيروت التامة سنة 1307 بالمطبعة الخيرية بالقاهرة وقد أعادت هذه الطبعة كما هي دار ليبيا للنشر والتوزيع ببنغازي. ثم بالكويت ولا يزال هذا المعجم في حاجة إلى طبعة علمية مفهومة. وشرعت في طبعه وزارة الإعلام بالكويت وواصلت به إلى الجزء 28 (أقل - دبل) في 1993.

والمفردات في هذه المؤلفات قد جمعت حسب جذورها ثم إنَّ الجذور قد رُتبت ترتيباً هجائياً باعتبار الحرف الأخير منها فكانت بحق معجمات قوافٍ وقد اكتفى المستشرقون الذين اعتمدها لإعداد معجمات ذات لغتين بإعادة تبويبها باعتبار الحرف الأصلي الأوّل للجذر دون الفصل بين مجموع المشتقات ودون أن يسعوا إلى تلافي مظاهر نقص واضحة حتّى إنّنا لا نملك بعد معجماً عاماً للغة العربيّة (1).

وفعلاً فإنّ هناك أمراً هاماً تجدر ملاحظته ، هو أنّ جميع كتب اللغة حتى وإن اختلفت اختلافاً يسيراً في الجزئيات ، تعتمد مقياساً فائدته في القرن VIII لا جدال فيها غير أنّه نسبياً عائق : فالمقبول هو فحسب [36] - في الجملة - المفردات التي وردت في القرآن و الأحاديث النبويّة و الشعر القديم وفي استعمال العرب الأقحاح أضف إلى ذلك بعض القيود المتعلقة ببنية الكلمة ونظام حروفها. وأصحاب المعجمات وإن قبلوا ألفاظاً معرّبة أو دخيلة منذ ظهور الإسلام فإنّهم قد ركّزوا جميع جهودهم على لغة البدو ونقلوا إلينا لغة ثريّة ثراءً عجيباً إذا ما تعلّق الأمر بالحياة البدويّة إلاّ أنّها فقيرة فقراً مدهشاً من حيث ألفاظ الحضارة والألفاظ الدالة على المجردات [أسماء المعاني].

1- ويحسن إحقاقاً للحقّ، أن نذكر الأثر الرائع، على ما فيه من نقص: تكملة المعجمات العربية، لـ ر. دوزي ط2 ليدن، باريس 1928¹ وقد عرّبه وعلّق عليه محمد سليم النعيمي ونشرته بالعراق دار الرّشيد للنشر في السنوات الأولى من الثمانينات] والقاموس العربي -الفرنسي- الانجليزي لـ: ر بلاشير وم. الشويحي. وكلود دنيوزو وقد ظهر الجزء الأول منه سنة 1967. ¹ وظهر الجزء الثاني سنة 1970 والجزء الثالث 1976 وقد عرّض شارل بلا بداية من صفحة 2155 من هذا الجزء ر. بلاشير وقد نشرت الأجزاء الثلاثة دار ميزوننوف ولاروز بباريس ويبدو أنّ هذا العمل قد توقّف وحبّذا لو يواصل. وبالنسبة إلى العربية الحديثة فإن لدينا اليوم كتاب العربية الحديثة² [بالألمانية] من تأليف ه. وهر 1952 وقد ترجمه إلى الأنجليزية. م كوان: معجم اللغة العربية الحديثة: فيزبادن 1961.

وكما أن باب الاجتهاد في الفقه قد أغلق بعد أئمة القرن IX فإن اللغويين هم بدورهم قد سعوا إلى حماية اللغة من كل فساد و تطور . فهذه النظرة وهي نظرة الأشد حرصا على صفاء اللغة ولا يزال لها اليوم أنصار يناصرونها عن غير وعي أحيانا ، قد اصطدمت بتأثيرات خارجية وبحيوية اللغة العربية التي لم تنفك تنمو وتتطور ولكن لا يمكن أن ننكر أنها قد عرقلت إلى حد بعيد تطور اللغة الطبيعي بفرضها "فصاحة" بموافقة النحاة وقد كانوا هم من ناحيتهم يضبطون ضبطا نهائيا قواعد النحو.

نظام العربية الصرفي والصوتي والنحوي

تسمح لنا المقارنة بين مختلف اللغات السامية بأن نفترض أنه قد وجد قديما وبصورة مشتركة سلسلة ثرية من الأصوات لم يُحتفظ بها جميعا في اللهجات المتفرعة عن الأصل الأوحده. أما العربية فلها منها :

حرف شديد شفوي : الباء

حرف رخو شفوي أسناني : الفاء

حرفان شديدان أسنانيان : الذال والثاء والمطابقان [37] الموافقان لهما [الضاد والطاء] والحرفان الرخوان (المابين الأسنانيان) : الذال والثاء وكذلك الحرف المجهور المطبق (المابين الأسناني) [الطاء]

حرفان خيشوميان : الميم والنون

حرفان لسانيان : اللام والراء

حرفان صغيريان : السين والزاي مع الحرف المهموس المطبق : الصاد

حرفان مُشأشان : الشَّين والجيم

حرف شديد حنكيّ : الكاف

حرف انفجاري مهموس لهويّ : القاف

حرفان رخوان لهويّان : الفين والحاء

أربعة حروف حلقية : واحد شديد من رأس قصبه الرئة : الهمزة حرف رخو مهموس : الهاء وآخر رخو مهموس ينطلق من الحنجرة همسا [الحاء] والحرف المجهور المنطوق به بالضغط داخلها على الحنجرة : العين.

حرفان مصوّتان : الواو والياء

أما نظام الحركات فيشمل ثلاثة أجراس أساسية : الفتحة والكسرة والضمة وحالتين : قصيرة (- -) وطويلة (- - -) وتتكون هذه الحركات بالجوار بين الحروف ولكن الأجراس الثلاثة هي وحدها التي يمكن أن تبرز في الخط العربي.

ويوفر التركيب بين الحروف أو المصوّتات الثمانية والعشرين موادّ ثنائية وثلاثية ورباعية وحتى خماسية، ولما كان التوازن يقوم حول ثلاثة حروف أصلية فإن الموادّ الثلاثية هي بصورة ملموسة الأكثر عدداً. فهي نظرياً 21800 تقريباً - باعتبار حالات التنافر ولكن بديهيّ أنها ليست جميعاً حيّة غير أنّ ذلك لا يمنع أنّ هذا التركيب يمكن بفضل الاشتقاق وهو يكاد يكون آلياً، من الحصول على عدد كبير من المفردات.

[38] ولا تساهم الحركات البتّة في تكوين المادة وإنما هي فحسب تكون مع حروف الزيادة السبعة الميم والنون والتاء والسّين والهمزة والواو والياء

عناصر صرفية على أن دورها لا يكون تاما هو . فحروف الزيادة تكون زوائد أمامية أو وسطية أو خلفية في المواد الفعلية أو الاسمية وتكون الحركات فحسب وسطية أو خلفية نتيجة تركيب العربية المقطعي. ووجود نسق صوتي يحول، على بساطته دون امكانية قيام كلمات مواد وفعل الماضي المسند إلى ضمير المفرد المذكّر الغائب، وهو الصورة الأكثر تجريدا، له ايضا ثلاث حركات.

ويتفرع الفعل إلى صيغة مجردة وصيغ مزيدة مع إمكانية تفرع المزيدة . ومن هذه الصيغ المزيدة بقيت أساسا حية : صيغة تفيد المبالغة وصيغة تفيد التعدية وصيغة تدلّ على الجهد عند القيام بالفعل مع التفرعات الموافقة الدالة على وقوع الفعل على الفاعل وبعد معرفة معنى مادة الكلمة فإن معنى صيغة مشتقة ما يمكن مبدئيا أن يستنتج بصورة آلية ، ولكن يجب أن نعتبر أولا تعدّد المعاني الموجود بكثرة في الصيغة المجردة، ثم نزعة كل لفظ مشتق إلى الاحتفاظ باستقلاله بالنسبة إلى المادة الأصلية .

مثال ذلك ا ضرب II ضَرَبَ (ضرب ضربا شديدا) و III ضارب = ضرب فلانا وضارب الأسعار IV أضرب = قام بإضراب، V تضرَّب = اضطرب، VI تضارب= المشاركة في الضرب : VIII اضطراب = كان في حالة اضطراب X استضرِب = (طلب الضراب) دون اعتبار معان ثانوية أهملت.

وجميع هذه الصيغ المجردة منها والمزيدة لها ماض ومضارع واسم فاعل يمكن بناؤها للمجهول بتغيير حركي مناسب وأمر و مصدر وتوجد سلسلتان من علامات إسناد الفعل إلى مختلف الضمائر ، الواحدة في صورة سوابق مع المضارع والاخرى في صورة لواحق مع الماضي وتميَّز العربية بين ثلاثة ضمائر باعتبار العدد (مفرد ومثنى وجمع) وباعتبار الجنس (مذكر و مؤنث) مع

ضميري المخاطب والغائب[39] والتصريف وهو سهل في حد ذاته لا يختل إلا بما يكون في الجذر من صوائت تكتسب حسب الموقع قيمة حركية ويؤول بها الحال إلى الزوال . وعلاوة على نظام علامات الإسناد فإن التقابل بين المضارع والماضي يقوم على تناوب حركي يخصص عين الفعل، بحيث أن صورتي الفعل، صرفيا، متباينتان وزيادة على ذلك فإن المضارع ينضاف إليه ما يدل على الحال بتغيير حركي خاص.

وللاسم -جامدا كان أو مشتقا- جنسان - مذكر ومؤنث - وعلامة هذا الأخير أساسا حرف التاء - وثلاث حالات من حيث العدد : مفرد ومثنى وجمع وحالات إعراب ثلاث : رفع ونصب وجر. ويقوم التمييز بين حالات الإعراب على تناوب حركي في حين أن التقابل بين المفرد والجمع علامته في جموع التكسير تغيير حركي جديد، وفي جموع المذكر السالمة حرف النون. وهي الحالة الوحيدة التي تتضافر فيها الحركات والحروف، حسب ما يبدو على الأقل ، لنفس الوظيفة الصرفية. وللعربية بالاضافة إلى ذلك حالة تنكير علامتها الأساسية زيادة نون ساكنة (مسبوقة بعلامة الإعراب) وحالة تعريف خاصيتها قديما حسب ما يبدو انعدام تلك اللاحقة النون إلا أنه تعززها أداة تعريف أو عامل آخر من عوامل التعريف (باضافة الاسم إلى اسم أو إلى ضمير).

وإلى عدد عديد من الاسماء المشتقة: مصدر الفعل المتعدي ومصدر الفعل اللازم اسم الفاعل ، المصدر الدال على الحرفة، اسم المكان، اسم الآلة... ويمكن إرجاعها مباشرة إلى جذر فعلي مجرد أو مزيد تنضاف الأسماء التي تبدو حاليا لا علاقة لها بجذر فعلي والكلمات الدخيلة.

وهناك سلسلتان من الضمائر: سلسلة منفصلة، مسند إليه في الجملة الاسمية، لها بالخصوص قيمة بلاغية ، وسلسلة متصلة، لاحقة بالفعل (مفعول

به) وبالإسم (تعادل التعبير عن الملكية) أو بحرف (حالة الجر) واسم الإشارة الأكثر استعمالاً هو أساساً عنصر، ذال مقوّى [بحروف أخرى] وهو يستعمل صفة [40] و اسما ضميراً واشتقّ منه إسم موصول اكتسب في نهاية الأمر قيمة اسم والعربية لغة تأليفية كثيرة ما تستغني عن الأدوات، غير أن لها مع ذلك حروفاً وكذلك أدوات عطف وتكون الجملة فعلية (يكون الفعل فيها غالباً في الصدارة) واسمية (مسند ومسند اليه) وتتفرّع الجملة إلى جمل يمكن أن تكون متتابعة بدون رابط (كما هو الشأن في القديم) أو معطوفة بعضها على بعض أو واقعة موقعاً ما من الإعراب.

وقد اكتسبت العربية بفضل انتشار الإسلام الواسع مستوى عالمياً وهي تحظى بإشعاع خارق للعادة بصفتها لغة دينية أولاً ولغة حضارة ثانياً وإن مكانتها السائدة في العالم الإسلامي قد عرقلت طيلة قرون تطوّر الآداب القومية وخوكت لها السلطة المطلقة في الميدان العلمي .

غير أنه من الواضح أن لغة البدو، وقد ضبطها اللغويون بعناية فائقة، لم يكن لها أن تظهر بما نعرف لها من عالمية من غير أن تدخل عليها خلال القرون تحويرات اقتضتها الظروف التاريخية والحاجات الجديدة للأمة وبأبي العرب مع ذلك أن يعترفوا بأن لغتهم قد تطوّرت والعديد من المستشرقين ينحون نحوهم في هذا الموضوع على أنهم محقّقون في ذلك إلى حدّ ما ولو ظاهرياً وإن اللغة العربية، وقدردّت دوماً إلى أنموذج مثالي هو القرآن والشعر القديم وكانت في حمى معلمي المدارس يعلمونها في ضرب من العبادة وقُنّنت في كتب مدرسية أهل لإجلال لا تشوبه شائبة وضبطت من حيث نظامها الصوتي بفضل تجويد دقيق لم تتطوّر في حقيقة الأمر تطوّراً يدرك لأوّل وهلة إلا في نطاق مفرداتها دون أن يُعترف لها البتّة مع ذلك بالقدم والشيوخة.

وحركة التعريب الكبرى من اليونانية والسريانية والفارسية وقد خلفت منذ القرن IX في المعجم أثرا واضحا لم تكد تزيد على أن أدخلت بعض الكلمات الخاصة مثل ما تكون من الأسماء المركبة بواسطة أداة النفي (لا) للتعبير عن السابقة التي تفيد النفي (مثل: لا نهاية) أو أفادت من الإمكانيات القليلة الاستغلال مثل استعمال (كان) أداة مساعدة أو استعمال الضمير المنفصل في جملة اسمية. وفي القرن XIX أعاد التاريخ نفسه ذلك أن عدة كتب غربية قد ترجمت إلى العربية بل أكثر من ذلك فإن جل الكتاب المحدثين يعرفون على الأقل لغة أوربية ولكن رغم تلك الظروف طبعاً ودون اعتبار الأخطاء التي لا ترجع جميعها إلى تأثيرات أجنبية فإن التراكيب والأبنية المنقولة مباشرة عن نماذج أوربية لا تزال نسبياً قليلة إلى عهد قريب ولكنها مع الأسف تنزع إلى التكاثر.

أما بالنسبة إلى الصّرف فإن العرب قد اقتصروا على استعمال ما للفتهم من إمكانيات لا تنفذ من غير أن يكونوا في حاجة إلى الالتجاء إلى ظواهر صرفية أجنبية على أنها لا تقتبس وفي الواقع فإن المشكلة لا تتمثل في الصّرف والنحو بقدر ما تتمثل في إثراء المعجم الذي يجب أن يساير اللغات الأوربية دون انتهاك القواعد الكلاسيكية.

ألفاظ العربية الفصحى

من الممكن -في نطاق تطوّر المعجم العربي-^[أ] أن نتبين أربع مراحل كبرى من العصر الجاهلي إلى اليوم.

أ: تزايدت العناية بالمعاجم منذ منتصف القرن العشرين تزايداً ملحوظاً وبصعب حصر ما ألف في هذا الباب ويمكن الرجوع مثلاً إلى كتاب حسين نصّار المعجم العربي نشأته وتطوّره (رسالة دكتوراه من جامعة القاهرة) المنشور سنة 1956 وكتاب أحمد الشرقاوي إقبال -معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية) دار الغرب الاسلامي ط 1407 / 1987

ان جهد علماء اللغة -وهذا معروف- قد تركّز أساسا على لغة القرآن والشعر وقد كانت تنقصها نقصا كبيرا ألفاظ الحضارة وإن النحاة- وهم يعتمدون آيات عديدة ذكر فيها أن الكتاب قد أنزل بلسان عربي مبين أكدوا أن هذه اللغة لم تكن تشتمل على أي لفظ اعجمي ونسبوا إلى مصادفات عرضية أوجه التماثل التي كانوا يقفون عليها.، لأن جلهم كانوا [42] من الفرس قادرين علي ان يتبينوا في يسر ما أخذ عن لغتهم. ثم قبلت المفردات الأعجمية التي كانت قد انصهرت في الصّرف العربيّ والشعر على أن يرفض بالاعتماد أساسا على مقياس ثلاثية المادة -ما لم يكن قد أمكن له أن يدمج إدماجا تاما. ومع ذلك فمما لا شك فيه أن العرب منذ العصر الجاهلي قد التجأوا إلى لغات أخرى كانت قد أمدتهم بصفة مباشرة أو غير مباشرة بوافر من المفردات المتنوعة تنوعا كبيرا: فالألفاظ الدينية جاءت من العبرية والآرامية ، والألفاظ الحضارية كانت قد أخذت عن الفرس وقد كانوا على اتصال بهم (اللباس والمطبخ والسلاح والأثاث والأزهار الخ...) وكذلك عن الهند الذين كانوا عن طريق البحارة والتجار قد وقروا أسماء موادّ البذخ والحجارة الكريمة والعطور وأخذت بصفة غير مباشرة عن طريق الفهلوية المصطلحات العلمية.

ولم يتفطن علماء اللغة إلا في عهد متأخر إلى ضبط قوائم في هذا المعرب والدخيل ولدينا في هذا الميدان معجم للجواليقي (1073-1144) [أ] وكتاب

[أ] المقصود «المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم» وقد نشره بليزنيق المستشرق ادوارسغار سنة 1867 ثم حققه أحمد محمد شاكر ونشرته دار الكتب بالقاهرة ط1. 1360 / 1942 وط2 1389 / 1969

أشمل وأثرى للخفاجي (1571-1659) [أ] وهو يشور بالإضافة إلى ذلك على الأخطاء اللغوية ومنذ عهود الإسلام الأولى ظهرت ظهورا واضحا الحاجة إلى اكتساب مصطلحات إسلامية فالسور المدنية وهي تشتمل على أحكام فقهية لا توفر حتى بعض هذه المفردات الأساسية التي كثيرا ما تتكرر في لغة الفقهاء المسلمين، ونحن ندرك المهارة التي وجب التحلي بها لإنشاء مصطلحات ملائمة للعلوم الجديدة وقد أفاد المتخصصون من إمكانيات الصّرف ليكونوا كلمات جديدة موسومة بسمة العربية أو ليغيروا تغييرا طفيفا بالحصر أو بالتحويل معنى ألفاظ قديمة وبهذه الطريقة أنشئت مصطلحات الفقه والحديث والنحو. وتنظيم الامبراطورية الإسلامية وهو معاصر [43] لخطوات العلم العربي الأولى تم بصورة تدريجية. وإن الحكومة من غير أن تبتكر إدارة متميزة، اقتصر بعد فترة طويلة نسبيا من التأقلم ، على تعريب التي كانت قد وجدت في البلدان المفتوحة. ولكن التعريب لم يحصل بدون صراعات ففي أواخر القرن IX عندما ترجمت الوثائق الرسمية إلى العربية وقد كانت إلى ذلك التاريخ باليونانية أو الفارسية ، فإن النساخ الأعاجم وقد كانوا يشعرون بزمّام الأمور يفلت من أيديهم قد عملوا على إبراز نقص لغة المنتصرين. وبالجمع بين منهج العلماء وما أخذ عن اللغات الإدارية وقد دخل بعد إن قليلا أو كثيرا في الاستعمال، توصل المترجمون إلى أن يكونوا لغة إدارية ظاهرها عربي تماما وأثبتوا لخصومهم أن التعريب لم يكن مخاطرة وفي الواقع فإن ارتقاء العربية إلى درجة اللغة الرسمية هو الذي أتاح نشأة النشر.

أ- المقصود شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدّخيل [وطبع عدة طبعات أولاها بالروبية سنة 1282 / بعانية نصر الهوريني ومصطفى أفندي وطبعة ثالثة بالمنيرية سنة 1952 بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ثم طبعه قصي الحسين بدار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع بطرابلس لبنان سنة 1406 / 1986 بعنوان معجم الألفاظ والتراكيب المولدة في شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدّخيل].

والألفاظ التي أنشئت أو أدخلها "المحدثون" قد أخذت مكانها أحيانا ، ولكن نادرا ، في كتب أصحاب المعاجم الذين اقتصروا في نهاية الأمر على أن يقبلوا كوسائل إثراء ، الاشتقاق حسب قواعد الصرف واستعمال كلمة ما استعمالا مجازيا . وهكذا فإن العربية التي كانت أساسا لغة الملموس قد صارت شيئا فشيئا قادرة على التعبير عن المجردات ، وإثنا نجد دوما حين نعود إلى الأصل المعنى الملموس لألفاظ هي الآن تدلّ على المجردات أي أسماء معان.

ورغم قبول هذه التحويلات المعنوية فالمصطلحات العلمية ظلت مدة طويلة خارج القاموس الكلاسيكي . وفي القرن X فإن العالم الخوارزمي (م بعد 1000) وقد ادرك أن أي علم هو قبل كل شيء مصطلحات مضبوطة ، رأى نفسه مجبرا على تدوين موسوعة : "مفاتيح العلوم" [أ] جمع فيها الألفاظ التي رفضها أصحاب المعاجم والمتعلقة بالفقه والدين والعروض والتاريخ والمنطق والطب والحساب والهندسة وعلم الفلك والموسيقى وعلم الحيل [44] والخيمياء ولا يزال كتابه ضروريا لفهم النصوص الفنية.

ويجب أن نذكر أن العربية في ما بين القرن VII والقرن X قد أثرت ثراء عظيمًا إثر دخول العلوم الأعجمية . ومنذ بداية القرن XI فعلا وبدفع من الخليفة الذكي المأمون فإن الحضارة العربية الناشئة قد غمرها بآتم معنى الكلمة وابل من ترجمات الكتب الفارسية والهندية وبصورة خاصة اليونانية . غير أنه لما كان الفكر اليوناني هو كذلك الذي أثر التأثير الأقوى فإننا لا نغالي في شيء مهما أبرزنا الدور الهام الذي قام به المسيحيون في هذا الميدان وفي الأوساط المسيحية فإن الفلسفة اليونانية كانت معروفة منذ قرون وكتب أرسطو كانت

أ: مفاتيح العلوم نشره المستشرق فان فلوتن سنة 1895 بليدن ثم طبع بالقاهرة سنة 1342 / 1923 .

تكون قاعدة جميع المعارف العقلية غير أن ترجمات صروح الفكر اليوناني قلما تمت انطلاقاً من النصوص الأصلية ، وعلى العكس من ذلك فإن ترجمة أولى إلى السريانية قد قامت في أغلب الحالات مقام الواسطة، بحيث كان تأثير العربية باليونانية بصورة غير مباشرة ويمكن أن يتتبع المرء عبر مختلف مراحل ترجمة كتاب الشعر لأرسطو (1) مثلاً الصعوبات والجهود قصد التحسين : فالمرجم السرياني، وقد أعوزته اللغة المناسبة، قد اقتصر أكثر من مرة على نقل المفردات اليونانية من غير شرح، والمرجم العربي كان في حرج أشد إذ كانت لديه ترجمة سريانية سقيمة بحيث انضافت بالنسبة إليه إلى صعوبة الترجمة صعوبة الفهم فبحث في المعجم العربي عن حالات تماثل بالنسبة إلى المواضيع المطروقة وهكذا آل به الأمر إلى اقتراح كلمات تقريبية مثل مديح لترجمة "تراجيديا" وهجاء "كوميديا".

وبصورة عامة لم يقع الالتجاء إلى الدخيل المباشر إلا في حالة الضرورة القصوى بحيث إن الكلمات الأعجمية [45] التي انتقلت إلى العربية هي نسبياً قليلة بالقياس إلى أهمية حركة الترجمة وهذه الخاصية تعلق حسب ما يبدو ، بما بين العربية والسريانية من قرابة تحجب المبادلات، ويكون الدخيل أكثر اطرادا في لغة التخاطب منه في اللغة المكتوبة فالعلم اليوناني ظل طي الكتب ذلك أن العالم بإمكانه أن يبحث كامل الوقت عن الكلمة التي تناسبه. وفعلًا فإن الأسماء والصفات والأفعال اليونانية التي لها مناسب دقيق قد ترجمت به. أمّا أسماء المعاني فقد ترجمت أحيانا بالمصدر في حين مكنت صيغة منقولة عن السريانية بزائدة خلفية (آية) من الحصول على جميع

1- أنظر: خ جيور: مقولات أرسطو في تراجمها السريانية العربية 1948. ¹ وأنظر أرسطوطاليس فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن مينا وابن رشد ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصه عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1953

المفردات الدالة على المجرد التي يرغب فيها. (مثلا : ما : quid) ماهية (quidit ) وتترجم أدوات تعديل المعاني وهي قليلة في العربية بواسطة مصدر مسبوق بحرف . الخ إلى درجة أن التأثير المباشر بصفة عامة ظل محدودا.

ولم يعد الأمر كذلك عندما تعلق الشأن بكلمات تدل على الملموس [اسم عين] تنتمي إلى المصطلحات في الطب والحساب والكيمياء وعلم الفلك والعلوم الطبيعية فالصرف العربي لا يوقر في هذه الميادين إلا إمكانيات غير كافية، وإنما يقينا هنا يظهر أكبر عدد من المفردات الدخيلة المباشرة رغم أن القاموس القديم قد وقع استغلاله استغلالا واسعا خاصة منذ أن تسنى للعلماء -وقد عرفوا معنى الجذور الأعجمية- أن يستعملوا مكونات عربية موازية. وإن الفلسفة والتصوف⁽¹⁾ وهما يقتضيان لغة خاصة -قد أفادا من أعمال المترجمين، ثم اعتمدا اثناء تطورها على المفردات القرآنية وعلى الاشتقاق المباشر وعلى فنيات العلوم العربية واللغة الفنية « الأرامية التي كان المذهب الفلسفي الشرقي التوفيقي قد كونها لنفسه شيئا فشيئا خلال قرون تاريخنا [الميلادي] الستة الأولى ناقلا [46] مفرداته تارة عن اليونانية وطورا عن الفارسية" (لويس ماسنيون) وعمليات التحويل والتغيير والحصص والتوسع في المعنى التي اقتضتها الثقافة قد انضافت إلى تطور اللغة الطبيعي بقطع النظر عن أي تأثير خارجي ، وقد أحدث رغم الدعاة إلى صفاء اللغة، تغييرات مماثلة وهذه المفردات الجديدة وهذه الفويرقات المعنوية التي يسميها العرب "مولدا" هي متأخرة عن استقرار اللغة ويجب أن نتأكد من أن يكون لدينا قاموس تاريخي لنتتبع بدقة كامل تطورها.

1- انظر ل. ماسنيون: بحث في أصول مصطلحات التصوف الاسلامي باريس 1922. (بالفرنسية)

إن سقوط الدولة العباسية في القرن XIII أخذ العرب وقد كان تفهقهم بدأ منذ أمد بعيد. ومع ذلك فإن سيطرة المغول والفرس والتürk لم تقض على العربية القضاء التام إذ هي ظلت اللغة الدينية بل الرسمية في القسم الغربي من حوزة الإسلام وبإفريقيا الشمالية وإسبانيا وكذلك بسوريا ومصر حتى العهد الأول من السيطرة العثمانية فالعالم العربي وقد انطوى على نفسه لم يعد تقريباً في حاجة إلى ألفاظ جديدة، على الأقل بالنسبة إلى نشاطه الأدبي ولكن لغة التخاطب قد حُمّلت بكثير من الكلمات التركية والفارسية التي أخذت خاصة من المصطلحات الإدارية (1) ونتيجة لذلك ومن باب الكسل أيضاً فإن بعضها دخل إلى العربية المكتوبة وأثقلها في غير ما فائدة.

وأحد القضايا الأولى التي اعترضت المتمسكين بفصاحة اللغة ابتداء من اللحظة التي أعيدت فيها الصلة في القرن XIX، بالأمم الغربية كانت فعلاً طرح هذه الأجسام الأعجمية. وقد ساهمت عائلات مسيحية لبنانية، أسرة اليازجي [أ] والبستاني [ب]، مساهمة بارعة في تلك التصفية، ولا تزال عديد الكتب المدرسية الشبيهة بكتبنا "لا تقل . بل قل ... " حيث يجهد المؤلفون وهم يرجعون إلى النحاة القدامى - [47] أن يحدوا من مخلفات عصور

1- بكفي كي نلّس التأثير التركي ان تقرأ: اد. صوساي الالفاظ التركية في لغة دمشق العامية (المعهد الفرنسي بدمشق /I /1927.

أ: أسرة لبنانية من أصل شامي اشتهر أفرادها بالتأليف والترجمة ومن أبرزهم ناصيف بن عبد الله اليازجي (1287 / 1871) ومن أعماله "مجمع البحرين" وفصل الخطاب عن قواعد العربية" وابناه خليل (1806 / 1889) وخاصة إبراهيم (1824 / 1906) وقد ساهم هذا الأخير في تطوير فن الطباعة وفي الترجمة وفي الحركة المعجمية فألف نجعة الرائد في المترادف والمتوارد"

ب: أسر لبنانية لها شأن في تاريخ اللغة والآداب لعربية ترجمة وتأليف ودراسة من أبرز أفرادها: بطرس البستاني (م 1800 / 1883) ومن أشهر آثاره الأجزاء الأولى من دائرة المعارف". وابنه سليم (1801 / 1884) وقد واصل إعداد عمل أبيه ثم سليمان (1845 / 1925) وقد واصل إعداد دائرة المعارف وترجم خاصة الباذة هو ميروس وقدم لها بمقدمة هامة وكذلك عبد الله البستاني (1848 / 1930) ومن أهم أعماله قاموس "البستاني" ومختصره فاكهة البستان

الانحطاط وهم يلفتون الانتباه إلى الاستعمالات الجديدة الغالطة غير أن عمل النقد السلبي هذا، رغم فائدته التي لا تنازع، يمحي أمام المشاكل التي أثارها ارتقاء العرب السريع إلى درجة من الحضارة لا تزال مجهولة.

وحقيقة القول أن الشرقيين منذ القرن الماضي قد وجدوا أنفسهم فجأة في موقف شبيه بموقف أجدادهم في العصر العباسي فإنهم، وقد غمروا بوابل من المفاهيم الجديدة أو التي تنوسيت، قد تبنوا على عجل الألفاظ التي كانت تنقصهم وهكذا فإن مجموعة هامة من الكلمات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية قد وقع في بداية الأمر استعمالها في شيء من عدم التفكير من قبل كتاب عجولين ومن الكلمات المقتبسة الأولى هذه، لا تزال بعض البقايا وقد اكتسبت حق الوجود والأرجح أنها لن تعوض أبداً. وهي على وجه الخصوص ألفاظ عسكرية وإدارية وسياسية وتجارية مثل قنصل، برلمان، وفاتورة الخ.

وبالإضافة إلى انتقاء طبيعي، فإن العود إلى الماضي كان بإمكانه وحده أن يتيح إثراء حقيقياً من غير أن تنتهك عبقرية اللغة العربية وفي القرن الماضي شوهد انبعاث اللغات القومية ولكن بينما كان بوسع الأمم التي ليس لها ماض ثقافي أن تقتحم بلا تردد سبل الحداثة فإن العرب وهم أصلاً محافظون، كانوا يشعرون أنهم مقيّدون بعبء الماضي وقد كان عليهم أن يوفقوا بينه وبين الحاضر والمستقبل وأن الشرق إلى الثمانينات - وقد كان مدفوعاً بروح ثورية قوية جداً، طمح إلى التقدم في جميع الميادين ثم إن عملية رد فعل لم تلبث أن ظهرت وإذا الاهتمام بصفاء اللغة قد تغلب على الرغبة في مماثلة الأمم الأوروبية. فطلب من الماضي حلول لم تفكر فيها أجيال القرون الأولى وقد اكتشف أن عديد المفاهيم في الظاهر لم تكن بغريبة^[48] عن عرب القرون الوسطى وبعثت من المعاجم الفنية المصطلحات المناسبة بطريقة هي أقرب إلى الاضطراب وفي غير ما نجاح دائم في حين أن التراث العربي القديم كان يوفر عن طريق الاشتقاق المباشر ما يكفي من المفردات لتعويض أغلب الألفاظ المعربة على عجل.

ولا يتمثل الامر هنا في عملية مقصودة شبيهة بما قامت به تركيا او المانيا
الهتليرية ، ولكن، باستثناء بعض المشاغل ذات النزعة القومية، في رد فعل
تلقائي ضد تسرب كلمات أعجمية يعسر أن يتمثلها الصرف العربي وهذه
التلقائية وهي محدودة في حد ذاتها كان لها واسفاه نتائج سيئة لأن نزعة
التمسك بالرأى الشخصى الفردية الخاصة بالعرب غالبا ما دفعتهم الى أن
يرفضوا اقتراحات جد مناسبة ويتشبثوا بمكتشفات شخصية تتعارض مع عملية
التوحيد الضرورية. ورغم جهود مجعبي القاهرة ودمشق (1) واذا ليس لاية
منظمة فعليا الحق في التقنين في مادة اللغة، فان الفوضى لا تزال تسود غالبا
في افراط في ميدان المصطلحات ويجب ان ننتظر ما يفرضه الاستعمال(2)
ومع ذلك فان كثيرا من المفردات هي بعد واحدة بين البلدان العربية ولها
معنى هو من الان قد حدد.

ويكفينا مثال واحد لظهار الصعوبات التي اعترضت والحلول التي اتخذت
فعندما انتشرت النظرية الذرية عند العرب في القرن VIII استعملت في بداية
الامر شبه جملة لتسمية الذرة "الجزء الذى لا يتجزأ" ثم إن الفلاسفة وقد رجعوا
الى النصوص الاصلية وبحثوا عن أصل [49] الكلمات المستعملة نسجوا على
"a-tomos" "اللاقسم" وهي بعد غريبة نوعا ما عن الصرف العربي وهو يجهل
الكلمات المركبة غير ان هذه الطريقة لقيت رواجاً وكوّنت بنفس الأسلوب أسماء

1- انظر خاصة: ر. الحمزاوي: المجمع العربي بدمشق وقضية تحديث اللغة العربية ليدن 1965. ولنفس المؤلف
: أعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة: مناهج ترقية اللغة العربية تنظيرا ومصطلحا ومعجما دار الغرب الاسلامي
بيروت 1988

2- منذ بعض السنوات كلف بالتمريب مكتب دائم للجامعة العربية مقره بالرباط وهو يبذل جهودا مشكورة اذ يقترح
معاجم فنية مؤقته هي في الغالب في لغات ثلاث (العربية الفرنسية والانجليزية) ويرجو من يهمهم الأمر موافاته
بملاحظاتهم ومن المرجو أن تصبح هذه المنشورات نهائية وان تتوحد بالتالي المصطلحات الفنية.

أخرى وعندما شرع الشرقيون في دراسة الفيزيا بأوربا وأرادوا نقل معارفها الى مواطنينهم لم تكن اللاقسم - وقد نسيت على الاغلب - هي اللفظة التي استعملوها وانما استعملوا مفردة قرآنية "ذرة" وهي تعني في الواقع : نملة صغيرة ثم وفي القرآن قبل ذلك جزءا صغيرا جدا. وعندما أعادت الاكتشافات الحديثة الى الذرة مكانتها تحرّج صحافيون جهلة حرجا شديدا و اذا بكلمات شتى تظهر الى الوجود ولكن الصحافة المصرية كانت بعد أيام قليلة فرضت وعمّت استعمال كلمة ذرة.

ونشاط المجامع والجهود الفردية لن تؤتي كل أكلها إلا يوم يُعقد العزم لا على قطع الجسور مع الماضي ولكن على ألا يعتبر جريمة مس بالعروبة ترك تلك القشور المكدسة عبر القرون والتي يجرها بلا طائل القاموس العربي. فبهذا الثمن، فيما يبدو- يمكن للعربية أن تصبح اللغة الكبرى التي تطمح أن تكونها ويمكن ان نرجو للكتاب ان لا يُبدوا آراء بشر فارس القاسية والصحيحة حول "الصعوبات اللغوية والثقافية والاجتماعية التي تعترض كاتبها حديثا ، خاصة بمصر". (1)

والاحصائيات من هذه الناحية مشجعة: ففي نص من القرن IX في حوالى خمسين صفحة مطبوعة استخرجنا 3085 كلمة مختلفة- دون اعتبار أسماء الأعلام والأدوات النحوية- من بين 8300 لفظة فحسب. وهذا مما يدل على الثروة العجيبة للغة كتاب القرون الوسطى وخلافا لذلك فإن إحصائية حول لغة الصحافة- وهي كذلك لغة جلّ الكتاب المحدثين- لا (50) تظهر إلا 4765 لفظة مختلفة من جملة 110569 لفظة أي نسبة 94,8 ٪ من مجموع اللغة ، أي نسبة قريبة من التي تلاحظ في الانكليزية (97,7 ٪ بالنسبة الى 3000 لفظة).

1- مجلة الدراسات الاسلامية 1936 ص ص 221 - 242. بالفرنسية.

وانّ اللغة العربيّة الكلاسيكيّة المجدّدة - حين تيسرّها عملية انتقاء طبيعي يجب ألا تقاوم ويضبطها الاستعمال وينشرها الادب والمسرح والسينما وخاصة الصّحافة والاذاعة والتلفزة ، يمكنها بشرط أن يُطوّر التعليم وأن ترفع منزلة المرأة - أن تصبح لغة الحديث في البلدان العربيّة هذا هو على كل حال الامل الذي تنطوي عليه نفوس الكثير من الشّرقيين الذين يفكرون في توحيد عامّ، ولكن رغم أنّه ليس لنا أن نحكم ، فان هذا الأمل ليس على وشك التحقق لأنّ اللهجات تحتفظ حتى عند الطبقات المتعلّمة بمنازل جدّ ثابتة يوجّه التقدّميون ضدها جميع جهودهم للحيلولة دون ظهور لغات قوميّة.

العربيّة العاميّة

انّ اللهجة الشعريّة التي أصبحت العربيّة الفصحى كانت تشمل عددا لا شكّ كبيرا نوعا ما من اللهجات الخاصّة بالاستعمال اليومي.. وهذه اللهجات لا نعرف عنها الا القليل القليل إذ أن النّقوش يعسر استغلالها وانّ النّحويّين، وقد كانوا يسعون الى فرض العربيّة الفصحى كابتين عند الحاجة النزعات اللهجويّة، لم يذكروا الا عرضا بعض الخصائص المحليّة. والأدب العاميّ القديم قد كان منحصر في أخبار وقصص وأمثال قد تصرّف فيه الكتاب الذين استعملوه. فلن يمكن إذن أبدا اعادة بناء اللهجات القديمة بشبه الجزيرة العربيّة ، غير ان دراسة عميقة لحالة اللهجات اليوم ودراسات ضرورية في الجغرافيا اللغويّة والمعطيات التاريخيّة توفّر ولا شكّ^[51] معلومات قيّمة وتمكّن، بالانطلاق من الحاضر، من الرّجوع الى ماض بعيد: وحيث أن العرب لم يعتنوا بلفتهم اليوميّة فإن دراسة اللهجات لم تبدأ إلا في القرن الماضي وهناك مناطق شاسعة لاتزال تنتظر الكشف .

والعربية يتكلمها اليوم ما يقرب من 100 مليون نسمة موطنهم يمتدّ على آسيا الامامية وافريقيا الشمالية من الخليج الفارسي الى المحيط الاطلسي⁽¹⁾. والبلاد الناطقة بالعربية هي شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن ومصر والسودان وجزء من التشاد وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا وجزء من مالي وجيبوتي وزنبار ولا ننس الاقليات السورية اللبنانية بالولايات المتحدة والبرازيل والأرجنتين والسنغال.

واننا نتبيّن جملة ودون أن ندخل في التفاصيل لهجات بشبه الجزيرة ولهجات عراقية وسورية لبنانية وفلسطينية ومصرية وافريقية ومغربية وموريتانية تتميز بعضها عن بعض تميزا واضحا وتتفتت الى مالا يحصى من اللهجات. ويمكننا، واللهجة هي أصغر وحدة لغوية، أن نجدتدقيق الاشياء لهجة واحدة بكلّ قرية صغيرة. ولقد أحصيت شخصا أربعاً أساسية في منطقة يقلّ سكّانها عن الالف دون اعتبار الخاصيّات الأساسية والفوارق الواضحة بين الأجيال.

وهناك ثلاثة عناصر أساسية ، على أن النسبة بينها ليست موحدة المقدار، هي أصل لهجة ما أو هي تساعد على تكوينها. وهي اللهجات القديمة والعربية الفصحى واللغة الاصلية.

وقد حافظت القبائل في الجهات العربية أو المعربة منذ عهد طويل على لهجاتها التي هي بصفتها مستعملة قد تطوّرت تطوّراً طبيعياً يضاف اليه

1 - انظر ج س . كولين العربية العامية بالمدرسة القومية للغات الشرقية الحديثة (مناسبة إحياء الذكرى المئة والستين للمدرسة (باريس 1948).¹ من الطبعة الأولى 1952 ذكر الاستاذ بلاء أن عدد الناطقين بالعربية حوالي 50 مليوناً وهم يكون عددهم في سنة 1996 سنة اتمام تعريب الكتاب؟

تأثير[52] العربية الفصحى حتى أنه يصعب أن نستخلص من وضعها الحالي معلومات سريعة ودقيقة عن حالتها القديمة.

إن العناصر العربية وهي في غالبيتها من البدو التي ساهمت في الفتوحات واستقرت بكامل العالم الاسلامي كانت من حيث العدد نسبياً قليلة. وقد احتفظت كل مجموعة بلهجتها الخاصة . لكن يمكن أن نفترض أنه قد تكونت تدريجياً في التجمعات السكنية الهامة لهجة أدبية عامية مقتبسة بعض العناصر من العربية الفصحى في حين أن لغة الكلام كانت في كل مكان وحتى عند البدو خاضعة لتأثير اللغات الاصلية غير المستهان به تأثير الارامية بالعراق والسريانية بسوريا والقبطية بمصر والبربرية بافريقيا الشمالية والرومانية^[أ] باسبانيا. ولذا فإن اللهجات الحالية هي خاصة من حيث صوتياتها ومفرداتها بل وكذلك من حيث نحوها وحتى من حيث صرفها تتصف بفوارق على درجة من الوضوح حتى ان المغربي يحتاج الى شهور عديدة من التعود قبل ان يتمكن من الحصول على ملكة استعمال لهجة من اللهجات الدمشقية.

وليس المجال هنا مجال استقصاء مختلف هذه اللهجات، وكفيينا ان نشير الى انه عادة ما يكون الحضر اكثر تطوراً نتيجة اختلاط الأجناس في حين ان البدو لهم نزعات اشدّ محافظة. فالنظام الصوتي اثري من نظام العربية الفصحى وسلّم الحركات اكثر تنوعاً غير انه كلما كانت لهجة من اللهجات اكثر تطوراً نزع التنوع بين الحركات الى الاضمحلال فالامر لم يقتصر على أن انهاك الاواخر يحدث سقوط الحركات بل إن الاعراب بالموضع يلغي دور

أ - هي لغة مشتقة من اللاتينية ومتقدمة على اللغة الفرنسية والاطالية والاسبانية.

حركات الاعراب بل واكثر من ذلك فان الحركات القصيرة الداخلية تضعف بدورها وتضمحل حتى في المقطع المنبّر في اللهجات المتطورة مثل لهجات المغرب الاقصى بل تكاد لا تعوضها الا عناصر صوتية خفية تكون اوساط مقاطع وتتلون أحيانا باعتبار الجوار الحرفي، اما الصّرف [53] فمبسّط وتنزع وجوه من التركيب التحليلي الى تعويض الصيغ التأليفية. وإنك تجد الرصيد اللغوي الاساسي في العربية الفصحى غير ان اللهجات تستعمل كذلك مجموعة من المفردات الحية آتية من أصول عربية اهلكت في أماكن أخرى او متكوّنة تكوناً عفويّاً أو دخيلة من لغات اجنبية لا تزال حية في نفس المكان .

تساءلنا طويلا هل كان يجدر بنا بعد هذه الإشارات السريعة أن نعتني بالادب العامي ونخصّص له الدراسة التي يستحقّها وإنه لا يمكننا، لا شك في ذلك، أن نعيد التاريخ وأن نسوق افتراضات لا يمكن التثبت من صحتها غير أنّه يبدو لنا أنّه لو لم يظهر الاسلام ولو ان العرب، بدل ان يكونوا فاتحين، كانوا دائما تحت سيطرة شعوب اجنبية لكان الادب المكتوب نزرا لا يذكر بالنسبة الى الأدب الشفوي الذي قد يجد الباحثون عناصره المبعثرة. بل الغالب على الظن أنّ القومية الحديثة وهي تهمل الآثار الشعبية كان يمكن أن ترى فيه على العكس من ذلك مدعاة للفخر لكن، عند العرب، غطى أدب مكتوب ثري على كلّ ما لم يبد جديرا بالتدوين وقلما تشير اليه الكتب المدرسية أدنى اشارة. وما أيسر ما ننسى ان الانسانيات العربية تركز أساسا، اذا استثنينا القرآن، على أدب القبائل القديمة الشفويّ بشبه الجزيرة وأن آثار النثر العربيّ الاولى تفسح المجال للفلكلور والافكار التاريخية والامثال والقصص المفسرة لها. وسنعود الى هذه المسألة لابرار ما أفاده الادب المكتوب منها غير أنّه يبدو من الصعب أن نسكت تماما عن الانتاج العامي الاقلّ بعدا عنّا في التاريخ ولم يجسر العرب المثقفون منذ ان انتشر استعمال الكتابة، الا في

حالات استثنائية، على التأليف باللغة العامية. غير أنه ليس من الضروري أن يكون المرء عالماً لتكون له موهبة شعرية [54] وإنا لنسمع أغاني وأشعاراً شعبية هي أحياناً أشدّ سحراً وهي دائماً أكثر بساطة وحيوية من القصائد الكلاسيكية وفيها ما في الكلاسيكي من اغراض ملحمية وغنائية وهجائية ومدحية وغزلية ولشاعر القبيلة في مواطنه من التأثير ما للشاعر القديم فهو يتغنّى بالمآثر البطولية لهذا البطل الذي يعرفه الجميع آنذاك، ويعظم حياة الأولياء وخوارقهم ويتغزل بمفاتن حسناء من الحسنات ويصف مطيئته أو يذكر اعتزاز مستمعيه بعروبتهم في وجه الرومي البغيض. بل اننا نجد في العربية العامية حتى قصائد دينية وصوفية وإنه لمن الظلم أن نطوي في صمت مهين هذه الآثار التي عيبها الوحيد جهلها اللغة الكلاسيكية النبيلة. (1)

والى الشعر تضاف الحكايات التي العرب وخاصة في صباهم بها شغوفون. ونحن نعلم أن أحد كتب الادب العربي الأكثر شهرة ، ألف ليلة وليلة هو فعلاً مجموع حكايات اللغة العامية فيه تلوح بكل سطر (2) ويصعب ان ندرك

1- انظر ج.س. كولين العربية العامية بالمدرسة القومية للغات الشرقية الحية (بمناسبة إحياء الذكرى المئة والخمسين للمدرسة) باريس 1922).

2- ويمكن الاطلاع على الادب العامي في الكتب التالية: م. فخالي: حكايات وأساطير وتقاليد شعبية بلبنان وسوريا، باريس 1935. م. لنديج: أمثال أقليم سوريا وأقواله المأثورة 1883. ارتين باشا، حكايات شعبية غير منشورة من وادي النيل، باريس 1895 هناك: أغاني عربية من المغرب. 1902. م. بن شنب. أمثال العربية في الجزائر والمغرب العربي باريس 1905. 1907-س. بن شنب. حكايات الجزائر العاصمة. وهران 1946-د. لوجاي: رسالة في الفلكلور المغربي 1926- أ. سبيهي. وأ- درمنقام : حكايات فاسية باريس 1926 ونجد في كتاب ر: باسي. ألف حكاية وحكاية قصص واساطير عربية باريس 1924/1927 ثلاثة أجزاء وفي كتاب ر. باسي لقمان بريرا باريس 1890- قائمة من المراجع جد مفصلة. وجميع الابحاث في دراسات اللغة العامية تشمل بصورة عامة على نصوص فلكلورية ، بصفة أندر على نصوص تتعلق بعلم الاجناس. ويمكن الاطلاع على النتائج التي يمكن الحصول عليها بالرجوع الى اعمال و. مارسى: وبصفة أخص كتابه . نصوص عربية من طنجة، باريس 1911. حيث ينقل المؤلف نصوصاً ثرية فيها بطلب منه وتحت إشرافه: إخباريون مختارون.

الاحتقار الذي ينال العربية العامية حين نعرف أن وجودها يضع أحد المشاكل الأشوك التي على الكتاب^[55] المحدثين روائيين كانوا أو مسرحيين الذين همهم الحقيقة أن يحلوها. ومن المفيد فعلا أن نجعل الشخصيات يتكلمون لغة مطابقة لمنزلتهم الاجتماعية. ولئن أمكننا أن نقبل أن تتكلم النخبة بالعربية الفصحى فانه من الصعب أن نجعل خادما من الخدم يتكلم كما يتكلم أستاذ من الأزهر فالاتجاه الحالي هو الى المزج بين الفصحى والعامية وإنه لمن الطريف أن نلاحظ أن فرقا مصرية أثناء تنقلها تفرض على المتفرجين ألوانا من الحوار بعربية القاهرة هم لا يفهمونها في جميع الحالات . ولعل مستقبل العربية العامية يكمن من بعض الوجوه في تطور الرواية والمسرح والسنما والتلفزة والاذاعة - وهي تضاعف من الحصص باللسان الدارج. ولن يكون هذا الارتقاء الى صف اللغة الادبية⁽¹⁾ بالشار البسيط وأما الآن فانا نشهد نشأة لغة متوسطة، أو عربية وسطى تستعمل في المحادثة وتلصق في شيء من الاصطناعية مفردات عصرية على نحو وصرف ونظام صوتي كلها عامية.

1 - قد أثاره محاولة الشاعر اللبناني سعيد عقل وقد نشر أشعارا بالعامية اللبنانية وبحروف لاتينية ردود فعل عنيفة حتى بين المستشرقين والأغلب على الظن أنها لن تتجدد.

نشأة الادب العربي

(750.....)

لمحة تاريخية

إنَّ عصر الادب الأوَّل يشمل الجاهلية والفترة الموحَّدة وعهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الاموية، ولم يكن العرب قبل محمد (م 632) امة موحدة بل كانوا مجموعات من القبائل الحضرية والبدوية غالبا ما كانت في تنازع وما اوتيت من الحضارة الا قليلا ولم يكونوا يتصلون بالمعجم إلا نادرا ماعدا بشمال شبه الجزيرة حيث كان الفساسة واللمخيون يحرسون^[1] التخوم كل من جهته لفائدة القسطنطينية والمدائن.

وإنَّما بمكة ثم بالمدينة. وكانت الهجرة سنة 622 م. دعا محمد الى الاسلام وقد استطاع أن يخضع إلى عقيدة واحدة وأن يجمع حولها عددا كبيرا من القبائل أقام منها خلفاؤه دولة وقد أرسلت الجيوش الاسلامية. على عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي تغزو العالم: فما بين النهرين وفلسطين والشام ومصر صارت الى سلطان العرب.

ومنذ 661 انتهت الخلاقات الداخلية إلى تأسيس الخلافة الأموية التي اتخذت دمشق عاصمة لها واتبعت سياسة عربية وقد تم فتح افريقيا الشمالية واسبانيا غربا وفارس شرقا. غير أن الخصومات بين قبائل الجنوب وقبائل الشمال ببلاد العرب ، وثورات انصارعلي^[57] وانتفاضات الأقاليم المفتوحة أدت الى تدهور الخلافة وثار الفرس لأنفسهم ونصبوا العباسيين على العرش (750م-132هـ) .

ولقد عرف العرب خلال عامَّة هذه الفترة انقلابا اجتماعيا عميقا واتصلوا بحضارات أجنبية تأثروا بها في غير ماذويان فيها ، فالإسلام لا يزال بعد عربيا خالصا

أ: عرّفنا بهم بإيجاز ص 92.

قائمة مصادر ومرجع

عن تاريخ العرب وحضارتهم بصورة عامة ، انظر : م ثود فروادي منبين، العالم الاسلامي حتى الحروب الصليبية (الجزء 7 من تاريخ العالم) باريس 1931 ش دبال وج هارسي: العالم الشرقي من سنة 395 الى 1081 (ج 3 من التاريخ العام) باريس 1936. ف.م. باروخا دراسات اسلامية بيروت 1963، دوج سوردل: حضارة الاسلام الكلاسيكي باريس 1968 أ، ميكال: الاسلام وحضارته القرون XX-VII باريس 1968

اما بالنسبة الى العصر الجاهلي فان أ.ب. كوسين دي برسپال في بحثه عن تاريخ العرب قبل الاسلام (3 اجزاء باريس 1847-1848) قد جمع اخبار العرب ويمكننا ان ننظر كذلك في ب فارس : العرض عند العرب قبل الاسلام، باريس 1932 ، أ . جوسن : عادات العرب في بلاد المواب 1908 : ط 2 1948، هـ. لامنس : بلاد العرب الغربية قبيل الهجرة ، بيروت 1928 ، ثودفروادي منبين: الحج الى مكة، باريس 1923

ونذكر من بين سير محمد العديدة السّير التي ألفها ثودفروا دي منبين: محمد، ط 2 باريس 1969 م . حميد الله: نبي الاسلام ، باريس ، ثم ان م، رودنسون وهو نفسه مؤلف سيرة "محمد" باريس 1961 قد أحصى الدراسات المحمّدية في المجلة التاريخية عدد 229، 1963

أما في ما يخص الادب فيمكن الرجوع الى و. باسي ، "الشعر العربي الجاهلي" باريس 1880 ، ك . أ . ، نالينر " تاريخ الاداب العربيّة من الجاهلية حتى عصر بني أمية" الترجمة الفرنسية لش بلا. باريس 1950 [1] ر . بلاشير : "القرآن" باريس ط 2، 1959 (وهو يستعمل تاريخ القرآن لتولدكه وشولي، وبرقشسراسرو برتزل)، و . مارسى: " اصول النثر الادبي العربي " بالمجلة الافريقية 1927 ص ص 15-28 ، وطبيعة الحال تاريخ الادب العربي لر: بلاشير.

أ - الملاحظ أن هذا الكتاب، وهو يشتمل على المحاضرات التي ألقاها المستشرق الايطالي ، نالينر، بالجامعة المصرية في السنة الجامعية 1910-1911، قد نشر في لفته الأصلية أي العربية بدار المعارف بمصر سنة 1954 بإشراف ابنه ماريا

[58] النثر المسجع

تحتفظ الرواية بما يذكر بصورة قوية بوجود خطباء وكهّان كانوا يتكلمون سجعا وينتسب الكهّان إلى السحرة ويلهمهم شيطان أليف يتكلم بلسانهم وهم يستشارون في جميع شؤون القبيلة الهامة وتنسب إليهم قوة خارقة للعادة تجلب إليهم احترام أفراد قبيلتهم وقد نقلت إلينا بعض أجوبتهم وهي مبهمة شأن جميع أجوبة الآلهة غير أن الأغلب على الظن أن هذه النماذج من تكهّناتهم منحولة.

ولنا كذلك خطب عديدة منسوبة إلى خطباء جاهليين يستحيل أن نستفيد منها أدنى فائدة إذ هي، إن لم تكن مزيفة فهي، دون أدنى شك بعيدة كل البعد عن النصوص الأصلية غير أننا نعلم أن الخطيب يلعب دورا مماثلا لدور الشاعر منصبا نفسه الناطق باسم القبيلة في السفارات واللقاءات والأسواق متعهّدا كذلك بالتنويه في خطبه بالروح القبليّ عند أفراد جماعته ولنتذكّر فحسب ممّا سبق أن سكان شبه الجزيرة العربية بدوا كانوا أو حضرا كانوا متأثرين بالعاطفة الفنيّة التي تحدثها اللغة الأنيقة وبصفة خاصّة السجع وقد كان موجودا منذ عهد طويل جدا لما تلقى محمد الوحي: ولم يخطيء معاصروه فعلا في حقّه فاتهموه في مناسبات عديدة بكونه كاهنا من عامّة الكهّان، في حين اعتبر هو نفسه مرة واحدة على الأقلّ خطيبا. (أ)

أ - رُثما يمشور المزلف إلى قول الرسول «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيّين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم ولا فخر» انظر مثلا مسند أحمد بن حنبل / 137 - 138 ط 1 / 1389 / 1969 بيروت.

[59] "القرآن" (1)

إن هذا الكتاب المنزل، القرآن، يسيطر على سلوك جميع المسلمين ونشاطهم، فهو الذي تولدت عنه العلوم الدينية وطبع بطابعه اتجاه الأدب العربي إلا أن تأثيره المباشر في الأسلوب متنوع ودقيق فسرعان ما اعتبره المسلمون فعلا فوق الآثار البشرية معتمدين آيات كهذه (90/17): "قُلْ لئن اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا" وقد أعلن بعض معاصري محمد وبعد ذلك بعض الأعلام، مفتخرين بقدرتهم على محاكاته بل وعلى تجاوزه أن القرآن لم يكن فيه شيء فوق طاقة البشر وإن بعض الملحدين يعتبرون قد حاكوا الكتاب المقدس وقد بلغتنا بعض الفصول من هذه المحاكاة غير أن هذه الحالة هي الشاذة: فمجموع الأمة قد أخذ دائما بالقول بإعجاز النص القرآني فلم يكن من ثمة المصدر المباشر في نشأة النثر الأدبي أو النثر المسجع الذي سنواه يزدهر من جديد ابتداء من القرن X غير أنه يكون الحلقة الأساسية في السنة الأدبية ويفرض على الإسلام طرق تفكير تطابق روحه ويؤثر في الأسلوب لمجرد كونه يحفظ عن ظهر قلب، تأثيرا لا شعوريا وتكثر عند أغلب الكتاب آثار القرآن والمؤلفات التي يعود تاريخها إلى عصور الانحطاط قد تناثرت فيها آيات كاملة.

[60] إن محمدا وذلك مدة عشرين سنة تقريبا - إن بمكة أو بالمدينة، وقد

1 - أحدث الترجمات الفرنسية هي ترجمة بلاشير باريس 1949 - 1950 في 3 أجزاء وعنه نقنيس ترجمة الآيات المذكورة في هذا الكتاب وترجمة م. حميد الله باريس 1959 وترجمة د. ماصون باريس 1967. ويمكن كذلك مراجعة المحاولة الهامة لـم. الأر.وم. الزهار وج.ك. قنادين وقد هورس الموسومة بتحليل القرآن حسب المفاهيم باريس لاهاي 1963 والملاحظ أن أحدث ترجمة إلى الفرنسية هي ترجمة جاك. بارك. باريس 1990. وقد سبقتها ترجمة صدرت عن الدار الفرنسية للنشر (د.ت) من إعداد الصادق مازيغ ساهم فيها محمود بلعربي لطيفة القاندي والعفيف كشك.

نسخوا عددا من الفصول بما توفره لهم الصدفة من أدوات وبطريقة في الخط تستدعي على كل الاستعانة بالذاكرة. والواقع أن النص القرآني هو بالأحرى محفوظ كما يقول العرب في قلوب من شهدوا الوحي وقد غفل محمد عن مراجعته مراجعة عامة وهذا الإهمال يمكن تعليقه بطرق مختلفة وأقرب الأسباب إلى التصديق أن الرسول لم يشعر بالحاجة إلى أن يضبط ضبطا لا تغيير فيه نص القرآن ومعناه لأنه كان يعتقد أنه من الممكن الاطمئنان إلى ذاكرة قومه وفطنتهم. أضف إلى ذلك أنه لم يكن قطعاً يتصور الإشعاع الذي سيحظى به الدين الذي دعا إليه. على أن ذلك قد كان السبب في إحدى المشاكل الأشد إقلاقاً التي واجهت الضمير الإسلامي وفي حركة فكرية قوية تجاوزت، وذلك بالتأويل الرمزي، حتى إطار الإسلام الدقيق.

والحالة، عند موت الرسول (632)، يمكن أن تتلخص هكذا:

للمسلمين النص المنزل غير أنه لئن كانت بعض أجزائه مدونة فإن البقية محفوظة أجزاء كذلك في ذاكرة أقرب الصحابة. ومنذ السنة الموالية توفي كثير من المؤمنين في ساحة القتال فتبين القوم الخطر الذي يهدد سلامة الكتاب المقدس. وفي الأثر ما يؤكد أن عمر نصح إذاك الخليفة الأول أبا بكر باتخاذ إجراءات حتى يضمن الحفاظ على النص. فعلا فقد عهد إلى شاب مدني هو زيد بن ثابت بالقيام بجمع أول عام، فجمع ونسخ على "صحف"،

أ - معروف أنه قد اختلف في معنى أمية الرسول هل معناها كونه من الأميين أي من أمة غير أمة موسى؟ أم جهله بالكتب المقدسة السابقة له؟ أم جهله - وهذا الأشهر - بالقراءة والكتابة؟ ولزيادة التدقيق بحسن الرجوع مثلاً إلى كتاب الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع / العاشر تأليف عبيد المجيد الشرفي نشر الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1986 ص 470 - 474 والمراجع المذكورة بالتعليق 10 ص 472.

نجهل مادتها الأجزاء المكتوبة وكمّلها بفضل البحث لدى "حملة القرآن"، وقد قام بعض المؤمنين في نفس الوقت لفائدتهم بمهمة [61] مماثلة ولما كان جمع زيد ليس له طابع رسمي تعددت المجاميع والاختلافات التي تتّصف بها وخلقت حالة خطيرة كان يمكن أن تحدث فتناً.

وإنّ الخليفة الثالث، عثمان، هو الذي فحسب، وذلك استجابة منه في الآن نفسه لنداءات المسلمين المتبصرين وللمقتضيات السياسية، قد اتخذ القرار الخطير والضروري، قرار الأمر بإعداد نص رسمي، فقد نسخت لجنة تضمّ في من تضمّ زيد بن ثابت "صحائف" أبي بكر وأكملتها في هذه المرة أيضا بفصول نقلت شفويًا ووثقها شهود كثيرون. وقد تحرّى أعضاء اللّجنة غير أنّهم أبقوا على نقاط لبس عديدة ضاعف منها النقص في الخطّ. وقد أمر الخليفة بإتلاف سائر الأجزاء المدوّنة ولكننا نتبيّن أنّ في ذلك مطالبة المسلمين بخرق المقدّس ثم إنّهم عديدون الذين كانوا لا يزالون رغم الحروب يحفظون عن ظهر قلب على الأقلّ جزءا من القرآن مع اختلاف في الرواية بالنسبة إلى المدوّنة الرسميّة. غير أنّ النسخ عن الأصل التي أرسلت إلى أمصار الامبراطوريّة لم تثر إلا ردود فعل ظرفيّة ضعفت بمرور الزمن، وفي النهاية فإنّ المصحف العثمانيّ هو الذي سيسود بين الأمّة. وما كان أبعد مع ذلك عن الكمال، إذ هو، بصرف النظر عن القراءات الخاطئة التي كان قبلها، لم يكن يحترم البتّة الترتيب التاريخيّ - غير أنّنا نعرف أنّ مفهوم الزّمن غير مألوف لدى العرب - وكان يوفرّ لعدد كبير من الكلمات إمكانيات قراءة عديدة إذ أنّ الحروف كان يسهل الخلط بينها والحركات القصيرة لم تكن ترسم. وقد كان إذن عرضة لقراءات خاطئة أو لتحريفات تعود إلى اختلاف لهجات الحفاظ الذين عليهم في نهاية الأمر معرفة النصّ حفظا حتى يقرأوه قراءة صحيحة.

وإنّما في نهاية القرن VII فحسب تدخل أولو الأمر ليحسنوا المصحف

ويساعدوا على نشره وعطلوا بهذه الطريقة استعمال المجاميع الأخرى [62] التي كانت لا تزال متبعة فقومت مقاطع سقيمة عديدة ورُسمت الحركات القصيرة وأخضع الرسم للقواعد وحسن الخط وإنما إلى ذلك العهد يرجع تاريخ إعداد نسخة القرآن الشائعة حالياً.

غير أنه علينا أن نؤكد على أن توحيد النص لم يتم بصورة نهائية إذ أن تدخل السلط الأموية في أواخر القرن VII كان يقتصر على ضبط الحروف ضبطاً نهائياً وأن اعتماد النقط، الحركات، على أنه كان من الصعب على الأمة الإسلامية قبوله، لم يكن له تأثيرات آنية إذ أنه قد كان من المستحيل أن يفرض على مجموع العالم الإسلامي شكل موحد. نعم إن الحفاظ، وقد نشأت مهنتهم منذ عهود الإسلام الأولى، كان يمكنهم أن يتفقوا على قراءة موحدة غير أنهم كانوا يجدون في اختلافات الشكل الممكنة وسيلة لإظهار الاستقلال إزاء السلطة المركزية ولضمان الدوام لمهنتهم وقد هُددت باستعمال نظام في الرسم في متناول جميع المسلمين.

وهكذا فإن "القراءات" أو الروايات الفردية كانت قد تعددت أثناء القرن VII معتمدة جميعها على حديث صحته مشكوك فيها (أ) ولما كان من المستحيل التوفيق بين الاتجاهات المختلفة فقد قبل مبدأ تعدد القراءات غير أنه قد سعي إلى تحديد عددها بإجبار القراء على ألا يتبعوا إلا القراءات التي

أ - يشير المؤلف إلى حديث ورد في صيغ مختلفة ولكنها متقاربة مثل "أقراني جهيل عليه السلام على حرف فراجعته. فلم أزل أستزيد فمزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف" أو: "... إن الله يأمرك أن تقرأ أشكك القرآن على سبعة أحرف. فأبما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا" والملاحظ أن الكتب المتعلقة بقراءات القرآن عديدة جداً ولكننا نشير فحسب إلى "معجم القراءات القرآنية" (مع مقدمته في القراءات وأشهر القراء) إعداد أحمد مختار عمر وعبد العال سالم مكرم مطبوعات جامعة الكويت ط 1: 1984 / 1404.

يدعمها حديث صحيح. ثم إنّه في القرن VIII قد وقع الاختيار بين النظم المقترحة وضبطت ثلاث قوائم من أربع عشرة قراءة أو عشر وأخيرا سبع وقد سادت كل واحدة منها في هذه الناحية أو تلك من العالم الإسلامي^[أ].

ومنذ أن استعملت المطبعة وبفضل طبعة تمت سنة 1923 بإشراف الملك فؤاد الأول واعتمدت قراءة حفص^[ب] - وهي منتشرة في كامل بلاد الإسلام - فإن وحدة الأمة تبدو قد حصلت حول قراءة واحدة بحيث أن عمل التوحيد الذي شرع فيه في القرن VII هو هكذا قد تم.

[63] والمصحف حاليا مقسم إلى ستين جزءا (حزبا) معدة إلى التلاوة العامة وهذا التوزيع يشمل التقسيم إلى سور وآيات وهو يعود إلى الجمع الأول والسور باستثناء الأولى، وهي قصيرة جدا، مرتبة باعتبار طولها ترتيبا تنازليا وهكذا فإن الترتيب الزمني قد بعثر بعشرة تامة فالقاريء غير المطلع بحسب عدم انسجام هذا الجمع الاعتباري ولم يفكر المسلمون البتة في تحويل هذا الترتيب غير أن بعض المستشرقين قد سعوا إلى إعادة الترتيب الزمني بل إن ر. بلاشير^[ج] قد قدم إلى القراء الفرنسيين ترجمة رتب فيها السور حسب

أ - القراءات الأربع عشرة هي هذه حسب أصحابها ومواطنهم : 1 : نافع بن عبد الرحمن (م 169 / 785) بالمدينة 2 : ابن كثير (م 120 / 737) بمكة . 3 : أبو عمرو بن العلاء (م 154 / 770) بالبصرة 4 : عبد الله ابن عامر (م 178 / 736) بدمشق 5 : عاصم بن أبي المجرد (م 127 / 744) بالكوفة 6 : حمزة بن حبيب (م 156 / 772) بالكوفة . 7 : علي بن حمزة الكسائي (م 189 / 804) بالكوفة 8 : أبو جعفر المخزومي (م 130 / 747) بالمدينة 9 : يعقوب الحضرمي (م 205 / 820) بالبصرة . 10 : خلف بن هشام (م 229 - 843) بالكوفة 11 : ابن محيصن (م 123 / 740) بمكة 12 : يحيى بن المبارك التبريزي (م 202 / 817) ببغداد 13 : الحسن البصري (م 110 / 728) بالبصرة وأخيرا 14 : سليمان بن مهران الأعمش (765 / 148) والملاحظ أن معظمهم من مرالي القرن الثاني للهجرة.

ب - هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي (م 246 / 860) من بغداد وهو أول من جمع القراءات.

ج - نشرتها في جزأين دار ج.ب. ميزنآف بباريس سنتي 1949 و 1950 مع جزء أول مقدمة سنة 1947 وقد أضاف المؤلف إلى الترجمة تعليقات وشروحا لغوية معتمدا خاصة تفسير الطبري (311 / 923) والبيضاوي (691 / 1291) والنسفي (710 / 1310) والرازي (609 / 1209) والملاحظ أن بلاشير نشر كذلك ترجمته في صورة أخرى متبعا للترتيب الحالي للسور (دار ميزنآف باريس 1956) وقد سبق أن حاول مستشرقون آخرون إعادة ترتيب السور (انظر عن هذه المحاولات (مقدمة بلاشير ص 247 . 262)

تاريخ نزولها المرجح، ويمكن هكذا أن ندرك بصورة أوضح تطور الاهتمامات والأسلوب رغم أن أحسن ترجمة لا يمكنها أن تطمح إلى التعبير بجميع دقائقه عن الأثر الموسيقي الذي يحدثه نص يتجه خاصة إلى الأذن والقلب ولا يهز الفكر إلا قليلا فالقرآن فعلا شأنه شأن جميع الكتب المقدسة هو قبل كل شيء شعر يعتمد الإيقاع والقافية والسجع. لكن الأسلوب ليس على صورة واحدة ويمكن أن نتبين في القرآن أربع مراحل كبرى.

في سور المرحلة المكية الأولى «الآيات» وهي بصورة عامة قصيرة تكون غالبا مجموعات ذات قافية واحدة رثانة ثرية. والأسلوب قائم غالبا على الإضمار وهو دوما قوي خطابي، تتخلله وعود وأسئلة ملحة. وكثيرا ما تعود عبارات وصور رتابتها تؤثر بملازمتها في السامع " (ر. بلاشير) وفي السور الأولى القصد الأساسي هو الوعظ، فالنداءات إلى العمل بالأخلاق الدينية تتبعها أحاديث عن يوم القيامة ثم تبدأ مقاومة الإشراك.

وخلال المرحلة المكية الثانية فإن عناصر الدين الجديد الأساسية تتبلور ووعيد العصاة يتكاثر. "فأسلوب هذه [64] السور يختلف اختلافا بينا عن أسلوب ما سبق من وحي فاللهجة المتحمسة اللاهثة قد سكنت والآيات قد امتدت شيئا فشيئا غير أنها بصورة عامة لم تنفك تحسن مجموعات إيقاعية" (ر. بلاشير).

والمرحلة المكية الثالثة هي استعادة للمعاني السابقة عن وحدانية الله ورحمته وقدرته وعلمه "وفي الجملة فإن الآيات تنزع إلى الامتداد والقلّة في "العدد" والخروج عن الوزن .. فاللغة أقلّ إيجازا ونسبة الغموض وغير المعهود فيها أضعف (ر. بلاشير)

وبعد الهجرة (622م) فإن محمدا، وقد كان إلى هذا الحين "نذيرا"، أصبح بالمدينة رئيس الأمة الخاضعة إلى الدين الجديد وإلى هذا العهد يعود تاريخ

النصوص التي ستعتمد لتنظيم القضاء. والسور تحمل صدى عن النزاعات التي قامت بين الرسول وأعداء الإسلام. غير أن بعض الفقر الخطابية قد بقيت إلا أن الآيات غير الموقعة طويلة جداً وخالية من القيمة الأدبية. فاللغة في كثير من الأحيان لغة فقهية.

العلوم الدينية

ان العلم الديني الأساسي هو علم الحديث^[أ] وغايته أن يجمع ويرتب ويخضع إلى نقد خارجي جميع الأحاديث المتعلقة بأقوال الرسول وأعماله وحركاته وسكناته وقد قام العلماء في قرون الإسلام الأولى برحلات " لطلب العلم" ونعني طلب الأحاديث النبوية التي تعتبر ضرورية لشرح القرآن وإتمامه وحل متناقضاته وقد تمثل هذا النشاط في بداية الأمر في تعليم شفوي ينقل الأئمة من خلاله إلى تلاميذهم نقلاً أميناً ما جمعه من أحاديث وفي القرن VIII ظهرت مؤلفات مفردة ثم في القرن الموالي المسندات الأولى وهي مجموعات من الأحاديث مرتبة باسم [65] الراوي الأسبق. ومسند ابن حنبل (855م) وهو في ستة مجلدات، أشهرها وهذه المسانيد ستعوضها بعد فترة قصيرة المصنفات حيث رتب المادة حسب محاور خاصة: الصلاة، الحج، الجهاد، وهلم جرا وإلى هذا العهد يرجع تاريخ المجموعين اللذين هما حجة: مجموع البخاري (870م) (1) ومجموع مسلم (874م) وأربعة مجاميع أخرى وهي أكثر تجريداً بمعنى أنها تتخلّى عن الجزئيات التاريخية وخاصة الروايات

أ - الملاحظ أن وينسليك شرع سنة 1933 في فهرسة الفاظ الحديث النهري ثم ساعده مهنسنيق كما ساهم في هذا العمل بعد موت وينسليك، مهنسنيق هاس وبيان لون وعبد الباقي ودي برون وتم العمل بعنوان المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النهري عن الكتب الستة [أبي داود مسلم النسائي الترمذي ابن ماجة والبخاري] وعن مسند الدارمي ومرطاً مالك ومسند أحمد بن حنبل. ونشير إلى أن دار الدعوة باستانبول ودار سحنون بقرنيس قد أعادتا سنة 1987 نشر هذا المعجم كما نشرنا الكتب المعنفة وهما طبعاً يسهل استعمال المعجم .

1 - ترجمة إلى الفرنسية هوداس ومارسي، الأحاديث الإسلامية 4 مجلدات باريس 1903 - 1914 مختار الأحاديث. ه. بوسكي. صحيح السنة الإسلامية باريس 1964.

المتعلقة بسيرة الرسول، وقد اعتبرت منذ ذلك الحين علما مستقلا . وقد أضيفت إلى الإثنين الأساسيين واعتبرت أيضا صحاحا وقد ألفها أبو داود (888م) والترمذي (892م) وابن ماجه (886م) والنسائي (915م). وهذه المجاميع، وقد جاءت في عصر أخذ فيه الإسلام صورته النهائية واستقر، ستكون منطلقا لكل النشاط في العصور اللاحقة وفي القرن X بدأ في جميع الميادين عصر الشروح والمؤلفات المعدة للتدريس والمختصرات فالدارقطني (995م) (أ) ألف مجموعا جديدا وأعمل فكره النقدي في مجموع البخاري ومسلم وقد أخذ البيهقي (ب) حوالي (1122م) عن الكتب السبعة الأساسية مادة مجموع جديد رُتبت فيه الاحاديث في كل باب على ثلاثة أصناف الصحيح والحسن والمشكوك فيه، ولم تكن أعمال العصور اللاحقة إلا تحويرات وتفسير واختيارات ومختصرات لا تغير ولا تثرى المادة السابقة (1).

والحديث سيكون، بصفة جد طبيعية، مع القرآن أساس الأدب الفقهي ولا يسعنا على أكثر تقدير إلا أن نذكره هنا وسيتولد عنه تفسير القرآن.

فالكلام الإلهي ليس دائما واضحا والإشارات [66] التي يزخر بها القرآن تحير المسلمين المتعطشين إلى تفسير كل شيء. وقد اتجه القوم في البداية إلى محمد فكان أول مفسري الكتاب المقدس وشعر بعده صحابته الأقربون أنهم مؤهلون لأن أن يفسروا بدورهم ما غمض من النص وقد اعتبر ابن عم الرسول ابن عباس، (ج) إمام هذا العلم الجديد الذي يرمي إلى حل جميع

أ - الدارقطني (918 / 306) له كتاب السنن (نشر بداهلي 1306 / 1889 و 1310 / 1892)

ب - البيهقي: 112 / 516 (أو 1117 / 510) له كتاب مصابيح السنة (أو الدجى) نشر ببغداد سنة 1294 / 1877 ، بالقاهرة سنة 1318 / 1900.

1 - خاصة القوي (1233 - 1277) وكتابه الأربعون حديثا نشره وترجمه : ه . بيرز الجزائر 1950 (وقد طبع طبعات عديدة)

ج - المقصود عبد الله بن العباس بن عبد المطلب المتوفى بعيد 68 هـ / 688م) نشر تفسير ابن عباس "تنوير المقباس على هامش الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي بغداد 1377 - 1957)

مشاكل التفسير غير أنه بقي تقليدياً محضاً عند أهل السنة وعلى التفسير فعلاً لكي يخضع إلى مبدأ الحجّة، أن يعتمد على حديث يرفع إلى الرسول.

والى جانب المفسرين الرسميين، إنَّ صَحَّ التعبير، ظهر منذ عهد مبكر مفسرون شعبيون زخرفوا كما شاءوا محتوى القرآن واعتمدوا جميع انواع الأساطير الأجنبية وأغلبها يهودية ومسيحية وقد حاولت السلط جاهدة أن تقاوم تدخل هؤلاء القصاص في تأويل القرآن غير أنها بلغت في عناء تلك الغاية لما لهؤلاء من تأثير واضح في نفوس العوام.

ولم نحتفظ بصورة مباشرة بأى شيء من التفاسير الأولى على أنها أساساً شفوياً تنقلت تلميذاً عن شيخ غير أن كل هذا التبخر في التفسير قد جمع في أول وأبرع مجموع ونحن مدينون به إلى كاتب هو أيضاً مؤلف أول تاريخ عالمي هام أعني الطبري (922م) (أ).

والمفسر يجد نفسه أمام ثلاث مجموعات من الحالات: فهناك صعوبات من حيث اللغة وهي من ميدان النحاة وهناك مقاطع غامضة يمكن أن توضح بفضل تفاسير تقليدية ثم هناك مقاطع لا يعلم تأويلها إلا الله وحده والطبري وهو يتبع القرآن كلمة كلمة، يجمع جنباً إلى جنب جميع الشروح اللغوية والتاريخية والفقهية التي تناقلتها الرواية ويستعملها بالإسناد دون أن يهتم بالتوفيق بين الروايات المختلفة أو يفضل إحداها ونطاق النفوذ البشري هو في هذا الميدان، والحق يقال، قد ضيقه تضيقاً شديداً [67] حديث نبوي يرسم الطريق الواجب اتباعه: "من تكلم في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". ويمقتضى هذا الحديث فإن مبدأ تعدد التفاسير هو، ضرورة، مقبول.

أ - تفسير محمد بن جرير الطبري (م 310 / 922) لو قد طبع تفسير جامع البيان في تفسير القرآن طبعات مختلفة لعل أفضلها بتحقيق محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر دار المعارف بالقاهرة 1964

والتفسير السنّي في العصور اللاحقة هو بنسبة كبيرة مدين لتفسير الطبري الضخم دون أن يكون مجرد إعادة له وفعلًا فإن الحركة العقلية في القرن IX حركة الاعتزال، كانت قبل الطبري قد قدّمت تأويلها الخاص وكان يتميز عن التفسير السنّي في تأويل الآيات المتعلقة بالتشبيه. فقد كان يحسن، حسب المعتزلة، رفض التفسير الحسي لجميع المقاطع التي يقدم فيها الله حسب تصوّرات تجسيمية وفهمها على أن لها فحسب قيمة مجازية.

وهذه الحركة العقلية قد أخذها منذ منتصف القرن IX خلفاء المأمون وقد رجعوا إلى السنّة الخالصة، غير أنهم لم يمنعوا آراء المعتزلة من الثبوت والبروز في تفسير كبير للفقهاء واللفوي الزمخشري (1144م)^[أ] وهو بالإضافة إلى ذلك قد اعتنى عناية كبيرة بإبراز دقائق النصّ البلاغية ويمثّل فخر الدين الرازي (1209م)^[ب] الاتجاه المعاكس فهو يضمن تفسيره مباحث لا صلة لها بالبتة بالتفسير وقد كان تفسير الزمخشري وقد جرد من بقايا الاعتزال، أساس تفسير البيضاوي (1291م)^[ج] وهو اليوم حجة كما هو الشأن بالنسبة إلى تفسير الجلالين^[د] وقد أعطاه صورته النهائية الكاتب الجامع الشهير السيوطي (1505م). وفي أيامنا هذه حاول بعض المفسرين أن يجددوا تفاسير قديمة وإذا استثنينا تفاسير الكواكبي (1849-1903) ومحمد

أ - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل طبع عدة مرات منها طبعة بولاق بالقاهرة 1307 / 1889.

ب - مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير طبع عدة مرات منها طبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة د.ت. أو طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد بالقاهرة سنة 1932

ج - أنوار التنزيل وأسوار التأويل طبع مرات منها طبعة القاهرة (عيسى الباهي الحلبي) 1939

د - تفسير جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي مثلاً طبعة القاهرة 1927. وللسيوطي الدر المنثور في التفسير بالمأثور مثلاً طبعة طهرن 1377 / 1957.

عبد (1849 - 1905) ورشيد رضا (1) (1935م) فإن أبرزها هو تفسير طنطاوي جوهري (1870 - 1941) [أ] فإنه وهو يريد أن يجد في القرآن جملة المعارف البشرية و [68] ذكر الاكتشافات الحديثة العظيمة كثيرا ما يفرق في ما يجلب السخرية.

ويحسن بنا أن نشير على هامش السنة المحض، وذلك على سبيل الذكر، إلى التفاسير الصوفية وهي تعتمد تأويل القرآن تأويلا رمزيا مثل تفسير ابن العربي (1165-1250) (ب) وتفسير الشيعة وغايتها أن تجد في الكتاب المقدس النصوص الشاهدة بأفضلية علي رغم أنه لم يذكر فيه البتة وأشهرها تفسير القمي (القرن X) (ج) والقاشاني (1679م) (د)

الشعر

الشعر الجاهلي:

الشاعر عند العرب القدامى شخص منزلته تفوق منزلة البشر عموما. وهو ملهم يترجم عن شيطان وهو، لهذا، كائن ممتاز هو في الآن نفسه ضروري ومخشي الجانب له قوة سحرية حرمها الآخرون وعليه خاصة أن يحمي عرض بني قبيلته ويخلد بلاءهم ويشازك في المعارك راشقا العدو بسهام شعرية لها قوة خارقة للعادة.

1 - انظر: ج. جومبي: تفسير المنار باريس 1954.

أ - الجواهر في تفسير القرآن طبع بالقاهرة سنة 1349 - 1930

ب - أشار ابن العربي في كتابه الفتوحات المكية إلى أنه فسّر القرآن وقد نشر باسمه كتاب تفسير القرآن الكريم "تدار الأندلس بيروت ص 2 - 1978 وهذا التفسير مشكوك في نسبته إلى ابن العربي وانظر عن مؤلفاته : فهرست مؤلفات ابن عربي (كلذا) نشرها أبو العلاء عفيفي مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية عام 1954 وكركيس عواد مجلة المجمع العلمي العربي دمشق بالمجلدين 39 - 40 (1954 - 1955).

ج - تفسير أبي الحسن علي بن ابراهيم القمي طبع مثلا طبعة حجرية بظهران 1311 - 1313 / 1893 - 1895.

د - القاشاني: لم تنهين تفسيره.

فتمجيد القبيلة وهجاء العدو هما مهمتا الشاعر القديم ولكن هذه النظرة تطورت تطوراً ملحوظاً عبر العصور فإن الشعر، وإن كانت القوة السحرية لا تزال تلمس في الهجاء وإن كانت بعض الابيات لا تزال تشير إلى ما اعتاده الناس، قد اتخذ في جملته قيمة أعم، فقد جرد من محتواه الخارق للعادة ليصبح طريقة تعبير تبعث شعوراً جمالياً ويضمن للشاعر لا فحسب كما كان الحال من قبل احتراماً يكاد يكون مقدساً ولكن خاصة موارد ذات قيمة.

[69] إن ما وصلنا من إنتاج العهد الجاهلي يدلّ دلالة واضحة على أن العرب هم من أكثر الأمم نظاماً للشعر إلا أننا لا نملك شعراً يعود عهده إلى ما قبل نهاية القرن V والعلماء المسلمون وهم لا يتجرأون على التعميم بقدرون للشعر مدة قرن ونصف تقريباً قبل الإسلام^[أ]. وهذا التقدير التقريبي وهو من المعقول إذا ما اقتصرنا على ما بقي من الشعر، يتبين غلظه بمجرد الشروع في دراسة أقدم النماذج لأن هذه الأخيرة هي بعد نتيجة تطور طويل العهد وهي بصياغتها الرفيعة ثمرة صناعة طويلة، ثمرة سنة شعرية حقيقية.

وما نعرف من الشعر القديم ينسب إلى شعراء عديدين جداً من شمال بلاد العرب غير أن شخصيتهم أبعد من أن تكون واضحة المعالم وعناصر ترجمتهم طابعها الاسطوريّ ظاهر بالنسبة إلى أغلبهم وذلك أنه يوجد في الواقع فاصل من قرون عديدة بين العهد الذي يُظن أن هذه القصائد قد نظمت فيه والعهد الذي جمعت فيه ودوّنت. وقد كان نقلها خاصة عن طريق الرواية من جيل إلى جيل عن طريق حفاظ إلى أن شرع مؤلفو المعجمات الكوفيون والبصريون بتصيّدون، في حماسة، الأشعار القديمة غايتهم الوحيدة من ذلك جمع اللغة

أ - الأغلب أن هذا التقدير مبني على قول الجاحظ الحيوان I / 74 "فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالاسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائة عام".

العربية القديمة والصواب أن مثل ذلك النشاط كان يستجيب أيضا لمشاغل سياسية إذ قد كان أن الأوان ليبين للعجم وخاصة للفرس أن العرب كان لهم أدب شعري زاهر وأنه كان لذلك يمكنهم أن يقبلوا في موكب الأمم المتحضرة وهكذا فإن المسلمين، والواجب أن يبدأ التاريخ عندهم مع محمد، قد أحيوا الماضي وتوصلوا من ثمة إلى أن يعتبروا الشعر الجاهلي المثل الأعلى والإجلال الذي أحيطت به هذه الآثار في العصور القديمة بلغ إلى حد أن عددا من مخطوطات الأشعار القديمة قد ضبطت، شأنها كما هو الشأن تماما بالنسبة إلى القرآن، جميع حركاتها وأنه من الصعب على النقد الحديث أن يشك في صحتها.

[70] غير أنه ليس من الضروري أن يكون للمرء فكر نقدي جد متوقد ليتبين أن هذا الشعر، كما وصلنا بعد قرون من الرواية الشفوية وبعد الأجيال المتعاقبة من العلماء الذين ساهموا في العناية به، لم يعد يطابق مطابقة تامة الآثار الأصلية ويمكننا في أحسن الحالات وبدون أن نرفض الكل رفضا مطلقا أن نتصور أن عددا من القصائد قد نسبت خطأ أو تزويرا إلى شعراء مداحين غرباء عن نظمها وأن أبياتا قد نقلت من مكانها أو حذفت بل وأضيفت وإن بعض الرواة، استجابة منهم إلى رغبة اللغويين المتزايدة، قد قدموا قطعاً منحولة. فأسباب شكنا إذن عديدة حتى ولو لم نذكر إمكانية تحوير مقصود للتوفيق بين لغة الشعر ولغة القرآن.

ولكن المشكل من ثمة وهو بعد محير يصح لا حل له لأن المغالاة في النقد تصل إلى النفي التام وإن موقفا في مثل هذه الصرامة قد وقفه سنة 1926 ناقد مصري هو طه حسين وقد رفض، وهو يعتمد حججا مغرية، كل الشعر الذي سبق القرن VIII وقد احدثت نظريته ضجة في جميع أنحاء العالم

العربيّ ويجب أن نعتزف أنها كانت جرئة وسابقة لأوانها(أ) ومنذ ذلك الحين فإنّ النفوس قد هدأت والحديث عن صحّة الشعر الجاهلي يجري في صفاء ذهن أكبر وحذر أشد(ب) ويحسن في آخر الأمر أن نعتقد أن قسما على الأقلّ من هذا الإنتاج صحيح وأن الناحلين كانوا بصورة عامّة على درجة لا بأس بها من الفطنة ليتبعوا السنّة.

ومع ذلك فإنّ علماء القرن VII والعصور اللاحقة وإن كان ميلهم إلى نقد الشعر نقدا دقيقا درجته ضعيفة فإنهم قد آل بهم الأمر إلى الاختيار وفرض ذوقهم وقد جعلت فرصة فريدة أحد مشاهير أصحاب المختارات يكون في الآن نفسه أقلّ تحرّجا أعني حماد الرواية (نحو 776م) فقد كان هذا الشخص الأعجميّ الأصل حجة في ميدان الشعر القديم وإنه هو الذي جمع القصائد السبع[71] الأشهر في العهد الجاهليّ أي المعلقة وهي تحظى إلى أيّامنا هذه بشهرة لا تتغيّر. ولا نعرف المعنى الدقيق الذي كان يعطيه صاحب المختارات لكلمة «معلقة» وهي تعني حسب التعبير العاديّ معلقة وكما هو الشأن دائما في مثل هذه الحالة لم يتخلف القوم عن أن يلقّوا صورة خياليّة لشرحها وقد ذهب الأمر ببعضهم إلى أن يتصوّروا أن هذه القصائد كانت قد علّقت بمعبد مكّة أي الكعبة وهذه الاسطورة، وقد أصبحت حدثا تاريخيا لا

أ - الملاحظ أن طه حسين نشر سنة 1926 الكتاب المقصود بعنوان في الشعر الجاهلي ثم حوره بالحذف والزيادة وأعاد نشره سنة 1927 بعنوان في الأدب الجاهلي. كما نلاحظ للتاريخ أن المستشرق د.س. مرقلهوث قد كان نشر بالانجليزية سنة 1925 فصلا بعنوان أصول الشعر العربي تعرّض فيه أساسا إلى مشكلة الشكل في الشعر الجاهلي وقد عرّبه في كتاب يحيى الجبروي ط 1 بيروت 1398 / 1978.

ب - لعلّ من أتم الدراسات في هذا الشأن كتاب ناصر الدين الأسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (دار المعارف مصر 1962) (وهو بحث نال به مؤلفه درجة الدكتوراه في الأدب من جامعة القاهرة سنة 1955) وكذلك خلاصة (بلاشير عن هذه القضية في الجزء الأول من كتاب تاريخ الأدب العربي).

نزاع فيه، قد تضحمت وانتقلت إلى أوربا حيث قُبلت بدون تمحيص.

وأصحاب المعلقة السبع هم: امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني والاعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة وقد أضاف بعض أصحاب المختارات اللاحقون اثنتين هما معلقة الحارث بن حلزة ومعلقة عنتر (1).

«فأصحاب هذه القصائد القديمة يصوغون بعض الأحكام إلا أنهم قليلا ما يفكرون ويستنتجون ونفوسهم تفضل أن تتدفق في انفجارات متتابعة من الصور والحكم وصيحات الحب أو الغضب تمتزج فيها اللطافة والخشونة والرقّة والشدة. وتوجه فيها تناسق الكلمات جمالية خاصة مبدؤها الأساسي الإيجاز ومثل الشاعر الأعلى أن يكون كل بيت من شعره، وهو يفرض نفسه بالدقة الفائقة وإيجاز العبارة، يسير في الأفاق من قافلة إلى قافلة ويصبح كالمثل عند أبناء جنسه ولغته غير أن الغرابة ليست منعدمة في هذه القصائد التي جاءت كأنها مسكوكة سكا وهناك ميزة خاصة من ميزات اللغة قد ساهمت في هذا العنصر الأساسي في كل شعر: فقرة الحرف في العربية تبلغ حدا لا شيء معه يخفي أصل الكلمات عمن يتكلم وعمن إليه يستمعون ولهذا فإن اللفظ يوحى دائما في هذه اللغة بكامل المادة [72] المتصلة به بل لعل الشعور العميق بالمادة يغلب فيها الشعور بالكلمة فالمادة العربية هي إذن قيثارة لا نمس فيها وترا دون أن نحرك سائر الأوتار. وكل كلمة، زيادة على وقعها

1- توجد ترجمة المعلقة في كتاب كوسين دي برسيال: بحث في تاريخ العرب، ج. II ص 326-536 وفي صفحات أخرى وكذلك في كتاب: ل. ماشريال: مؤلفون عرب ص 38-86 (وأحدث ترجمة فرنسية للمعلقة هي ترجمة جاك بارك: باريس 1979 ومعروف أن المعلقة قد بلغت عشرين إضافة قصيدة لعبيد بن الأبرص وشرحت شروحا مختلفة من أهمها وأشهرها: شرح المعلقة السبع للزوزني (م 486 / 1093) وقد طبع مركات عديدة طبعات ضعيفة مثلا طبعة المطبعة التجارية القاهرة 1938 وشرح القصائد العشر للبريزي (م 502 / 1109) طبعة حسنة بعناية ش. لبال (كلكتا 1894) والطبعة المتداولة طبعة دار الجيل بيروت د.ت. ثم شرح القصائد السبع الطرال الجاهليات للأثري (م 328 / 939) وقد حققه ونشره عبد السلام محمد هارون دار المعارف القاهرة سنة 1963).

الخاص، تشير النغمات المنسجمة الخفية المتميزة بها الكلمات الموحدة المادة. فإنها، وهي تتجاوز حدود معناها المباشر، تبعث في أعماق النفس موكبا كاملا من المشاعر والصّور (و. مارسى).»

فهذا الشّعر الذى يشعرنا عن طريق الكلمات بالأشكال والألوان شعر واقعي بمعنى أنّه يصوّر الحياة الخارجيّة إلا أنّه ضعيف من حيث المشاعر الخياليّة والصّور الموحية والأفكار ولا يهزّ الشّعور. وهو يطرق معاني هي بعدُ جدّ متّوعة: معاني الغزل، على أنّها تقليديّة، وهي تتمثّل في وصف الحبيبة وآثار المنازل المهجورة وفي التعبير عن الشّوق الذي يشيره رحيل الحبيب وبهيجته حنين الإبل وسجع الحمام ولمسات النسيم ثم معاني الوصف وهي مأخوذة من الطّبيعة المحيطة بالشّاعر وتحتلّ فيها الإبل المكانة الأولى ثم الخيل والحيوانات المفترسة والطيور والحشرات والنباتات والسّماء والسّحب والمطر ثم معاني الثناء ويفرضها المدح فالشّاعر يبرز خصال الممدوح: فطنته، جوده، عدله، شجاعته وجماله الخلقى وهذا المدح إذا ما وُجّه إلى القوم أو القبيلة كثيرا ما ينقلب إلى فخر الشّاعر بنفسه ثم معاني الرثاء والمرائي تعداد لمناقب الميت وتعبير عمّا يتركه من أسى وخواطر بديهيّة عن طبع الحياة الدّنيا الزائل العابر ثم معاني الهجاء والهجاء على العكس من ذلك تعداد لمثالب الخصم فردا كان أو جماعة والشّاعر يأبى أن ينسب إليه أدنى فضيلة.

هذه هي أهمّ خصائص هذا الشّعر حيث يغلب تأمل الصّحراء وما يعمرها من كائنات وأشياء غير أنّه يحسن، إذ أنّ هذه القصائد ستكون كذلك الانموذج الذى سيحتذيه تقريبا جميع [73] ناظمي الشّعر من العرب، أن ندرس بأقلّ سرعة المقطوعات التى تحظى بأوسع شهرة ويبدو من الأفضل أن نقتصر من بين جميع أنواع التصنيف الممكنة على صنفين كبيرين من الشّعراء البدو والحضر وبينهما بعض الفوارق.

شعراء البدو

على حدود الحياة البدوية وحياة التوحش يتنزل شاعران من القرن VI فقيران وقاطعا طريق صعلوكان كانا يعيشان حياة حرة منعزلة باحثين عن قوتهما في الصيد والسرقة: هما تأبط شرا والشنفرى وقد افتخر هذا الأخير، في قصيدة شهيرة (1) لكنها على الأغلب منتحلة، بانفصاله عن قبيلته واعتز باصطحاب الوحوش.

وأغلب أصحاب المعلقات هم أيضا من البدو إلا أنهم ليسوا من الصعاليك ويعتبر امرؤ القيس من أعطى المقدمة الغزلية صورتها النهائية إذ استوقف رفيقين خياليين للبكاء على أطلال منزل حبيبته [من الطويل]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وهو، في 31 بيتا، يذكر بسالف لذاته في عبارات هي أحيانا كثيرة منافية للحياء ويذكر سراه في واد تعوي به الذئاب ويصف راحلته ويقصّ مشاهد صيده وتنتهي القصيدة بوصف [74] العاصفة والمطر.

وإنه من الغريب أن يكون أصحاب المختارات قد اختاروا هذه القصيدة والنقص فيها واضح لجعلوها في عداد المعلقات لكن لم يأبه لذلك أحد. وتنسب أيضا إلى امرئ القيس مفاخرات شعرية كان يخرج منها دائما منتصرا وقصائد أخرى يصف فيها ناقته وفرسه والمطر ويهجو أعداءه ويوجّه المدائح إلى رؤساء القبائل الذين حموه (أ)

1- ترجمها إلى الفرنسية: فرينال في المجلة الآسيوية سنة 1834. (يقصد المؤلف طبعها القصيدة المعروفة بلامية العرب) ومطلعها (من الطويل)

أقيموا بني أمي صدور مطيكم xx فإني إلى قوم سواكم لأميل

وديهان الشنفرى جمعه وحققه وشرحه أميل بدیع يعقوب ونشرته دار الكتاب العربي بيروت سنة 1411 / 1992

أ - طبع ديوانه طبعات عديدة لعل أحسنها طبعة محمد أبي الفضل إبراهيم: دار المعارف بمصر 1377 - 1918.

أما معلقة الحارث بن حلزة ومعلقة عمرو بن كلثوم (أ) فقد نظمتا لغاية سياسية للقضاء على تخاصم القبيلتين وأغلب الأبيات قد خصّصت للغرض الأساسي.

أما عنتره، وقد أصبح بلاؤه في الحروب أسطورياً، فإنه على العكس من ذلك يتغنّى في معلقته ببطولاته وشجاعته الشخصية. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ قسماً من ديوانه (ب) قد ألهمته إياه الحرب الشهيرة الناجمة عن تنافس حصان وفرس: داحس والغبراء.

ويتميّز زهير (ج) بدماثة أخلاقه وهي تظهر في معلقته حيث تكثّر الأبيات الحكمية ونجد أيضاً حكماً ومواعظ في معلقة لبّيد (د) وقد أسلم وتأثر بالدين الجديد وهناك شاعر آخر شهير من هذه الطبقة هو حاتم الطائي (هـ) على أنه لم يكن يعدّ من بين أصحاب المعلقات. وأشعاره في جملتها قد خصّصت للتغنّي بالكرم والعفة وهذا الشاعر، وشخصيته أليفة جداً يجسّم الفضيلة الأساسية التي يعتزّ بها العرب أعني الكرم.

والى جانب هؤلاء الشعراء البدو علينا بدون شك ألاّ نهمل ذكر بعض النساء اللواتي برزن خاصة في الرثاء، ومن بين عدد الشواعر المقارب للستين اللاتي أمكن إحصاؤهن، فأشهرهنّ الخنساء (و) وهي تعبّر بطريقة رتيبة

أ - نشر شعره بمجلة المشرق سنة 1922 المستشرق كرنكو ثمّ "صنعه" علي أبر زيد ونشرته دار سعد الدين بدمشق 1412 / 1991 ونشره كذلك النادي الأدبي الثقافي بجده 1413 / 1992 بتحقيق أيمن ميدان

ب - طبع طبعات عديدة متفاوتة الدقة منها طبعات بيروت سنة 1888، سنة 1901 وسنة 1958.

ج - طبع ديوانه طبعات عديدة لعلّ أهمّها طبعه دار الكتب المصرية 1363 / 1944 "شرح ديوان زهير بن أبي سلمى" صنعة ثعلب وقد أعادت هذه الطبعة الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة سنة 1384 / 1964.

د - طبع ديوانه طبعات عديدة خاصة من قبل المستشرقين والطبعة المتداولة الآن هي: جبهة بتحقيق احسان عباس بسلسلة التراث العربي بالكويت سنة 1962

هـ - طبع ديوانه طبعات عديدة آخرها وأهمّها طبعه عادل سليمان جمال ط 2 دار سحنون للنشر تونس 1990.

و - طبع ديوانها طبعات عديدة ومتفاوتة القيمة ولعلّ أهمّها "ديوان الخنساء بشرح ثعلب" حققه أنور أبر سويلم ونشرته دار عمّار للنشر والتوزيع عمّان الأردن ط1: 1409 / 1988.

لتكرارها نفس المعاني عما بعثه في نفسها من يأس خائق موت أخويها وقد قتلا
وهما يقاتلان.

[75] شعراء الحضر

يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه لئن كان كبار الشعراء الجاهليين أغلبهم من
البدو وهذا أمر جدّ معقول إذ أن أكبر قسم من السكّان كانوا بدوا وأنّ اللغويين
قد فضّلوا في جمعهم آثارا بدويّة فإنّ المدن كان لها أيضا شعراء هم، دون أن
يتميّزوا عن أمثالهم من البدو تميّزا أساسيا لهم على كلّ بعض الميزات الخاصّة.

وقد جلبت بلاطات الأمراء اللخميّين والفساسنة(أ) بصورة طبيعيّة جدّا نظامين
قد تأثّروا بالحياة الحضريّة والمدائح التي يوجّهونها إلى الملوك هي تملق متملقين
والفخر، وهو أحيانا لا يزال متأثرا بالشعر البدوي، أقلّ مغالاة. (ب)

وإنّ الأوصاف خاصّة مختلفة في الجزئيّات إذ أنّه لم يعد تأمل الصحراء هو
الغالب بل تغلبت المعاني المقتبسة من الحياة في المدن وينتمي اثنان من
أصحاب المعلقات إلى هذه الطبقة: طرفة (1) على أنه قد وصف ناقته وصفا
شهيرا وكان يعيش ضمن حاشية ملك الحيرة اللخمي، الذي انتقم من سخريّته به

أ - الفساسنة نسبة إلى ماء بالشام يقال له غسّان وقد كانت الأزديّة من بلاد اليمن قد هاجرت واستقرت به بعد انكسار سدّ
مأرب وسوّا أزد غسّان وأقاموا دولة سميت دولة الفساسنة استمرّ حكمها إلى سنة 636 / 13 لما انتصر عليهم المسلمون
بقيادة خالد بن الوليد في موقعة اليرموك. وجدّ هذه الأسرة جفنة بن عمرو وقد ولاء الروم ملكا عليّ عرب الشام وقوّت خلفاء
لمقاومة المناذرة بالحيرة. وآخر ملوك الفساسنة جيلة بن الأهم وقد أسلم إثر موقعة اليرموك ثم ارتدّ والأهم بالنسبة إلى تاريخ
الأدب العربي أن الفساسنة قد جلبوا العديد من الشعراء إلى بلاطهم وأغدقوا عليهم نعمهم فأغنوا بذلك الشعر

اللخميّين: نسبة إلى لخم مالك بن عدي بن الحارث من كهلان من قحطان وقد هاجر بنوه من اليمن بعد انكسار سدّ مأرب في
القرن الثالث الميلادي أو قبله واستقر بعضهم بالحيرة وأنشأوا بها دولة سميت دولة المناذرة إذ كان المنذر اسم العديد من
ملوكهم ودامت دولتهم إلى ظهور الاسلام حتى هزمهم خالد بن الوليد وقد استعان بهم الفرس على حرب الروم ولصدّ غارات
العرب على الدولة الفارسية والأهم من هذا أن المناذرة جلبوا إلى بلاطهم العديد من الشعراء كما كانوا الواسطة بين الفرس
والعرب ونشروا حضارة فارس في بلاد العرب

ب - انظر كتاب عمر شرف الدين "الشعر في ظلّ المناذرة والفساسنة" نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1987
1- نشر ديوانه وترجمه وشرحه م. ساليق سون باريس 1901. ولعلّ أفضل طبعات ديوان طرفه: ديوان طرفه ابن العبد شرح
الأعلم تحقيق درة الخطيب ولطفي الصقال. دمشق 1395 - 1975 .

فقتله. فالشاعر يفتخر بشربه الخمر ويتبع فلسفة ابيقورية (أ) وهو لا يزال متعلقاً تعلقاً متيناً بالحياة البدوية. أما النابغة الذبياني (ب) فقد نجا مما آل إليه أمر طرفة بمغادرته بلاط الحيرة إلى بلاط الفساسة وهو يتميز بحساسية خياله والأعشى وقد ارتاد كذلك بلاط الحيرة هو أحد الشعراء الأكثر ارتحالا في العهد الجاهلي بحيث لا يمكننا أن ننسبه إلى طبقة معينة. فأشعاره (ج) تشتمل على عدد كبير من الاشارات إلى أحداث تاريخية وهو بالاضافة إلى ذلك يسترعي انتباهنا بخمرياته حيث وصف الخمرة [76] وصفا أعمق مما هو عليه في سائر القصائد المعاصرة له وهو في هذا الميدان، وهو حضري محض ينافس شاعرا مسيحيا شهيرا هو عدي بن زيد. (د)

إن الخواطر الدينية غير منعدمة في آثار الشعراء الذين كنا بصدد ذكرهم إلا أنهم في أغلبهم وثنيون يعبرون عن آراء عامة جداً وإنه لمن الواضح أن الأشعار التي كان يظهر فيها الإشراف لم يحتفظ بها الرواة المسلمون بل إنه يبدو لنا أن أبياتا ذات نزعة توحيدية قد صنعت بعد الإسلام لبيان أن العرب كانوا متهيئين لقبول الدين الجديد الذي كانوا ينتظرون مجيئه.

أ - نسبة إلى الفيلسوف اليوناني ابيقور (341 - 270 ق. م) لم يصلنا من مؤلفاته الكثيرة غير ثلاث رسائل لعل أهمها رسالة في الاخلاق وبعض الحكم وهو صاحب مذهب فلسفي يسمى الأبيقورية ويمثل أساسا في اعتباره اللذة بداية الحياة السعيدة وغايتها والقاعدة التي تنطلق منها في تحديد ما يجب اختياره وما ينبغي تجنبه. انظر جلال الدين سعيد: ابيقور الرسائل والحكم الدار العربية للكتاب تونس 1991.

ب - طبع ديوانه طبعات عديدة آخرها: بتحقيق محمد الطاهر بن عاشور الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر والشركة التونسية للتوزيع تونس 1976.

ج - طبع ديوانه طبعات عديدة أهمها طبعة جبر بلندن 1928 بعنوان كتاب الصبح المنير في شعر ابي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى والأعشى الآخرين، ثم أعاد طبعه معتمدا الطبعة السابقة محمد حسين بعنوان ديوان الأعشى الكبير بالقاهرة (1958) ثم بدار النهضة العربية بيروت 1974.

د - جميع ديوانه وحققه محمد جبار المعهد ونشرته شركة دار الجمهورية للنشر والطباعة بغداد 1965.

غير أنه يجب ألا ننسى أنه لئن كانت الأشعار المنسوبة إلى شعراء يهود لا تتميز البتة عن أشعار الوثنيين وذلك لا شك لأنها جرّدت من الإشارات الدينية فإن هناك شعراء مسيحيين كانوا قد عرفوا بصفاتهم تلك وبصورة أخص في ممالك اللخميّين والغساسنة وأغلب سكان الحيرة كانوا قد دخلوا في المسيحية، وبعض شعراء هذه المجموعة قد ظلّوا مشهورين. فعدي بن زيد خاصّة، وقد لعب دوراً أساسياً في بلاط الأمير اللخمي، يعتبره النقاد العرب واحداً من أكبر الشعراء الجاهليين وإن لم يكن صاحب معلقة فالمعنى المسيحي، معنى زوال هذه الدنيا، يحتلّ مكانة لا بأس بها في شعره. إلا أنه خاصّة بخمرياته قد خلد ذكره وسرى بعد الإسلام الشعراء العراقيين يُحيون السنّة الخمرية معتمدين النماذج التي تركها.

الشعر والرّسول

إن دعوة محمّد، خلافاً لرأي سائد، لم تقطع بغتة الإنتاج الشعريّ خاصّة وأنّ مدن الحجاز [77] حيث كان يمكن أن يلمس هذا التأثير أولاً لم تكن مراكز هامّة من مراكز الحركة الشعرية. ويمكن على أكثر تقدير أن نقول إنّ الأشعار المعاصرة لمحمّد وهي عديدة بدليل شواهد كتب التاريخ هي ذات قيمة أضعف وهي تشهد بتغيّر فجئي في عادات العرب على أنه يجب أن نحذر كلّ الحذر إذ يمكن أن تكون الآثار الأدبية غير الدينية لذلك العصر لم تشدّ انتباه الرّواة.

إن محمّداً، وقد اتّهمه أعداؤه بأنّه كان كاهناً أو شاعراً يلهمه شيطان، قد اتّخذ موقفاً معادياً فالآيات 224-226 من السورة 26 و"الشّعراءُ يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ وَأَنْهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" تردّ على الهجمات التي كان لها هدفاً غير أن الآيتين التاليتين 227-228 والأغلب أنّهما أضيفتا في ما بعد تخفّفاً من حدّة الموقف الأوّل: "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ".

وفي هذه الأثناء فعلا فإنَّ محمّداً كان قد تلقى مدائح شعراء من أسلم منهم ومن لم يسلم وكان لا يحسن أن يحتقروا وتشبّط عزائمهم غير أن اللعنة باقية على من كانوا يهجونهم وهكذا فإنَّ الشعراء المعاصرين للدعوة يمكن أن نصنّفهم باعتبار موقفهم من الإسلام إلى أصناف: من هاجموا الرّسول ومن لم يسيروا البتّة إلى الدّين الجديد وأخيراً من نظموا المدائح.

وأثار الأولين - كما هو منتظر - لم يصلنا منها إلا القليل (أ) غير أنّه يمكننا أن نتصوّر أن الشعراء وخاصة المكّيين منهم الذين كانوا يهاجمون محمّداً كانوا يتبعون إزاء نفس الطرق التي كان يتبعها الوثنيون إزاء رئيس القبيلة المعادية وأشهر خصوم الرّسول هو عبد الله بن الزبيري (ب) وإنّ اللّامبالين، وهذا دليل على ما كان العديد من الشعراء يبدونه من قلّة اهتمام [78] بالإسلام، هم أوسع شهرة وشاهد على ذلك الحطّبة (ج) وهو وإنّ أسلم لا يشير إلى معتقده الجديد. ويطول بنا طويلاً مفرطاً - وليس أيضاً من المفيد - أن نحصى الشعراء الذين هم رغم إسلامهم لم يشاركوا أيّة مشاركة في الجدال بين أنصار الرّسول وخصومه وهذه اللّامبالاة ناتجة بنسبة كبيرة عن كراهيّة البدو للإسلام وقد كانوا دخلوا فيه دون اعتقاد قويّ محتفظين بإمكانية - لم يحرموا أنفسهم منها البتّة - هي إمكانية الارتداد.

وفي شقّ محمّد فإنّ أهمّ الشعراء هم فعلاً حضريّون كانوا قد ارتادوا من قبل بلاط اللّخميّين والفساسنة حيث اتصلوا بمسيحيّين. غير أنّ هناك بدوياً قد اشتهر هو أيضاً بقصيدة لا تعود شهرتها إلى قيمتها في حد ذاتها بقدر ما تعود

أ- لنيل شهادة الكفاءة في البحث سنة 1973 بكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة تونس قدّم السيد الهادي بر جليلة بحثاً لا يزال مرقوناً عنوانه: الشعراء المناهضون للرّسول: جمع أشعارهم ودراساتها، وقد أشرف على البحث محمد عبد السلام ب - نشر شعره المستشرق الايطالي - ب. ميننطي بمجلة الدراسات الشرقية بروما سنة 1963 ثم أعاد نشره في صورة أتم يحيى الجهوري بيروت ط 1 / 1978 وط 2 / 1981.
ج - طبع ديوانه طبعات عديدة لعل أهمّها وآخرها ديوان الحطّبة برواية وشرح ابن السكيت (186 - 246 هـ) تحقيق نعمان محمد أمين طه نشر مكتبة الحانجي بالقاهرة 1407 / 1987.

إلى الطرف الذي أنشدت فيه والجائزة التي درّتها على صاحبها أعني قصيدة كعب بن زهير(1) وهي لا تتميز عن القصائد إلا بالأبيات الأخيرة حيث يشيد الشاعر بشجاعة المهاجرين. وإن الرسول وقد طرب خلع برده وألقاها على كتف كعب وإن كعبا لكي يجلب إليه عطف الجانب الآخر الموالي لمحمد أي الانتصار قد نظم فيهم قصيدة مدح ليس فيها ما يستحق الذكر(أ).

وعلى العكس من ذلك فإن الأعشى وإن لم يدخل في الإسلام قد وجد ليمدح محمداً إشارات إلى موقفه الديني وهو الذي ألف دقائق الدين لارتياحه مسيحيي الحيرة. غير أن شاعر الرسول الأعظم هو واحد آخر ممن تعودوا بلاط اللّخميّين والغساسنة أعني المدني حسان بن ثابت وقد أفاد هذا الشاعر خاصّة محمداً إذ ردّ على هجومات خصومه وإن انتصاره على شاعر (ب) قبيلة بني تميم العظيمة قد أدى أيضا إلى إسلام الأقوام أفواجا. وشعره(ج) وفيه تكثر العبارات القرآنية ذو طابع بدويّ وهو يطرق خاصّة [79] معاني في الهجاء، وإنه، وهو ذو قيمة أدبية ضعيفة، له أهمية جدّ عظيمة لمعرفة عصور الإسلام الأولى.

1 - ترجمها إلى الفرنسية ر. باسي. قصيدة بانت سعاد. الجزائر 1910 لديرانه برواية أبي سعيد السكري نشرته دار الكتب بالقاهرة سنة 1950 والقصيدة المشار إليها مطلعها (من البسيط)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول * * متيم إثرها لم يند مكبول

وقد شرحها مثلا التبريزي وحقق هذا الشرح المستشرق ب. كرنكر ثم قدّم له صلاح الدين المنجد ونشرته دار الكتاب الجديد بيروت 1389 / 1971.

أ - إشارة إلى القصيدة التي مطلعها (من الكامل)

* من سرّه گرم الحياة فلا يزل * * في مقنّب من صالح الأنصار

ب- المقصود الزير فان بن بدر وقد وفد على الرسول ضمن وفد تميم وأنشده شعرا مطلعها (من البسيط)

نحن الكرام فلاحيّ بعادتنا * فهنا الملوك فهنا السادة الركع

فطلب الرسول من حسان بن ثابت أن يجيبه فنقض قصيدة الزير فان بقصيدة مطلعها

إن اللّوائب من فخر وأخوتهم * قد بئروا سنّة للناس تتبع

القصيدة رقم 22 من ديوان حسان) والملاحظ أن سعور محمود عبد الجابر من جامعة قطر - قد نشر «شعر الزيرقان بن بدر وعمر بن الأهمم» مؤسسة الرسالة بيروت 1404 / 1984

ج - طبع ديوانه طبعات عديدة أهمها طبعة ولید عرفات نشر دار صادر بيروت سنة 1971.

الشعر في القرن VII وفي بداية VIII

بعد الاضطراب الخفيف الذي أحدثه ظهور الإسلام عاد عدد كبير من المسلمين إلى ظروف عيش شبيهة بظروف عيش العهد الجاهلي، وإن البدو، وقد طبعوا على القتال، أرضوا ميلهم إلى الحروب بالمشاركة في غزوات الإسلام ووجد شعراء المدح والهجاء في بلاط الأمويين أو لدى أعدائهم موارد كسب وبرزت من جديد مجموعة كبيرة من الشعراء قيمتهم متفاوتة بدون شك يتعاطون الشعر بسهولة عجيبة فالسنة الجاهلية بُعثت من جديد بدون كبير تغير عند أشهرهم وهم من ناحية أخرى مدينون بنصيب من شهرتهم وبعد صيتهم إلى اتباع الهياكل والمعاني القديمة إذ أن اللغويين الذين جمعوا آثارهم مهتمون خاصة بالأشعار القديمة أو الناحية منحى القدم غير أنه قد ظهرت معان جديدة عند الشعراء الفرسان في حين أن الأحزاب المختلفة التي نشأت داخل الإسلام رأت في الشعر وسيلة قوية من وسائل الدعاية ولا غرابة كبيرة في ذلك إذ تمثل الأمر في مجرد تلاؤم مع الظروف الجديدة وأهم من هذا بكثير وأغرب نمو شعر غزلي طريف نموًا فجئيًا في الظاهر تلقائيًا وإن طرقه في صور مختلفة البدو والحضر في الحجاز والشعراء العراقيون أو الشاميون. (1)

1- عن الشعر الغزلي: انظر بلاشير: أهم معاني الغزل في عصر الأمويين بدمشق (مجلة معهد الدراسات الشرقية بالجزائر مجلد 7، 1939-1940).¹ وقد أعيد نشره ضمن مجموعة مقالاته المختارة (منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1975)

[80] الشعر على النمط القديم

في الشام والعراق أساسا تواصلت السنّة الجاهليّة والسبب الأول هو أن العرب الذين كانوا في البلاد المفتوحة كانوا بدؤوا متعلقين بعاداتهم وبهزّهم الحنين إلى الماضي أي إلى أن يجدوا من جديد صحارهم وإن لم يكن ذلك إلا في أشعارهم ذاتها. أضف إلى ذلك أن الخلفاء الأمويّين وكبار موظفي الإدارة كانوا عربا. فكانوا إذن يسعون إلى بعث سياسة عربيّة ويستقبلون بالترحاب البدو الذين كانوا يفدون عليهم. فقد كانوا، إن لم يكونوا هم أنفسهم شعراء، لا يزالون يميلون ميلا خاصا إلى الشعر البدويّ، إلى المدح الذي كان يجد هيكلا طبيعيا في القصيدة القديمة وهذا يفسّر تفسيراً عريضا ثبات النمط الشعريّ الجاهليّ.

ويتفق جميع النقاد العرب على إسناد المرتبة الأولى إلى ثلاثة شعراء بدويّين مجدهم عفى إلى حدّ ما على سمعة سائر الناظمين، أقدمهم الأخطل بين (705م و715م) وهو نصرانيّ من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو من قبيلة تغلب إلا أن ديوانه (أ) ليس فيه إلا آثار قليلة من ديانته فهذا الشاعر، وقد سمّاه الأب لامانس (1) "شاعر الأمويّين"، اهتمّ خاصّة بالتغنّي بخصال الخلفاء وهجاء أعدائهم بالداخل وتبادل الهجاء مع خصومه على أنّه يمتاز عليهم بسلامة لغته وعفّتها.

وإنّ الثّاني، الفرزدق (م حوالي 732-733)، بعد أن استخدم موهبته بالبصرة والمدينة لدى أعيان محليّين حظي برعاية الخلفاء الأمويّين، على أنّه لم يتخلّف عند الاقتضاء عن رشقهم ببعض الهجاء إنّ الفرزدق وهو جلف قاس

أ- نشره بيروت سنة 1891 الأدب الصالحاني ثم خاصّة إيليا الحادي مطبعة دار الثقافة بيروت 1969

1- انظر المجلة الآسيوية 1894 ص 94-176. 193-241. 380-465.

ودنيء لا تأنس إليه النفس، قد استجاد النقاد العرب شعره- المدائح،
والأهاجي^[81] والمراثي والمقطعات الخليعة- لثرائه اللغوي (1)

وخصومة الفرزدق والأخطل لجرير (م نحو 932-733) (أ) قد ظلت شهيرة
في تاريخ العرب الأدبي وهم يفضلون هذا حيناً والآخر حيناً، على أن جرير(ب)
وهو أكبر هجاء في العصر الأموي، قد عرف كيف يفوز، بفضل مدائح بارعة،
برعاية والي العراق(ج) ثم خلفاء دمشق. وقد ساهمت الخصومة بين هؤلاء
الرجال الثلاثة في تكوين أسطورة حول أسمائهم بحيث أن سائر الشعراء
المعاصرين كثيراً ما أهملوا. على أن ذا الرمة (م736) قد خلف لنا أشعاراً (د)
ذات صياغة راقية تحدث فيها في إطناب، على السنة البدوية، عن حبيبته
وناقته وإنه، وقد كان ذا مقدرة فائقة في التشبيه ووصف الطبيعة، كان أساساً
مقلداً ماهراً وناظماً بارعاً. وهو بفضل معرفته الشعر القديم قد لعب دوراً هاماً
لدى أصحاب المعاجم. وهناك شاعر آخر بدوي صرف وهو الراعي (م بعد
705) يعود تلقيبه "بالراعي" إلى أشعاره العديدة في وصف الإبل. (هـ)

1- قسم من ديوانه ترجمه الى الفرنسية بوشي باريس 1870¹ وقد طبع ديوان الفرزدق طبعات عديدة أشهر طبعة
محمد اسماعيل الصاوي القاهرة 1354 - 1934

أ- المقصود: النقائض وقد نشر بيفان (ليدن 1907 - 1912) نقائض جرير والفرزدق في ثلاثة أجزاء. وانظر مثلاً
أحمد الشائب: تاريخ النقائض في الشعر العربي ط 3 مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

ب- ديوان جرير طبع طبعات عديدة أشهرها بعناية محمد اسماعيل الصاوي بالقاهرة سنة 1353 / 1933 وأعاد
نشره دار الاندلس بيروت د ت ثم آخرها وأهمها طبعة دار المعارف بمصر سنة 1986 في جزأين تحقيق نعمان محمد
أمين طه.

ج - المقصود الحجاج بن يوسف انظر فصل أحمد الخصخوصي الحجاج وجرير أو جرير مادحا للحججاج عدد 33 من
حوليات الجامعة التونسية تونس 1992.

د- أهم طبعات ديوان ذي الرمة تحقيق مطيع بيلي المكتب الإسلامي للطباعة والنشر بيروت ط 2. 1384 - 1964.
هـ - شعر الراعي النميري وأخباره "جمعه وقدم له وعلق عليه ناصر الحاني وراجعته وجمع شواهد ووضعه فهارسه عز
الدين التنوخي بمطبوعات المجمع العلمي العربي دمشق نشر سنة 1383 / 1964 .

أن نقف عند هذا العدد من الأسماء الشهيرة ليس فيه خيانة للشعر الأموي ذي الطابع القديم إذ أنه لئن كان الشعراء عديدين فإنهم يقتصرون على تقليد من يقتدون بهم دون أن يجددوا معاني سابقهم. وأقصى ما في الأمر أنه يمكن أن نكتشف بعض المعاني الجديدة لدى البدويين المنبئين الذين يطمحون إلى العودة إلى صحاريهم أو لدى الجنود المحاربين. فالمسلمون فعلا لم ينفكوا يقاتلون طيلة كامل الخلافة الأموية يمددون حدود الامبراطورية حيناً أو يخمدون داخل العالم الإسلامي نفسه ثورات العناصر المشوشة أو المناوئة للدولة الحاكمة. وقد كان أغلب المقاتلين من البدو وكانوا يميلون إلى الشعر ولا يستنكفون من أن ينظموا أبياتا - كتب التاريخ بها [82] تزخر - يصفون وقائعهم ويفتخرون بشجاعتهم ويشتكون من أتعاب الحرب وهموم الاغتراب ويكون رفاقهم الذين قتلوا في ساحة الوغى ويهجون العدو حينما يكون على الرد قادرا. وهذا الشعر عامة بسيط طبيعي لأنه يعبر عن مشاعر صادقة. والمثل الأهم لهذا الشعر هو أعشى همدان وقد وقف شعره على أسره بالديلم وعلى مغامراته الحربية (أ).

وقصائد هذا النوع تشبه التي نظمها المشركون يخلدون بها بطولاتهم وأسماء الأماكن الأعجمية هي وحدها التي تمكنا في أغلب الأحيان من تحديد تاريخها. وصنف قريب من السابق وإن كان عنه مختلفا يمثل على العكس من ذلك تطورا حقيقيا ويتمثل في أشعار نظمها شعراء ينتمون إلى أحد

أ- طبع ديوانه ضمن كتاب "الصبح المنير في شعر أبي بصير... الأعشى والأعشى الآخرين" بعناية جبر (لندن 1928) ويلج المؤلف إلى أسر الأعشى لما أغزاه الحجاج بلد الديلم وكيف نجته ابنة أسره "وقد هويته وصارت اليه ليلا فمكنته من نفسها فأصبح وقد واقعها ثماني مراك فقلت الديلمية يا معشر المسلمين "أهكذا تفعلون بنسائكم؟ فقال لها هكذا نفعل كلنا" فقالت له "بهذا العمل نصرتكم. أفرأيت إن خلصتك أتصطفيني لنفسك" فقال لها نعم وعاهدها فلما كان الليل حلت قيوده وأخذت بها طرقا تعرفها حتى خلصته وهربت معه فقال شاعر من أسرى المسلمين (من البسيط)

فمن كان يفديه من الأسر ماله * فحمدان نفديها القداة أبورها.

القصة في أخبار الأعشى في الأغاني في طبعاته المختلفة).

الاحزاب السياسية الدينية التي نشأت منذ منتصف القرن VII ونحن نعلم ان الخليفة الراشد الرابع علياً قد أجبر على قتال معاوية الذي استولى بفضل التحكيم على الحكم وأسّس الدولة الاموية (661) فنشأ آنذاك حزبان معارضان الشيعة من جهة وهم أنصار الخليفة المخلوع والخوارج من جهة أخرى وقد استغلوا فرصة هذا الانشقاق لإثارة اضطرابات خطيرة، وإن الخوارج، وثورتهم لم تخمد إلا في بداية القرن VIII قد كانوا في بداية أمرهم على درجة قصوى من العنف ثم إن مذهبهم، وهو يتسع، قد عاد لطيفا وإن شعراءهم فعلا يمكثون من تتبّع هذا التطور وهو لا يظهر في كتب المؤلفين في الفرق. والشعر الخارجي هو من الناحية الفنية من النوع البدوي وقد خصّص لتمجيد عمل المقاتلين وشجاعتهم وتهديد أعدائهم وبعث الحماسة في الفاترين. وأشهر هؤلاء الشعراء : قطري بن الفجاءة (م 696 - م 697) وقد اعتمد كامل براعته لتشجيع أنصاره، وعمران بن حطان والطرمّاح وفي شعرهما سمة غلظة الخوارج الأوائل (أ).

والشيعة على العكس من ذلك، كانوا يستنكفون نوعاً ما من خوض الحرب وخصّصوا أشعارهم لعرض آراء^[83] فرقتهم ومدح آل النبي وبالتالي علي (ب). وأهم ممثل لهذا الاتجاه هو السيد الحميري (م 789) وهو على الأصح من العهد العباسي. وهو وقد حمل على الصمت في أيام الامويين المتأخرين، قد مدح خلفاء العباسيين على أنهم متضامنون مع الشيعة وقد

أ- شعر الخوارج جمعه ونشره إحسان عباس (ط 1 1963 وط 2 1974) والملاحظ أن الطرمّاح هو الوحيد الذي له ديوان مستقل نشره عزّة حسن بدمشق 1388 - 1968. ومن أهم الدراسات عن شعرهم وأدبهم بصورة عامة أدب الخوارج في العصر الأموي إعداد سهير القلماوي (القاهرة 1945) والخوارج في العهد الأموي نشأتهم تاريخهم عقائدهم أدبهم أعداد نايف محمود معروف بيروت 1977 وقد نشر كذلك "ديوان الخوارج" بيروت 1983.

ب- أعد الطيب العشّاش أطروحة دكتورا دولة عن شعر الشيعة الى القرن الثالث هـ نوقشت بجامعة السربون في 10/12/1988 وسينشر قسم العربي منها أي ديوان أشعار التشيع بدار الغرب الاسلامي بيروت 1997. لومعروف أن الكتب عن أدب الشيعة كثيرة منها كتاب عبد الحسيب طه حميده: أدب الشيعة الى نهاية القرن الثاني للهجرة (القاهرة 1956).

حظي عندهم بتسامح غريب. وإنتاجه بصرف النظر عن مدائحه يتكوّن معظمه من أهاج ضدّ أعدائه ومن قصائد يمجّد فيها العلويين وأشعار يعرض فيها في جزئيات ثمينة مذهبه المعارض (1)

غزل البدويين

إن القصيدة أي القالب الذي يصوغ فيه الشعراء أشعارهم تشمل حتماً مقدّمة غزليّة. وقد كان هماً لا بدّ منه أن ينشأ عن هذه المقدّمة، وهي تقليديّة منذ أمد بعيد غير أنّها واعدة، غرض مستقلّ، لكن في حين أنّ الشعر الجاهلي لأسباب لا ندركها أو يطول شرحها طويلاً مفرطاً لا يتضمّن قصائد غزليّة خاصّة فإنّنا نرى فجأة الرّواة ينسبون إنتاجاً طريفاً إلى غزليين يعيشون في القرن VII وقد تطوّر هذا الغرض الجديد في اتجاهين: فرع حضريّ وفرع بدويّ يتميز عنه تميّزاً أساسياً (2)

وبالجملة فإنّ إنتاج الشّاعر الغزل البدويّ مخصّص برمته لأمراة واحدة يحبّها حباً عفيفاً فالشّاعر يتغنّى بحبّه وهو حبّ باتّس شأن كل حبّ عربيّ ويعبر عن أحزان نفسه ويأسه وعذابه. وجل هؤلاء الشعراء، بالإضافة إلى ذلك، يصيرون إلى [84] الجنون ومن قبيل صدفة غريبة فإنّ هؤلاء العشاق المتيمّنين ينتمون إلى قبيلة أصيلة الجنوب العربيّ، قبيلة بني عذرة أو إلى بطن قريب. وهذه الظروف المحيرة ويضاف إليها حديث منحول: "من أحبّ فعفّ فمات مات شهيداً" يجب أن تحملنا على الحذر ويبدو من الواضح في الحقيقة أنّ قسماً على الأقلّ من هذا الشعر منحول. وقد تعمّد نظمه بداية من القرن VIII

1- انظر باربي دي مينار: السيد الحميريّ بالمجلة الآسيوية 1874 (حيث ترجم العديد من قصائده) وقد نشر ديوانه شاكراً هادي شكر بيروت د.ت.]]

2- عن هذا الشعر انظر ج. ك. فادي: الروح العلويّ بالشرق في القرون الخمسة الأولى للهجرة باريس 1968.

بالعراق يمنيون. وقد اعتمد لتوضيح أدب قصصي كامل تكون حول قيس (أ) وليلى، جميل (ب) وبشينة، كثير (ج) وعزة، وأزواج آخرين صاروا من يومها لا يفترقون والأغرب أن هذا الحب العفيف، هذا الحب الافلاطوني (د)، وهو على الأغلب من أصل يوناني قد أصبح غرضاً كلاسيكياً ألهم آثاراً صوفية وقصصية ثم انتقل إلى إسبانيا ومن ثم أثر في الحب العذري لقروننا الوسطى¹ في فرنسا² فكل هذا على غاية من الأهمية إلا أنه يشير سؤالاً لا يزال محيراً وقد ثبت فعلاً أن عدداً من هؤلاء العشاق لهم وجود تاريخي مثل كثير وجميل إلا أن كثيرين آخرين وخاصة قيسا الملقب بمجنون ليلى هم شخصيات قصصية. فمن غير اليسير إذن أن نعتبر الشعر الذي إليهم ينسب إذ هو عمل ناحلين من عصور مختلفة.

-
- أ- نشر ديوانه أو الشعر المنسوب إليه عبد الستار أحمد فراج. دار مصر للطباعة د. ت
- ب- نشر ديوانه أو الشعر المنسوب إليه حسين نصار. دار مصر للطباعة. د. ت
- ج- نشر ديوانه بمطبعة كرونال بالجزائر سنتي 1928 و 1930 هنري بيراز ثم أعاد نشره في طبعة أتم إحسان عباس. دار الثقافة بيروت 1391 - 1971.
- د- نسبة إلى افلاطون الفيلسوف اليوناني (428 - 348 ق م) وقد أنشأ فناً فلسفياً طرقت أسسه الحوار أو المناظرة جمع فيه بين الخطاب العقلي واللغة الشعرية وطرق كبريات القضايا الفلسفية والماورائية قد ألف خاصة المأدبة وفادر³ ترجمها إلى الفرنسية أ. شاميري (مطابع قارنبي فلا ماريون باريس 1964) وترجمها إلى العربية زكي نجيب محمود لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة. وقد جمع فيهما افلاطون مجموعة من كبار عصره في ميادين مختلفة تناظروا في الحب. والجمال واستخلص منهما أن افلاطون يفضل على حب الجسد حب الروح أو الحب العفيف. وقد ورد في الأدب العربي بعض ما يشبه هذين الحوارين مثل المناظرة التي وقعت بين يدي يحيى بن خالد بن برمك وزير هارون الرشيد حول "العشق" بين مجموعة من متكلمي الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل (أنظر مثلاً: المسعودي مروج IV / 236 - 246).

شعراء غزلون من مدن الحجاز

نشعر أن القدم أرسخ ونحن نباشر دراسة الغرض الغزلي كما طرق بمكة والمدينة خلال القرن VII وليس أقل غرابة أن نرى أنه قد ازدهر منذ نهاية عصر الخلفاء الراشدين وفي المدن ذاتها التي كان الإسلام قد نشأ فيها منذ حين غرض عابث كل العبث بعيد كل البعد عن اهتمامات الجيل السابق الدينيّة.

فهذا التغيّر قد نشأ عن تغيّر أسلوب الحياة عند سكّان المدن الحجازيّة: فالازدهار الاقتصادي الذي وفّرتة الفترحات قد ضاعف [85] نعيم العيش وحبّ اللذات لدى شباب مكة والمدينة الفارغين الذين كانوا لا يشاركون لا في النشاط السياسي ولا في الحملات الحربيّة. أضف إلى ذلك أن الموسيقى والغناء وقد كان الأمرين يمنعونهما كانا مباحين بالحجاز حتى أن المدينتين المقدستين أصبحتا مركز التكوين الموسيقي الأساسي وأن القيان عليهما قد توافدن محدثات "جوا" من الخفة والعبث غير منتظر في المنطقة التي كانت شهدت نشأة الإسلام.

وهذه الظروف تفسّر أن شعرا غزلياً مستقلاً قد نشأ على أسس مختلفة وفي صورة تتناقض تماماً مع الآثار المنسوبة إلى البدويين. وأشهر هؤلاء الشعراء العابثين هو عمر بن أبي ربيعة (644-712 أو 719) (أ) وهو لم يعد في نهاية الأمر أن تناول من جديد، وقد أخضعه إلى الظروف الجديدة وعزله وطوره واقتصر عليه، - نسيب القصائد القديمة كما طرقه امرؤ القيس مثلاً. إنه، وقد كانت له الشروة التي جمّعها أبوه، قد استطاع أن يعيش دون تعاطي أي

أ- نشر ديوانه في ثلاثة أجزاء المستشرق اسوارز بليزنيق سنة 1901، 1902 و 1909 ثم أعاد نشره خاصّة وهي الطبعة المتداولة، محمد محيي الدين عبد الحميد سنة 1952 بالقاهرة.

عمل منتظم وأن يتمتع ولا قيد بملاهي مكّة. فعناصر ترجمته هي في قسم كبير منها أسطورية إذ أن القوم بعد أن توجّه "أكبر شعراء الغرام" سعوا إلى أن يجمعوا حول اسمه مجموعة من القصص غير أن شعره، وقد نظم في لغة سهلة، هو قصة أحداث حياته الخاصة وهو يخبرنا كذلك بصورة جدّ دقيقة عن نفسيّة معاصريه. وهذا الشّاعر، وإن أهمله اللّغويون^[أ] وأعرض عنه إلى حدّ ما فحسب "أنصار الاخلاق الفاضلة" يحظى بشعبية كبيرة أمرها اليوم في تعاظم إذ اكتشفوا عنده مظاهر تقارب مع كبار الغزليين الأوربيين.

ومن المهمّ أن نلاحظ كم كان للواقع من قيمة بالنسبة إلى عمر وأمثاله، غير أن السّنة لا تزال تحتفظ بقسم من سلطانها وأن المعاني التقليدية لم تزل معتمدة حتى للتعبير عن العواطف الحقيقيّة. فالحب^[86] يُنظر إليه نظرة واقعيّة ومنطلقه هو دائما سحر جسدي في حين أن أنموذج المرأة قد ضُبط نهائيا^[ب]. ونتبيّن هنا دائما كما يبيّن الواقع اتجاه العرب الدائم إلى الاندماج في نظام وأن يرجعوا كل شيء، وذلك تقريبا حياء، إلى أنموذج اصطناعي.

شعر مدن العراق والشّام

بعد فتح العراق ولما يمض على موت الرّسول عشر سنوات أنشئت مدينتان عربيّتان هما البصرة والكوفة والمدينتان كلتاها قد سكنها بدو وسعى الخليفة عمر إلى إقرارهم بهما وهذه العناصر قد احتفظت إلى فترة معيّنة بالخصائص التي اكتسبتها من بدويّتها وإن شعرا بدوياً ما انفكّ يزدهر بينهم وقد كوّنوا

أ - يقال إنهم أهملوه إلى أن قال قصيدته التي مطلعها^[من الطويل]

أمن آل نعم أنت غاد فمكر * غداة عد أم رائع فمجر

ويقال كانت العرب تقرّ لقريش بالتقدّم في كلّ شيء عليها إلا في الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً. وسئل حماد الرواية عن شعر عمر فقال ذلك الفستق المقشر (انظر مقدمة ديوان عمر)

ب - انظر صلاح الدين المنجد: جمال المرأة عند العرب بيروت 1957

بالتألي جمهوراً جذاً خبير ومتصلب في أذواقه كبار الشعراء لا يأنفون أمامه من إنشاد أشعارهم متبارين مع منافسيهم. فدمشق قد بسطت، كما يجب، سحرها والشعراء الذين أنسوا في أنفسهم المقدرة على النجاح وفدوا على العاصمة - شأن جرير والفرزدق - إلا أن الإنتاج في الآفاق ظل على قدر من الأهمية خاصة وأن العراق قد استقطب، بعيداً عن دمشق، الشعراء السياسيين المناوئين للأمويين. والأغراض المطروقة ذات صلة بالسنة الجاهلية وقد خلدت نتيجة ذلك. فغرض المدح شجعه الولاة وأحاطوا أنفسهم بالشعراء وبلغ الأمر بالخلفاء أن غضبوا عليهم أحياناً. والمنافسات القبلية قد غذت غرض الهجاء فآل أمره إلى لواذع. والشعر الخمري قد ازدهر خاصة بالكوفة وهي وارثة سنة الحيرة. أما معاني الحجاز الغزلية فقد دخلت المدينتين اللتين ساعدت الثورة المتزايدة فيهما على ظهور شعر خفيف. وإن شعراء ذلك العصر العراقيين ليسوا، باستثناء شعراء المدح المقبولين ببلاط الخلفاء، ذوي شهرة كبيرة. فهم فحسب يبشرون بميلاد شعر عراقي طريف سيزدهر في عهد العباسيين وهم إن كانت [87] أشعارهم صحيحة النسبة، يمثلون بالنسبة إلى المؤرخ قيمة وثائقية لا نزاع فيها.

أما في الشام فإن الظروف مختلفة تماماً. ذلك أن وجود الخلفاء وهم يهودون الشعر والمدائح قد دعا الشعراء إلى أن يقفوا عند غرض مدار هو المدح مشفوعاً بصنوه الهجاء وقد أصبح الشعر أداة سياسية بين أيدي الناظمين وقد ظلوا طبعاً متعلقين بالنماذج القديمة. لكن في الشام نحو نهاية العهد الأموي بلغ التطور، وقد كان بدأ سيره بالعراق، مرحلة جديدة وحماسية وحلقة السلسلة التي تصل الشعراء العباسيين بالشعراء الجاهليين يمثلها، وهذا أمر غريب، خليفة هو الوليد II ابن يزيد (708-744) إن الوليد، وقد تغذى في شبابه بالشعر الغزلي والخمري وأبعد عن الحكم عند موت أبيه وأجبر على الفراغ، قد عاش حياة اضطراب متزايد وأطلق العنان لحبه الملذات والنساء والخمرة.

وإن تأثيره في تطور الشعر مزدوج، ذلك أنه من ناحية قد شجّع على عكس سائر الحكام الامويين، شعراء المدرسة الحجازية الغزلين وهو من ناحية ثانية قد نظم هو نفسه قصائد "مجددة" ولا يسعنا أن نقول شيئاً عن قطعه المقلدة عن النماذج القديمة، وهي لا تكاد تتميز عن الآثار المعاصرة، إلا أن مهارته الفذة تتجلى في أشعاره الغزلية وأغانيه الخمرية حيث عبّر في لغة بسيطة عن عواطف صادقة متخلّصاً من الهياكل الجامدة وقوالب أسلافه الجاهزة وهذا الخليفة الشاعر (أ) قد فتح بذلك الطريق للمجان وهم سيدفعون بالشعر في مسالك جديدة.

النثر المرسل

في حين كان الشعر قد بلغ درجة عالية من الكمال وكان الكهان والخطباء يستعملون لغة يمثل فيها البحث عن القافية نزعة فنية فإن النثر المرسل لم يكن [88] موجوداً باعتباره أسلوب تعبير أدبي، والغالب على الظن أنه لولا الإسلام لكانت هذه الحالة قد استمرت. وقد ذكر "وليام مرسى" موقفاً أن هناك شعباً، يمكن لدارسي العربية أن يعودوا إليه فيغنموا وهو الشعب البربري وله اليوم شعر يخضع إلى قواعد مضبوطة إلا أنه عاجز عن أن يحرر تلقائياً عن طريق النثر النصوص المتعلقة بخصائص الشعوب التي يطلبها النصاصون فجميع دارسي اللهجات يعلمون أن المخبرين الأميين يجب أن يكونوا مدة طويلة قبل أن يمكنهم أن يؤلفوا بأنفسهم نصوصاً مبتكرة عن أبسط مواضيع الحياة العادية وعلى العكس من ذلك فإنه يمكن لنصاص متسرّع أن يحصل فوراً على أمثال وكذلك على نصوص "قصصية وفلكلورية" المخبرون يحفظونها وهم قادرون على إملاتها في الإبان تلك هي فعلاً صورة الأدب النثري الأولى ونحن نعلم بالمأثور

أ- كان المستشرق الإيطالي فد. فبرلي قد درس هذا الشاعر ونشرت دروسه سنة 1934 بمجلة الدراسات الشرقية بروما وأعاد نشرها أو نشر الأشعار بحذف المقدمة مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة 1937 ثم أعاد نشر الديوان مع مقدمة باللغة العربية المستشرق فبرلي وذلك بمطابع دار الكتاب الجديد بيروت سنة 1967.

أنَّ العرب كانوا هواة أمثال وقصص وأساطير تاريخية كانوا يجعلون منها موضوع معادلاتهم الرئيسي في الأسواق أو أثناء أسفارهم وفي حين أنَّ الشعر وهو يعتبر صورة أرقى من صور التعبير الأدبي قد جمعه وحافظ عليه بعناية فائقة العرب أنفسهم فإنَّ الفلكلور القديم باستثناء الأمثال، على أنَّها كانت غالباً شعراً، قد أهمل لأنَّه كان صورة أوضح مما يجب عن الجاهلية. والواقع أنَّ نصيبه من الأدب الكلاسيكي أبعد من أن يكون من المستهان به، بل إنَّه يمكننا أن نقول إنَّه قد ساعد مساعداً على نشأة النثر الأدبي.

والميل إلى التعابير المجازية المكتنزة في قالب أمثال قد كان في جميع العصور شديداً لدى العرب وإنَّه كذلك اليوم ليس هناك أحسن من أن يضمن المرء حديثه مثلاً أو حكمة. فالمقارنات بالحيوانات وظروف الوجود البشري (أشجع، أكرم، الخ من فلان) والاحداث العادية أو التاريخية كل ذلك يصلح مادةً للأمثال تخلد ذكرى أشخاص أو أعمال مميزة. غير أنه لئن أحسن استعمالها في غير تلك الجهة فإنَّ مجموعة كبيرة منها وخاصة حين تنحصر في عبارة جدَّ موجزة بدون نعت يبيِّن معناها لم تعد مفهومة وإن أصلها سرعان ما ينسى. غير أنَّ اللغويين، وقد كانوا يبحثون عن كلِّ ما كان يمكن أن يكون وثيقة لغوية، بادروا إلى جمعها ومحاولة شرحها. وقد آل بهم الأمر هكذا إلى أن يقبلوا بل وأن يصنعوا هم أنفسهم حكاية وهمية أصبحت أحداثاً تاريخية استولى عليها الأدباء. فقد اعتنى في البداية بجمع أمثال غفل (1) وأول كتاب وصلنا من هذا النوع كتاب المفضل الضبي (م786) (أ) ثم شغعت بنص تفسيري

1- ز. ولهايم: ٣ الأمثال العربية القديمة مع اعتناء خاص بكتاب الأمثال لأبي عبيد* لاهي 1954 وقد عرب هذا الكتاب رمضان عبد التواب ونشرته مؤسسة الرسالة بيروت ط 4. 1408 / 1978.

أ- نشر كتاب المفضل الضبي كتاب الأمثال بالقسطنطينية 1300 / 1882 ثم بالقاهرة 1327 / 1909 والمعروف أنَّ المفضل الضبي اشتهر خاصة بالمفضليات وهي القصائد التي اختارها المفضل بطلب من الخليفة المنصور 158 / 775 لتأديب ابنه المهدي وأفضل طبعات المفضليات وهي الطبعة المتداولة اليوم هي طبعة دار المعارف بالقاهرة سنة 1964 من إعداد أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون

سعى إلى حلّ المشاكل اللغوية والتاريخية ولنا عدة مجاميع من هذا النوع أشهرها مجمع الميداني (م1124) (أ) وقد جمع كامل المادة التي جمعتها أسلافه وفي القرن XIX وتأثير العلم الأوربي وقع الاهتمام من جديد بالأمثال وقد اعتمد مجمع الميداني لطبعات جديدة واقتباسات روعيت فيها بصورة أوضح غاية تربية.

وقد كان يوجد دائما إلى جانب الأمثال، والقرآن يشير المرات العديدة إلى أساطير الأوكين، قصص عجيبة أو مضحكة كانت ولا تزال اليوم تمتع جميع الطبقات الاجتماعية (1) غير أنه يحسن التمييز إذ أن هذه القصص أو تلك لا تتجه إلى نفس الجمهور. فالرجال لا يهتمون، أو يتظاهرون^[90] بعدم الاهتمام، بالقصص العجيبة وهي تظل من نصيب النساء والأطفال. وهذه القصص يعود تاريخها إلى عهد جدّ عابر إذا ما اعتبرنا عبارات الاستعطاف أو دفع الضرر التي تصحبها فجميعها تعود إلى الرواية الشفوية وهي حينما توجد في آثار كلاسيكية تكون قد وقع فحسب نقلها فالقصة العجيبة تتمثل في مجموعة من المعاني العديدة رصفت الواحد تلو الآخر أو تمّ الربط بينها. وبعض هذه المعاني تنفصل أحيانا عن المجموعة التي تنتسب إليها لتلتحم بمجموعة أخرى وهذه التركيبات غير المقصودة هي التي تسم الأدب الشعبي بسمته الخاصة وأبطال هذه القصص يختلفون عن البشر العاديين فالجن والغيلان تضفي عليهم طابعا خارقا للعادة في حين أن الشخصيات البشرية هم ملوك وملكات وأمراء كثيرا ما ينضم إليهم عجائز سوء. وإنّ قسما من هذا الفلكلور قد احتفظت به الرواية الشفوية ويمكن القول بأن وجوده قد أثر مباشرة أو بصفة غير مباشرة في تحرير المجاميع اللاحقة التي "ألف ليلة وليلة" أنموذج منها عجيب.

ب- أفضل طبعة لمجمع الأمثال للميداني هي طبعة محمد أبي الفضل إبراهيم وقد نشرتها في أربعة أجزاء مطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركائه القاهرة بين سنتي 1975 و 1979.

1- نجد منها مجموعة كبيرة في ر. باسي: ألف حكاية وحكاية. قصص وأساطير عربية باريس 1824-1926

(3) أجزاء مع قائمة مصادر ومراجع ثرية.

أما القصص المضحكة (1) فهي تتجه إلى الرجال وهي مجردة من القيمة السحرية وتحكي في صيغة مضحكة أحداثاً يومية ونماذج الشخصيات ليست عديدة جداً: فبالى النوكى والبغلاء والنساء يضاف بعد الإسلام المعلمون والفقهاء وقد كانت السخرية للعبث في براعة، والضحك من سذاجة الزوج تخونه امرأة محتالة، ومن جهل المعلم والتناقض بين وقار بعض القضاة عادة ووضعهم المضحك عرضاً.

إن النوارد والقصص المضحكة، وهي تتكاثر، تتجمع حول عدد معين من الشخصيات الهزلية وإن المضحكين^[91] وأصحاب النوارد، وقد تكونوا، شأنهم في ذلك شأن الغزليين والمغنيين بالحجاز، يزخر بهم بلاط الخليفة وهم لا شك أصل عدد عديد من اللطائف المنسوبة إلى شخصيات تاريخية مشهورة من ذلك مثلاً أن الشاعر أبا نواس بل والنائر الشهير الجاحظ قد أصبحا عند العرب يقابلان "الفنس ألي"^[أ] و"رنارد تشو"^[ب] وبطلين أو راويين لمجموعة من النوارد المضحكة ازدادت قيمة بشهرة اسميهما غير أن أشهر هؤلاء الأبطال هو جحا^[ج] وقد ظهر منذ القرن IX وأصبح في القرن X الشخصية الأساسية لكتاب في النوارد فجحا، وهو أحياناً أحق وأحياناً جذاً

1- انظر: فلان: الأقوال العجيبة والألفاظ الحارة والحكم عند الشرقيين باريس 1694.

أ- الكاتب الفرنسي الساخر (1854-1905) وقد ألف معتمداً منطق العبث مجموعات من النوارد.

ب- الكاتب والمسرحي الإيرلندي (1856-1950) وقد اشتهر في مؤلفاته بالهجاء والسخرية وتحصل سنة 1925 على جائزة نوبل للأدب.

ج - شخص قد يكون في الأصل حقيقياً هو أبو الفصن نوح الفزاري (ق III / هـ) ثم أصبح أقرب إلى الأسطوري. نسبت إليه عدة نوارد تكاثرت وتنوعت عبر العصور والأصقاع (آسيا وأفريقيا وأوروبا) واللغات. جمعت نوارده وطبعت عدة طبعات وترجمت إلى عدة لغات ونكتفي بكتاب حسن حسني أحمد. جحا: تاريخه، نوارده، حكاياته، علمه خواطره فلسفته ط. القاهرة 1950 وكتاب عبد الستار أحمد فراج: أخبار جحا ط القاهرة. 1954

فطن، يقابل "أولنسبيقل"^[أ] في العالم الإسلامي حيث ينافس محلياً التركي نصر الدين^[ب].

وعلى خلاف الحمقى، فإن الحكماء يجمعون حول اسمهم جميع مظاهر الحكمة التي احتفظ بها العرب. وإن شخصاً أسطورياً من عهد الجاهلية، على أن القرآن يذكره عدة مرات، أعني لقمان، هو أولاً نموذج البشر الذين حظوا بطول عمر لا مثيل له ثم أصبح إذ خلده القرآن، حكيماً أوتي من الحكم والمواعظ ما أوتي، ثم صار نظير إيزوب (1)

وبعض الأساطير الدينية كانت متداولة قبل الإسلام بين القبائل العربية حيث كان بعض الأشخاص من الكتب المقدسة، مثل نوح وسليمان أبطالاً معروفين وبعد مجيء الإسلام فإن الحاجة إلى تفسير الاشارات القرآنية قد حثت المفسرين على جمع تلك الأساطير في حين أن وعاظ العامة والقصاصين لم يكونوا يتحرجون من الأخذ من التراث اليهودي والمسيحي⁽²⁾ وإن المسلمين، لما أرادوا أن يفسروا عجائب الطبيعة وغرائبها، قد أمكنهم. لا شك في ذلك، أن يستفيدوا من النظريات الاغريقية غير أنهم التجأوا كذلك إلى مجموعة من الأساطير المفسرة كانت الملاحظة سرعان ما أفرزتها^[92] والأمثال والحكايات

أ- أولنسبيقل: بطل اسطورة المانية يعود تاريخها إلى النصف الثاني من القرن XIV ط 1 ضاعت ثم ط 2 نحو 1515 / 1519 وقد اشتهر بحيله ضد النبلاء وأصحاب الحرف ورجال الدين .

ب- نصر الدين خوجة التركي (أو الرومي) ظهر في القرنين التاسع أو العاشر للهجرة أي الخامس أو السادس عشر م معوضاً أو مقابلاً لجحا وبعضهم يعتبرهما شخصاً واحداً. وقد طبعت نوادره ببولاق نحو 1880 بعنوان: نوادر الخوجة نصر الدين الملقب بجحا الرومي. وقد ترجمها إلى الفرنسية جال لويس مونوري في جزأين ج 1 1990 ج 2 1994.

1- انظر ر. باسي: لقمان بربها باريس 1890¹ إيزوب هو كاتب يوناني عاش بين القرنين VII و VI ق.م. وتنسب اليه مجموعة من الأمثال استوحى منها لافونتان بعض أمثاله.

2- انظر د. سيدرسكي: أصول الأساطير الاسلامية في القرآن وسير الأنبياء باريس 1933. ¹نشر محمد عجينة موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها دار الفراهي بيروت ودار الحامي صفاقس تونس 1994 . والكتاب في الأصل رسالة دكتورا دولة من الجامعة التونسية.

والأساطير والقصص التاريخية تمثل نواة أدب كان يمكنه أن يكون طريفاً غير أن هذا الإنتاج الجماعي المنقول من جيل إلى جيل، ولكن فحسب عن طريق الرواية الشفوية، كان ينقصه أساساً، ليصبح أدباً حقيقياً، أن يستغله رجال قادرون على طبعه بطابعهم الخاص وعلى جعله أدباً شخصياً. وهنا أيضاً فإن مبدأ الحجّة هو الذي سيسود مشجعاً الكسل الفكري وهذا التراث سينتقل، كما هو أو مع تحويرات في أغلبها عن قصد، إلى أدب ما بعد الإسلام.

والقصص ستجد مكانتها في إطار متسع الاطراف، الأدب، وإن الأساطير، والقصص التاريخية ستمكن المؤرخين من ملء الصفحات المخصصة لتاريخ العرب القديم. ثم إن قصص الحيوان التي كان يمكن أن يستخرج منها رمز والتي كانت تعتمد لتجسيم موعظة دون أن تستغل استغلالاً مباشراً في صورة أدبية ستساعد على نشر مؤلف من أوائل المؤلفات في النثر العربي نعتي تعريب ابن المقفع للأمثال الهندية المعروفة بعنوان كليله ودمنة (1) وهذه الترجمة، لمجرد وجودها، وهو يعود إلى حوالي سنة 750، تدلّ على أن النثر العربي كان واقعاً. وإن المؤرخين الأوائل والمحدثين والمفسرين والفقهاء واللغويين قد كانوا فعلاً ساهموا أيما مساهمة في تهذيب لغة التخاطب التي كانت لغة ما جمعه من معلومات، وفي تبسيطها. وقد أمكنهم أن يتركوا لمن خلفهم في القرن VIII نثراً مستقلاً استقلالاً تاماً عن الشعر وعن النثر المسجوع، نثراً بسيطاً جافاً لا شك في ذلك، لا مرونة له تذكر ولا يزال غير ملائم بعد للتحارير الطويلة إذ أنه كان يحتفظ بمظهر لغة الخطاب وكان قلماً يستعمل غير العطف على أنه قادر على التحسن وعلى الاستقرار على يدي كاتب ذي موهبة.

1- ترجمه أ. ميكال كتاب كليله ودمنة باريس 1957. طبع الكتاب في نصّه العربي طبعات عديدة ومنها بتونس طبعة نشرت سنة 1976 بإشراف عبد المجيد عطية، والطبيب الكوش ورفيق ابن وناس.

[93] وفعلًا ففي الوقت نفسه الذي أسّس فيه جماعة من الفرس النحو العربي فإنّ اثنين من العجم ظهروا لخلق النثر الأدبيّ وهما عبد الحميد وابن المقفع. وإن اتّسع الامبراطوريّة وتركيز الإدارة كانا يقتضيان نظامًا إداريًا متخصصًا: غير أنّ العرب، وهم مثال الارستقراطيين، كانت تنقصهم القدرة على هذا النوع من العمل. فاقترضوا إذن على استعمال جهاز البلاد المفتوحة القديم وإنّما فحسب على عهد عبد الملك (685-705) أصبحت العربيّة بعد جمّ المصاعب، اللّغة الإداريّة. نعم إنّ التاريخ يذكر رسائل أرسلها محمّد والخلفاء الأوّلون غير أنّ هذه النصوص تنقصها الصّحة وإنّه يجب حقًا أن ننتظر القرن VIII للحصول على نماذج ثابتة من الأسلوب الرّسمي. وإنّ كاتبًا شاميًا قديرًا، عبد الحميد الكاتب (750م) هو منشيء هذا الأسلوب الإداري وقد عرض خصائصه العامّة في رسالة وجهها إلى الكتاب. وهو يضبط فيها لا فحسب آداب المهنة ولكنّه أيضًا يذكر برنامج الدّراسات للكاتب المنتظر موصيًا إيّاه بدراسة القرآن والشّعر وتاريخ العرب والفرس. وهو يدعو إلى أسلوب سهل لا فواصل فيه ولا استعارات مفرطة، يخضع فحسب إلى ضرورة أن يفهم عنه فهما جيّدًا. وهو نفسه قد أعطى المثل وكتب عدّة كتب وخاصّة نصائح في أسلوب الحكم موجّهة إلى وليّ العهد وكذلك مجموعة من الرسائل الخاصّة لا تزال تعتبر نماذج^[أ]. ويقلّمه نشأت الرسالة محرّرة في أسلوب ترسلي ومصحوبة بعبارات سلام. وهذا الشّكل الأدبيّ لم يفتنه أن يلقي استحسان العرب وإنّ مؤلّفات جدّ ضخمة تتجاوز أيّما تجاوز حدود مجرد الرسالة ستحتفظ طيلة القرون اللاحقة بما يوهّم بالرّسالة ويعنوانها وكذلك عباراتها المألوفة، في حين أنّه لن يكون لها أي صلة بالخطاب بالمراسلة.

أ - آثار عبد الحميد بن يحيى الكاتب نشر بعضها ضمن كتاب أ. ز. صفوت جمهورة رسائل العرب القاهرة 1937 وضمن كتاب محمد كرد علي رسائل البلغاء القاهرة 1946. وقد نشر احسان عبّاس كتابها عنوانه عبد الحميد ابن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي الملاء دار الشروق بيروت 1988.

والكاتب الآخر الإيراني الأصل والمزدكي المذهب الذي دخل في الإسلام، وهو ابن المقفع (قتل حوالي 757) يمثل^[94] النزعة الشرقية وهي أميل بصورة أوضح إلى إيران وقد دحضت نسبة الترجمات عن اليونانية التي إليه خطأ نسبت، غير أن الترجمات عن الفهلوية والآثار المبتكرة التي تنسب إليه هي في أغلبها صحيحة. وفعلًا فإن دوره في تطوير الأدب العربي دور مضاعف: فمن ناحية هو الذي ترجم كليلة ودمنة وعدة مؤلفات أخرى مثل خد أي نامته عن ملوك الفرس، وكتاب مزدك وكتاب التاج عن آداب بلاط الساسانيين فأدخل هكذا عند العرب عنصرا إيرانيا تاريخيا وأديبا الكتاب العباسيون سيتخذون منه غذاءهم. ومن جهة أخرى فإن مؤلفاته الشخصية^[أ]، وقد كتبها لغاية مماثلة لغاية عبد الحميد، توفر لنفس الكتاب بعض العناصر من الثقافة العربية ونصائح عامة. والنشر بعد هذين الرائدتين سيتطور في اتجاهين متقابلين قبل أن يكتسب طابعه النهائي. فهو في الفرع الأول لم يزد على أن استعاد الفكر والثقافة الفارسيين، وهذا الاتجاه جلي جدا عند سهل بن هارون^[ب] (م بداية القرن IX) وهو إيراني مناوي. للعرب وقد ألحق بببيت الحكمة (دار كتب المأمون) وكتب على غرار ابن المقفع كتاب ثعلاء وعفراء أنطق فيه الحيوان

أ - بعض آثار أبي المقفع (الأدب الكبير الأدب الصغير الدرّة البتيمة رسالة في الصحابة، الآثار الأخرى نشرت مع كليلة ودمنة في آثار أبي المقفع منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان. د.ت. والملاحظ أن شارل بلا حق وترجم رسالة في الصحابة ونشرها في طبعة نموذجية منشورات معهد الدراسات العربية والإسلامية جامعة الصربون باريس 1976.

ب - نسب إليه المصادر القديمة وخاصة الفهرست لابن النديم مجموعة من الرسائل والمؤلفات نحا في بعضها نحو ابن المقفع واحتفظت لنا بعض كتب الأدب مثل كتاب اليخلاء للملاحظ وزهر الآداب للحصري بنماذج من كتاباته وأن شك بعضهم في صحة نسبة بعضها إليه. ولعل أهم ما وصلنا من إنتاجه: كتاب النمر والشعلب وقد حققه وقدم له وترجمه إلى الفرنسية عبد القادر المهيري (رسالة تكميلية للأحراز على دكتوراه الدولة. ونشره ضمن منشورات الجامعة التونسية كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس 1973.

ورسالة في السياسة على السّنة الفارسيّة ومؤلفات صغيرة عن البخل، ضمن الجاحظ أنموذجا منها كتابه البخلاء، وإن سهلا، وذلك أكثر بكثير من سابقه، يمثل في الأدب العربيّ النّزعة الشعويّة التي ترمي إلى الحطّ من العرب بالإشادة بفضائل العجم وأعمالهم الخالدة وفي ذلك العصر فإنّ القائلين بتفوّق العرب لم يتبيّنوا بعد الخطر وإنما هم فحسب بعد ذلك بقليل في القرن IX سيردّون الفعل وسينتجون أوفر الآثار قيمة في النّثر العربيّ.

نهضة الأدب العربي

1258-750

لمحة تاريخية:

إنّ الإيرانيين بعد أن رفعوا العبّاسيين إلى الحكم (750) قد أصبحت لهم السّيادة في عهد الخليفتين العظيمين هارون الرّشيد (م809) والمأمون (م833) وقد كانا يقاومان القسطنطينيّة دون فائدة بالنسبة إلى الإسلام. وإنّ الحضارة العربيّة - وقد أثرتها الرّوافد الأجنبيّة، الفارسيّة، الهنديّة واليونانيّة - قد بلغت أوجها في منتصف القرن IX غير أنّ أعراض الانحطاط الأولى سرعان ما ظهرت دون أن تؤثر تأثيراً مباشراً في الأدب. واستخدام المرتزقة الأتراك والبرابرة والصقالبة والسود قد عرض الخلافة للخطر فالجند التركي قد تحكّم في الخليفة ثم إنّ الامبراطوريّة رغم استرجاع بعض النفوذ (بعد 869) قد تفكّكت، فإسبانيا والمغرب ومصر وسوريا وفارس قد أفلتت من الحكم المركزيّ في حين هدّد القرامطة أمن الدولة العبّاسيّة. وفي القرن X أسّس الفاطميون (شيعة) خلافة منافسة لخلافة بغداد ثم هم، بعد أن غادروا المغرب حيث تكوّنوا، قد استقروا بالقاهرة (969) وحاولوا غزو الشام من حيث سيطردون من قبل الأتراك السلاجقة سنة 1076 وبالمشرق ركّزت الأسر الحاكمة الإيرانيّة نفوذها. فالبهسيّون تمركزوا ببغداد (945) ولم يطردوا منها من قبل السلاجقة إلا في 1055. وقد أعاد هؤلاء الوحدة السياسيّة والدينيّة غير أنّ هزيمة أنطاكيّة (1098) قد أطاحت بدولتهم فتفتتت إمبراطوريتهم إلى إمارات وإنّ الأيوبيين وقد [96] أسّس دولتهم صلاح الدّين (1171)، هم الذين سيتولّون زعامة المذهب السنيّ. وبالمغرب وإسبانيا، بعد انحلال الخلافة الأمويّة وإنشاء إمارات صغيرة (XI) فإنّ المرابطين قد بسطوا نفوذهم (1084) ثم أطاح بهم الموحدون بداية من 1121. وإنّ الإمبراطوريّة الموحدية قد أنحلت هي بدورها ونشأت دول مستقلة وأطرد المسلمون من إسبانيا سنة 1492.

أما بالمشرق فإنَّ الأيوبيين قد عوَّضهم قداماء مرتزقتهم المماليك، في منتصف القرن XIII وهؤلاء هم الذين سينقذون قسما من الإسلام من غزو المغول الذين استولوا على بغداد سنة 1258 وقضوا على الدولة العباسية وكان دورها قد كان تقلص منذ قرون إلى دور صوري.

مصادر ومراجع:

يمكن الرجوع بالنسبة إلى تاريخ هذا العهد إلى الكتب العامة المشار إليها في بداية الفصل السابق وكذلك إلى مؤرخي الحروب الصليبية، وإن كتاب آدم ميتز "الحضارة الإسلامية". هيدلبرق 1929 قد ترجم إلى الأنكليزية والاسبانية والعربية^[أ] ولكن الترجمة الفرنسية لا تزال تنتظر ناشرا.

أما بالنسبة إلى إسبانيا فالنظر في كتاب أ. ليفي بروفنصال تاريخ اسبانيا الإسلامية 3 مجلدات باريس ليدن 1950-1953 مفيد. وبالنسبة إلى الأدب فإنَّ الدِّراسات الجزئية عديدة وسنذكر بعضها غير أنَّه لا يوجد أيَّ عمل تألّفي بالفرنسية عدا الكتب العامة المذكورة سابقا.

والمحاضرات المجموعة في ر. برنشفيف وج فرنهاوم "الكلاسيكية والأقول الشَّعافي في تاريخ الإسلام" (ملتقى بوردو 1956) باريس 1957 تبسط عدَّة مواضيع مطروقة في الفصول التالية.

أ- عرَّه محمَّد عبد الهادي أبو ريده بعنوان "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام" مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ط4، 1387 / 1967 والملاحظ أنَّ محتوى الكتاب أشمل بكثير ممَّا يدلُّ عليه عنوانه.

غير ممكن أن نتبين توافقا دقيقا بين تطور الوضع السياسي ونمو الأدب العربي خلال قرون خلافة العباسيين الحقيقية أو الوهمية الخمسة. فما دامت بغداد مقرّ الحكم المركزي فإنّ العاصمة ظلت قطبا جذب علماء وشعراء وكتّابا آفاقيين وجدوا لدى الخلفاء وكبار الدّولة قبولا كثيرا ما كان قبول مجاملة^[97] فالعباسيون الأول كانوا لا فحسب ميسانيين ذوي أبهة بل كذلك مفكرين نيرين شجّعوا العلماء وعملوا على ترجمة كتب أجنبية ووضعوا على ذمة الباحثين المراصد والمكتبات. وإنّ انصهار الأجناس ومخالطة عناصر جاءت من جميع جهات الإمبراطورية وإدخال منتجات الفكر اليوناني والشرقي قد ساعدت العرب على تعلّم التفكير وقد نتجت عن منهج توفيقّي خصب المدراس التي طبّقت على الإسلام طرقا جديدة. غير أن ما ظهر في البداية من شغف بالفلسفة اليونانية وتأثير الثقافة الفارسية قد لقي أعداء ألداء عنودين إلا أنّهما لقيّا كذلك مفكرين أكثر تفهما حاولوا أن يصهروا مختلف الثقافات محافظين للعروبة والإسلام على المقام الأوّل. ومنذ نهاية القرن IX فإنّ تركيب العناصر المختلفة قد تمّ ضمن خلاصة تأليفية توفيقية أكثر ثراء في الحقيقة على المستوى الفكري منها في ميدان الأدب الصّرف.

وإنّ الشّعور، وقد نافسه النّثر مدّة، مالبث أن استعاد حقوقه ومنذ القرن X عاد النّثر المسجّع إلى الوجود في حين أنّ النّثر البسيط، وهو لم يعد يعتبر فناً تعبيرياً على درجة لا بأس بها من الأناقة، قد ترك للفلاسفة والمفكرين والعلماء من جميع الاختصاصات ولذلك فإنّ روائع الأدب نثرا يعود تاريخها تقريبا جميعا إلى القرون العباسية الأولى. وإنّ تفتّت الإمبراطورية لم يحدث البتّة فتورا واضحا في الحركة الفكرية والأدبية بل يمكننا أن نقول إنّها نمت إذ أنّ الإمارات الجديدة أصبحت مراكز هامة جذبت ذوي المواهب من الجهات. وإنّ الميسانية، وهي لم تكن أبدا مجانية، قد شجّعت الأعمال المفيدة أي أساسا

عمل العلماء والشعراء وقد انقلب الفن عند هؤلاء صناعة. ولم يزل للنثر الأدبي بعض الأنصار غير أن النثر المسجع، وهو صورة دنيا من الشعر هو الذي لقي الرواج الأوسع.

[98] الشعر

ان سقوط الامويين وقيام العباسيين لم يؤدباً البتة إلى انقطاع مفاجيء في تطور الإنتاج الشعري: فلا يزال هناك خلفاء يمجّدون وعظماء يمدحون وأعداء يهجون بل إن بعض الشعراء يبدو أنهم لم يتفطنوا حتى إلى تغيير السّلالة الحاكمة فلم يتردّدوا في أن يقدموا إلى الخلفاء الجدد مدائحهم منظومة في حماسة متصّعة تماماً كما كانوا من قبل يفعلون وقد وصل بهم الأمر أحياناً إلى حرق ما كانوا قديماً يعبدون وإنّما على صعيد آخر ظهرت آثار الثورة التي قامت منذ قليل. فالواقع أن أعلام الحركة الشعرية في العهد الأموي كانوا عرباً خلصاً وقد كانوا مع تجديدهم أحياناً القوالب القديمة يتبعون إلى حدّ بعيد السّنة التي أورثهم إياها أجدادهم على أن أقلّ الشعراء محافظة لم يكونوا قطّ من العجم فهؤلاء، وقد قبلوا حديثاً في صلب الإسلام، كانوا قد تعرّبوا إذ كانوا يرون مستقبلهم في إسلام عربيّ. أما بعد قيام العباسيين فإنّ الحالة قد تغيّرت قليلاً لأنّ العجم وخاصّة الفرس منهم كانوا قد لعبوا في السياسة دوراً رئيسياً. إنهم، وهم يستعيدون شعورهم بقوميّتهم، وإن كانوا لا يزالون يشعرون بأنهم عاجزون عن إحلال لغتهم القوميّة محلّ تلك اللّغة الدينيّة التي هي العربيّة قد حوّلوا المعركة إلى ميدان آخر. وإنّ هؤلاء الفرس يحذقون العربيّة بل إنهم يحذقونها إلى حدّ أنّه يمكنهم أن ينافسوا في ذلك العرب الخالص. وإنّما في هذا الميدان على وجه التدقيق، سيكون لهم أعظم الأثر. وإنهم أيضاً لمسلمون وإن ظاهرياً على الأقلّ ولهم بهذا الاعتبار سلاح خطير ضدّ الإسلام وقد حاولوا أن يقوّضوا أركانه وما ذلك على الأغلب لإحياء ديانتهم الخاصّة المزدكيّة لكن

لمجرد إضعاف العرب الذين هم [99] حماة الإسلام فهذا العداء بين الجنسين وقد تعلق كل منهما بامتيازاته قد تجسّم في النطاق المحدود، نطاق الشعر، في معركة حقيقية بين القدماء والمحدثين ستنتهي بحلّ وسط يكون للقدماء فيه في نهاية الأمر الغلبة ما أن يضعف تفوق الفرس السياسي.

وهؤلاء الأعاجم وقد استغلوا تسامح العباسيين الديني، لم يخفوا البتة عقائدهم الخارجة عن الإسلام ولا حتى إلحادهم. وهم حين كانوا يخوضون جادين في مسائل هامة اندفعوا في تيار الزندقة^[أ] في موقف معاد للإسلام جلب لأوائلهم التتبع والقتل باسم السنة. وإن الزندقة في آخر القرن VIII ثم خاصة في بداية IX وقد تبين أنها لغلوها عقيمة وخطيرة، قد خفت حدتها وآلت إلى مجون وعادات إباحية وخلاعة تنم عن عداوة صريحة للإسلام بقدر ما تنم عن استخفاف كلي بقيمه. وإن الشعراء وهم لاشك في مقدرتهم، قد تفتنوا عند ذاك إلى أنهم يهراقهم دموعا متكلفة على ربوع مهجورة ويوصفهم للنوق ولأسفار خيالية عبر الصحاري إنما هم يحطبون في جبل العرب وينساقون مع ما يفرضه عليهم فرضا المتغلبون عليهم. والقصيدة الكلاسيكية لا يزال لها بعد أنصار متأخرون حتى من بين العجم وبعض الشعراء لا يزالون يصوغون "جديد المعاني" صوغا قديما غير أن القوالب القديمة ظلت تترى يوما فيوما لينسجم الموضوع والاسلوب بصورة أكثر واقعية والقصيدة لا تزال تعتمد هيكلها للمدح

أ - عن هذا التيار انظر مثلا مقال فايدا: الزنادقة ببلاد الاسلام في بداية العهد العباسي وقد نشر بالفرنسية بمجلة الدراسات الشرقية العدد XVII سنة 1938 أو مقال فيريلي: "الزندقة في القرن العباسي الأول" ضمن أعمال ملتقى استرازابور لمركز الدراسات العليا لتاريخ الاديان (جوان 1959) نشر مطابع فرنسا الجامعية باريس 1961. وآخر ما صدر عن الزندقة كتاب بالفرنسية عنوانه الزندقة والزنادقة في الاسلام في القرن الثاني للهجرة نشر سنة 1993 بالمعهد الفرنسي بدمشق وكان مؤلفه ملحم شكر نال به الدكتوراه من جامعة السربون بباريس.

غير أن رأس المحدثين، أبا نواس، قد حاول الإفلات من ذلك بينما اختار في سائر نظمهم -واقفتي أثره في هذا شعراء عصره- شعرا خفيفا عابثا ترجم فيه عن عواطف الحب الحسني أو الشاذ حيث أصبح انحلال الأخلاق والخمرة ومشاهد الخلاعة والتشكك الديني في مستوى الأغراض الأساسية [100] والقطع القصيرة والعفوية تنظم على بحور قصيرة وخفيفة إذ الأفخم منها تخصص للمدح- وإن المحدثين، رغبة منهم في اظهار قدرتهم على منافسة البدو وامتلاكهم ثروة لغوية كبيرة قد خضعوا إلى السنة غير أنهم التجأوا إلى بحر الرجز في طرديات تزخر ألفاظا فنية ثم إنهم قد حاولوا في أخريات حياتهم التكفير عن ذنوبهم فنظموا قصائد ذات طابع ديني.

وبينما بدا أن هؤلاء المحدثين قد تغلبوا فترة وأن الشعراء الحضريين، وهم يطرقون أغراض الحياة في العاصمة، قد عفوا على البدو فإن السنة القديمة ما انفكت حية وكان اشتهاار الشعراء المجان قصير الأمد . وطوال النصف الثاني من القرن IX ضعف التأثير الفارسي وبدأت مقاومة ما سبق من تجديد. وهذه المقاومة، وقد كانت رسمية وبإيعاز من الخلفاء في ميدان علم الكلام والفقه، قد كانت في ميدان الشعر مبادرة شخصية. إن الماضي القريب لم يحطم ولكن الهياكل القديمة قد استعادت حظوتها ونشأت كلاسيكية جديدة فرضت بصورة نهائية وإن هذه المدرسة قد استمدت عناصرها الأسامية من الشعر العربي في القديم وقد أثراه العجم بما أضافوا إليه وهكذا في القرن X طغى فن الوصف، وقد أدخله الفرس، على نصيب وافر من الشعر، ظهرت فيه الحاجة إلى رؤية الأشياء وتصويرها تصويرا فنيا وأنه لعلها، والقلم يعوض الريشة، قد تكاثرت بالاندلس والمشرق على حد سواء أوصاف الطبيعة وخاصة الرياض والأزهار...

وفي حين أشرف سلطان العباسيين على الأفول فإن بغداد، وقد كانت إلى ذلك الحين قد عفت على جميع عواصم الأمصار، قد ميل عنها إلى هذه حيث

سعى كل أمير إلى أن يجعل بلاطه نظيراً لبلاط الخليفة. وهذه العواصم الصغيرة قد استقطبت ذوي الطموح وفيهم من كان شاعراً مقتدراً. غير أن هذا الوضع الجديد لم يخل من العراقيل إذ أن وفرة العرض وانحطاط الذوق وثرأء كامل الإنتاج^[101] وتحديد نطاق المواضيع المطروقة قد بعثت تنافساً حاداً اقتضى من الشاعر أن يتزوّد بزاد من القوالب الجاهزة يأخذها عن السلف فكان أن وقع الشعر في التصنع والتقعر والابتذال.

هذا هو بصورة عامة الخطّ البيانيّ للشعر طيلة القرون العباسية. وتفصيلاً يجدر لا أن نحدّد عصوراً بل على الأفضل أن نتتبّع تطوّر مختلف الأغراض ممبّزين بين الشعر النازع إلى الحداثة والشعر الكلاسيكيّ أو الكلاسيكي المحدث مولين عناية خاصة للشعراء الإسبان وهم، وقد تتلمذوا على مدرسة المشرق، قد أتوا بالجديد وأثروا قطعاً في شعر قروننا الوسطى.

الشعر المحدث

شعر الخمرة :

في العهد التي سبقت الإسلام، كانت القوافل تجلب الخمر من الشام والعراق ، وكان التجار يهودا ومسيحيين، يجوبون بلاد العرب ، عارضين هنا وهناك بضاعتهم في خيمة يشدّون إلى أعلاها راية كان المدمنون يتنافسون في شرف العودة بها عندما ينفد الزاد. فكان من الطبيعيّ أن تدخل الخمرة الشعر غير أنّها قد دخلت في صورة معان عرضيّة للتنبؤ به بثناء بعضهم أو كرمه، ومن ثمة فإننا نجد أبياتاً في الخمر ضمن العديد من الأشعار القديمة توصف فيها رائحة الخمرة ولونها والكؤوس التي تدار على الندامى وزقاق التجار. وهي مجرد أوصاف خارجيّة لا تكون بعد خمريّات مستقلة. لكن بالحيرة تكونت سنة مع شعراء كالأعشى وعديّ بن زيد، أضافوا إلى الأوصاف معاني أدق^[102] ونظموا أغاني قصرها على هذا الشراب وآثاره.

ولم يكن الحكيمون والمدنيون في عهد محمد يحرمون أنفسهم من شرب الخمر، ووجد الرسول نفسه مضطراً إلى تحريمها وهذا التحريم، على أنه غير بين، (1) قد أثار مناقشات كان للجدل فيها مجال غير أن فقهاء الإسلام هم بصورة عامة قد تمسكوا بلفظ القرآن حتى أن تحريم الخمر والكحول قد أصبح علامة مميزة للعالم الإسلامي لكن الشريعة كثيراً ما حصل الخروج عنها. ونحن نعلم أن الخلفاء الأمويين والعباسيين أنفسهم كانوا مواظبين على شرب الخمر^[أ] ومن باب أولى وأحرى الشعراء أصحاب السلوك المريب. وفي القرن VII فإن بعض الحضريين أمثال ذي كنان^[ب] ومالك ابن أسماء بالكوفة^[ج] وحارثة بن بدر^[د] بالبصرة والأخطل، وقد كان نصرانياً، والوليد II بن يزيد كانوا قد حققوا لفن الشعر الخمرى بعض الاستقلال ممهدين السبيل للشعراء المجان وخاصة المتشككين في أمور دينهم في العصر العباسي الأول.

1- انظر القرآن XVI / 69 سورة النحل: الآية 67 «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ يَتَخَلَدُونَ مِنْهُ سُكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» II / 216 سورة البقرة الآية 219: «وَسَأَلْتَهُ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَتَاعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...» VI / 46 سورة النساء الآية 42 «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...» I / 92 - 93 سورة المائدة الآية 90 - 91 «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ / إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ».

أ- في الجزء الثاني من كتاب الفرج بعد الشدة للتوحي تحقيق عبود الشالحي دار صادر بيروت 1398 / 1978 أضاف المحقق صفتين 250 و 251 بين فيهما بالاعتماد على مصادر مختلفة أيام شراب الخلفاء ومقدار ما يشربون .

ب - هو عمار ذو كنان الهمداني من شعراء الزندقة والمجنون وفي أغاني الأصفهاني بقايا من أخباره وأشعاره يحسن جمعها

ج - مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري شارك في السياسة والأدب والمجون في كتب الأدب القديمة وخاصة أغاني الأصفهاني بقايا من أخباره وأشعاره

د - شعر حارثة بن بدر الغداني جمعه وحققه وقدم له نوري حمودي القيسي بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد 25 سنة 1394 / 1974

وأشهر من يمثل هذا الفن أبو نواس (م نحو 815) وهو بدون شك من اكبر الشعراء العرب له السيادة على كامل الشعر المحدث ، إن أبا نواس، وهو من أب عربي فقدّه وهو صغير جداً وأمّ فارسيّة خليعة ، قد قضى شبابه بالبصرة حيث حذق العربيّة حذقاً تاماً. بل انهم يزعمون أنّه قضى سنة كاملة في البادية لإتمام تكوينه، ثم إنّه، وقد أودع مساعداً لدى بعض العطارين، قد تعرّف إلى شاعر ماجن هو والبة بن الحباب^[أ] فعلمه شعر المجون. وهو، لما بلغ أشده، قد شدّ الرّحال إلى بلاط بغداد ، مغامراً وأصبح شاعر هارون الرشيد وابنه الأمين، وإن معرفته للشعر القديم وقد حصلها عن مدوّني اللّغة بالبصرة ساعدته على نظم قصائد مدحيّة على نمط الشعر الجاهليّ لا تدلّ إلا على إجادة في الصناعة^[103] غير أنّ أبا نواس ، وإن كان من غير الممكن أن نضبط الترتيب التاريخي لأشعاره ومن الصعب أن نتتبع تطوّرها، قد أصبح طريفاً منذ أن تخلّى عن المقدّمة الغزليّة وعوّضها في مدح الخليفة، بأبيات خمريّة، ولقد كان لا بد من التجرؤ جرأة كبيرة لمثل هذا التحرّر غير أنّه لا يبدو أنّه قد تحرّج من ذلك، وإنّ في مراثيه التي نظمها في أصحابه وحماته شعوراً عميقاً ونغماً غنائياً مؤثراً يغفران له بعض العيوب كالتصنّع في اللّغة والغلوّ الشرقيّ (أ. فون كريمر). وأهاجيه لاذعة، ساخرة، وإنّ لبعض لواذعه لطعماً حديثاً كل الحداثة، وإنّها هي التي قد تكون أدّت إلى هلاكه، فإنّ عائلة مرموقة قد أذاقته، ثأراً لنفسها، من ألوان العذاب ما أماته.

وشعره السياسي تمثّله بعض المدائح في اليمينيّة والفرس ليس فيها كبير طرافة ثم إنّه في أخريات حياته قد تفرّغ للشعر الموسوم بالشعر الزهديّ على أنّ بعض القصائد ذات الطابع الاخلاقيّ والدينيّ تعود إلى عهد أقدم .

أ- والبة بن الحباب الأسدي اشتهر بالغزل والمجون والزندقة والخمريات وتتلّمذ عليه فيها أبو نواس وفي كتب الأدب القديمة وخاصة أغاني الأصفهاني بقايا من أخباره وأشعاره جيّداً لو تجميع.

وكلّ هذا الإنتاج ، ما كان ليكسب أبا نواس، لاشكّ في ذلك ، شهرته العالمية لو لم يكن شعره في الخمر والغزل محور نظمه وحتى نقتصر هنا على قصائده الخمرية (1) سنعود في ما بعد إلى الحديث عن أشعاره الغزلية.

ويبدو أبو نواس خلفا للوليد II بن يزيد وبالتالي المواصل لسنة عدي بن زيد، غير أنّه بعد أن قلّد سابقه تحرّر من التقليد. وقد اقتصر في بداية الأمر على وصف الخمرة والأكواب والأباريق والندامي ومجالس [104] السكر متبسّطا في وصف قدم الخمرة المحتفظ بها في بطن الأرض، بعيدة عن الشمس والنار، ثم إنّّه قد جمع على العادة في إحدى القصائد جميع المعاني المعهودة: تشبيه الخمرة بفتاة مهرها غال والفخر بإنفاق على الثروة قاضٍ يجعل الشاعر في صفّ الخاصّة وهو ترف عليهم مقصور، وقدم الخمرة لم تمسّسها نار ولا شمس، وبعد المعاني التقليدية التي كنّا بصدد تعدادها فإنّ أبياتا كالثلاثة التالية تبعث نفسا جديدا (أ) [الخفيف]

يا غلام. المدام والكاس والطا	س وهيء لنا مكانا كأمس
واسقنا يا غلام حتّى ترانسا	لا نطيق الكلام إلاّ بهمس
خمرة قيل إنهم عصروها	من خدود الملاح في يوم عرس

1- انظر ابن الشيخ خمريات أبي نواس مجلة المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات الشرقية. XVIII، 1963-1964 وهذا الشاعر العظيم لنا يدرس دراسة مفردة بالفرنسية. وعلينا أن نعود الى الدراسة المعقّدة التي أعدّها عنه (بالألمانية) أ. فنار، فيسبادن 1965. وقد طبع ديوانه منذ 1861 مراكات عديدة بالشرق والغرب طبعات ضعيفة وأفضل طبعة هي فائتار المستشرق الألماني السابق الذكر وقد صدرت في جزأين 1: فيزيادن والقاهرة 1958 و2 فيزيادن بيروت 1972. والطبعة المتداولة أكثر من غيرها هي طبعة دار صادر وطبعة بتحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي بيروت 1412 - 1992. وأخيرا حقق بهجت عبد الغفور الحديثي ديوان أبي نواس برواية الصولي ونشرته دار الرسالة ببغداد سنة 1400 - 1980.

أ - نسبت هذه الابيات وهما الى أبي نواس والصحيح أنّها لحافظ ابراهيم.

غير أن تحول أبي نواس قد تمّ لما طلب أن يسبح للخمرة كما يسبح لله
وصاح [الطويل]

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر
فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة فإن طال هذا عنده قصر الدهر
وما الغبن إلا أن تراني صاحبًا وما الغنم إلا أن بتعتني السكر
فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر
فلا خير في فتك بدون مجاننة ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وأغلب معاصريه، وقد فضلنا تصنيفهم بين الغزلين، ينظمون بالمناسبة
قصائد خمريّة، معاني أبي نواس تعاد فيها وتطرق بدون إضافة ما هو حقاً
جديد. وقد نظم مسلم بن الوليد (823م) (أ)، وإن كان كلاسيكياً محدثاً في
أغلب [105] آثاره، أناشيد خمريّة يقارنونها بما نظم أبو نواس وقد صور
فيها، بطريقة جدّ موحية، مشاهد من الحياة، غير أننا قليلاً ما نحسّ فيها
"تدفّق النشوة الخمرية التلقائي كما نجده أحياناً كثيرة عند أبي نواس"
(نولدكه) وفي نهاية القرن IX فإنّ هذا الفن لا يزال يمثل تمثيلاً كاملاً خليفة
اليوم الواحد ابن المعتز (861-908) وهو قد ضمّن مختاراً عن الخمرة قصائده
الشخصيّة في الخمرة والشاربين [ب].

ورغم أنّ عدداً من الشعراء قد واصلوا السنته اللادينيّة فإنّ خلف أبي نواس

أ - «ديوان مسلم بن الوليد: نشره بليدن سنة 1875 المستشرق دي غريه وحققه ونشره في طبعة اتم وأفضل سامي الدهان بدار
المعارف بمصر رقم 26 من سلسلة ذخائر العرب (1376 - 1957).

ب - المقصود «كتاب فصول التماثيل في تباشير السرور» وقد حققه جورج فنازع وفهد أبو خضرة ونشر ضمن مطبوعات مجمع
اللغة العربيّة بدمشق سنة 1480 / 1989. وقد طبع ديوان ابن المعتز طبعات مختلفة أتمّها «شعر ابن المعتز صنعة أبي بكر
محمد بن يحيى الصولي» دراسة وتحقيق إعداد يونس أحمد السامرائي منشورات وزارة الاعلام بالعراق 1977 و 1978.

الحقيقي هو، على ما في ذلك من غرابة، متصوّف، ابن الفارض (1181-1235) [أ] وفي الرمزية الصوفية التي عرضها ابن العربي (1165-1240) (ب) فإن الخمرة وهي محرمة في الحياة الدنيا إلا أنها مخصصة لأهل الجنة، تمثل الحب الإلهي والنشوة الروحية وقد ألهم تمجيدها قصائد عديدة "وهذه القصائد الخاصة التي ينشدها المتصوّفون في حلقاتهم يقصد منها أن تشير في السامعين طرباً لا يخضع للعقل بطرق جمالية حتى يحدث ضرب من النشوة الاصطناعية (ل. ماسينوس) "فالخمرة" (1) وهي قصيدة ابن الفارض الرئيسية تعتمد إمكانيات الرمزية الغزلية والخميرة للتعبير عن الحب الإلهي وتمجد النشوة الصوفية بصور لا دينية وبكلمات رمزية لا بألوان من التجريد البحث.

أ - نشرت وترجمت إلى لغات مختلفة منتخبات من أشعار ابن الفارض والطبعة المتداولة لديوانه وهي غير علمية هي طبعة القاهرة (مصطفى الباهي الحلبي وأولاده 1372 / 1953).

ب - المتصوّك المشهور خاصة بالفتوحات المكية في أسرار المالكية والملكية (طبعت عديدة) وفصوص الحكم وخصوص الكلم. (طبعت عديدة) أما في ميدان الشعر. فقد طبع له الديوان (بولاق 1271¹ 1854) وترجمان الاشراف (طبعت عديدة الطبعة المتداولة طبعة دار صادر

1 - نقلها إلى الفرنسية أ. در منقام "مدح الخمرة" باريس 1931. المقصود مهمة ابن الفارض التي مطلعها [من الطويل]

شرينا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

(انظر ديوانه ط. 1 / 1372 - 1953 القاهرة ص 42-44)

الشعر الغزليّ

إنّ الشعر الغزليّ الذي أنشاه بالحجاز عمر بن أبي ربيعة أصبح عند المحدثين واضح الفحش وبشار بن برد (المقتول سنة 783) هو الممثل النموذجي لهذا الاتجاه ومنشئي الأسلوب الجديد^[أ]. فهذا الفارسيّ، وقد عاش بالبصرة وبغداد، كان مزدكياً أسلم ولم يكن يخفي ميله إلى ديانته الأولى وإلى أبناء جنسه وكان يسخر من العرب ويعبر عن^[106] آراء خارجة عن الدين. إنّه، وقد ظلّ في مأمن من العقاب بفضل مدائحه في الخليفة، قد دفع في نهاية الأمر حياته ثمناً لجرأته وفحشه. وأكبر الظواهر لفتاً للانتباه لمن يدرس حياته هو عدد الانتصارات الغرامية لهذا الرجل الذي كان أعمى، قبيح المنظر، وإنّه فعلاً مدين بشهرته إلى شعره، ومنجاته من العقاب إلى الرعب الذي توحى به أهاجيه التي كان القوم يخشونها.

ان بشاراً، وهو خبير باللغة العربية إلى درجة أنّ اللغويين كانوا يستشهدون به على أنّه حجة، كان ينظم خاصّة "قصائد" لها عدد قليل من المعاني الجديدة في مهارة لا تضاهي مفضلاً المواضيع الهامة والملتعة. إنّه، وهو مادّي متعلّق بالملذات الحسيّة قد كان يعبر بدون مراوغة وفي لغة جدّ صحيحة وفي أشعار من طراز عال عن إحساس باللذة الحسيّة يروق معاصريه.

وعليّنا أن نذكر بعد بشار مجموعة كاملة من شعراء البلاط كانوا ينظمون بالإضافة إلى المدائح وأشعار المناسبات مقطوعات قصيرة لطيفة باللغة الفحش أحياناً يحتلّ فيها وصف النساء والحب المنزلة الكبرى. وفعلاً فإنّ تكوين القيان

أ - ما بقي من ديوانه حققه محمد الطاهر بن عاشور ونشره في 3 أجزاء أضاف إليها في جزء رابع ملحقات الديوان أي ما جمعه من مصادر مختلفة وذلك بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1373 / 1954 وما بعدها وقد أعادت نشره دار العروسة للنشر سنة

والمغنيات(1) وبيعهن قد أصبحا في ذلك العصر مهنة مدرازا إذ أن جميع الأوساط الاستقرائية والبرجوازية قد كانت تعودت أن تتخذ لها بصورة دائمة أو ظرفياً بعضاً من هؤلاء النسوة اللواتي كنّ يجمعن إلى مفاتهن الجسميّة ثقافة فنيّة وفكريّة عميقة ويظهرن أقدر من الحرائر وهنّ عادة أميات على أن يلهمن حباً حقيقياً. واللقاءات بالمجالس في الأقاليم وبالبلاط كانت تجمع حول ربّ البيت أو الخليفة البعض من أولئك القيان وشعراء ينظمون الأشعار في كل حين. وهذا الجوّ كان، والقارىء يدرك ذلك - ملأها تمام الملازمة لظهور شعر غزلي بسيط إلا أنه يطفح رقة وواقعية وبراعة، والأشعار [107] التي نظمها في تلك الظروف مختلف الشعراء وكذلك أحيانا قيان لم ينقصهنّ لا الجراة ولا النكتة، قد تملأ مجلدات وتصور لنا تصويراً دقيقاً مبيناً أسلوب الأوساط الراقية في العيش وعلينا أن نقتصر على بعض الأسماء نختارها من بين أكثرها تمثيلاً.

إنّ العباس بن الأحنف (م808)، وقد كان صاحب هارون الرشيد الأليف، شاعر غزل محض، شعره الغزلي قد ظل عفيفاً على طريقة الشعراء العذريين كله إحساس ورقة [أ]. والحسين بن الضحّاك (م بعد 869) [ب] له أهميّة باعتبار التأثير الذي كان له في صاحبه أبي نواس. وشعره يأخذ من جميع الأغراض التي كانت سائدة في عصره وباستثناء مدائحه ومراثيه فإنّ القسم الأكبر من إنتاجه يتكوّن من قصائد غزليّة وخمريّة وهو، وقد كان خليعاً في غير ما فحش وأقل تنوعاً وعمقا من أبي نواس، قد نظم شعراً متناسقاً موقّعا

1- انظر: القيان للجاحظ بمجلة دراسات عربية 2/ 1963 (بالفرنسية) انظر النص العربي من ص 139-182 من الجزء الثاني من رسائل الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة 1384 / 1965

أ - نشرت ديوانه عائكة الخزرجي مطبعة دار الكتب المصرية 1954 وقد نشر أيضا بدار صادر دار بيروت 1385 / 1965 وأعدت عنه أطروحة دكتورا بالصرب سنة 1956 ثم عرّتها ونشرتها بدار الحرية للطباعة ببغداد 1397 / 1977.

ب - انظر الحسين بن الضحّاك حياته وشعره تأليف شرقي رياض أحمد. القاهرة 1392 / 1972 وقد نشر بعض أشعاره أحمد عبد الستار فراج بدار الثقافة ببيروت سنة 1960

واكتشف معاني طريفة، صاحبه قد أغار عليها ليدخلها ضمن شعره الخاص حتى إنه كثيراً ما يصعب أن نتبين ماهو لكل منهما في ميدان الأدب.

ثم إن أبا نواس وهو الذي يجب أن نذكره بالنسبة إلى جميع الأغراض الشعرية قد خصص قسماً هاماً من ديوانه للغزل فقد تغنى غناء الرجل الشهوان وإن بدت عليه رقة العاطفة أحياناً، بحبه الحقيقي أو المتكلف لقيان خلد أسماء من غير أن شعره يبلغ التحدي والإسفاف حين يصرح شأن أستاذه والبة بأنه يفضل الغلمان أو - وذلك ما لا يكاد يكون أحسن - "الغلاميات" اللواتي أدخل في جراءة أنموذجهن في الشعر العربي. ولغته، كما هو الشأن في قصائده الخمرية، لغة سهلة واضحة لا تكلف فيها رغم أن إشارات عديدة خفية وحالة ديوانه الرديئة قد جعلت بعض المقاطع غامضة.

ونتردد في أن نختم هنا قائمة غزلي القرن VIII وبداية IX لشعورنا عميق الشعور، ونحن نقرأ على عجل مجاميع التراجم والمختارات المخصصة^[108] لذلك العصر، أن الظرف وخاصة في العاصمة كان يحمل جميع الشعراء على حياة الطيش والخفة حتى إنه إذا ما استثنينا المدائح الضرورية لضمان عيش النازحين وإذا ما استثنينا كذلك الأهاجي واللواذع التي لا مفر منها في ذلك الوسط حيث كانت العداوات الشخصية أمراً مألوفاً فإن المواضيع المفضلة لديهم كانت الخمرة والحب مع جميع الأوصاف الثانوية التي تصحبهما. إن تصوير حياة الخلاعة أو على الأقل الحياة المنحلة وإهمال الواجبات الأساسية التي تفرضها الأخلاق الإسلامية والميل إلى التشكك في الدين قد حملت بعض الشعراء - وليسوا من أقل الشعراء قيمة - على أن يراجعوا في أخريات حياتهم أنفسهم وأن يقفوا براعتهم على شعر يخالف بصورة عجيبة لطابعه الأخلاقي ما نظموا سابقاً من أشعار.

وهنا كذلك فإننا نلاقي من جديد أبا نواس وزهدياته أي قصائده التي تنتسب في الآن نفسه إلى شعر الجاهلية الحكمي وإلى إنتاج شاعر أخلاقي وإن كان قد قتل سنة 783 على أنه من المنتسبين إلى الزندقة والمنوية وهو صالح بن عبد القدوس^[أ] لكن في هذا الميدان فإن الشاعر الأشهر هو أبو العتاهية (748-825 تقريباً)^[ب] إنه وهو من أصل بدوي قد عمل مدة فخارياً بالكوفة ثم ارتحل إلى بغداد وتوصل، بعد أن انتظر مدة، إلى أن يقبل بالبلاط. وهو، شأن أمثاله من شعراء البلاط، قد تعاطى في بداية الأمر شعراً خفيفاً ونظم مدائح وقصائد مناسبات وأهاجي ومراثي وقصائد غزلية غير أنه ما فتىء أن تحول إلى غرض أكثر جدّاً ووقف نظمه على الشعر الديني «وان خاصيته الأساسية هي تشاؤم الشاعر الواضح، والزهد سببه بطلان الحياة الدنيا. يقول: [من الرجز]

ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بالوان القذى

غير أنه رغم ذلك الأسلوب القاتم في تصوّر العالم فلا مجال^[109] للتباكي المائع وإنه يحمل في قوة وعزم إن لم يكن في ابتهاج ومرح، عبء الحياة إذ أنه هكذا يجب أن تكون الأمور (ج اسطروب) وإن تشاؤمه الذي يظهر في أبيات مثل هذا [من الوافر]

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلّكم يصير إلى تباب

يصحبه تسبيح دائم لله تجاه الكفر المتعاضم، وإن نزعة وعظيمة تحمله على أن يجمع في قصائد بسيطة كل البساطة حكماً وابتهالات تقريباً على طريقة بعض شعراء الجاهلية الحكماء. وأبو العتاهية هو في الجملة الشاعر الأخلاقي الكبير الأول إن لم يكن الفيلسوف : وإنه بهذا الاعتبار لم يكن دائماً يستحسنه معاصروه ولا سيما الخاصة الذين كانوا يعتبرون شعره خطراً على العامة الذين كان يتجه اليهم بالدرجة الأولى

أ - جمع أشعاره وحققها عبد الله الخطيب ونشرتها دار منشورات البصري بغداد 1967.

ب - طبعة ديوانه العلمية هي: أبو العتاهية أخباره وأشعاره تحقيق شكري فيصل. مطبعة جامعة دمشق 1384 / 1965

الرجز (1) :

يتكوّن بحر الرجز من تفعيلة مقطوعها الأوّل طويل (- - - - -) تتكرّر ست مرات، لكن في الشعر القديم وكذلك في النماذج اللاحقة فإنّ البيت النموذجي قليل في حين أن صيغة تتركّب من أربع تفاعيل فحسب هي أكثر وروداً، وفي هذه الصيغة فإنّ الأبيات التامة ذات قافية واحدة غير أنه كثيراً ما يكون للمصراعين نفس القافية فيحصل بذلك أبيات قصيرة مستقلة ذات ثلاث تفاعيل أو تفعيلتين بل تفعيلة واحدة، وفي العهد الجاهليّ فإنّ الأبيات علي بحر الرجز تظهر في قصائد حرب أو مناسبات في مقطوعات قصيرة حيث يبدو أنّ هذا البحر السهل قد عوض السجع، ومن الممكن كذلك أن يكون^[110] الرّجز قد استعمل في مقطوعات أخرى قد تكون أقرب الي «الشعبيّة» منها الي الأدبيّة ومن ثمة فقد أهملت من قبل اللغويين، ومهما يكن من أمر فإنّه قد ظهر في آخر العهد الأموي نوعان جديدان : إما أن يقع التصريح بين بيتين قصيرين وإما أن تغيّر القافية بعد كل خمسة أبيات. غير أن هذا النظام المقطعي لا يبدو أنّه قد لقي نجاحاً كبيراً وإنّما الأرجوزة هي التي كثيراً ما نظمت وهي إمّا ذات قافية واحدة مصرّعة الأبيات أو مكوّنة من مصاريع قافية كل اثنين منها واحدة وينسب إلى الأغلب بن جشم^[أ] (ق VII) فضل كونه أوّل من نظم قصائد على هذا البحر الذي يعتبر دون سائر البحور وفي نهاية القرن VII وبداية VIII فإنّ أسرة من الشعراء بالبصرة العجاج وابنه رؤية وحفيده عقبه^[ب] قد نشروا ذلك الأسلوب في النظم وهو يتميّز عن

1- انظر م. أولمان: آراء في الرّجز: فمسهان 1966

أ - الأغلب بن جشم المعجلي من المخضرمين المعمرين في كتب الأدب القديمة وخاصة الشعر والشعراء لابن قتيبة وأغاني الاصفهاني بقايا من أخباره وأرجوزه.

ب - أسرة عاش أفرادها بين القرنين I و II للهجرة. اهتم القدماء بانتاجهم وخاصة أرجوزهم ونشر بعض العرب والمستشرقين حديثاً بعض آثارهم نذكر منها خاصة ديوان العجاج طبع أهلوارد. برلين 1903 وكتاب عبد الحفيظ السلطي: ٣ العجاج حياته ورجزه دمشق وكذلك ديوان رؤية (مع ديوان أبيه بعناية اهلراردت وكتاب محمد توفيق البكري: أرجوز العرب القاهرة 1313 / 1895

القصيدة فحسب بتغير القافية وتراكم الألفاظ الغريبة وفي هذا العهد - وتلك ظاهرة جديرة بالملاحظة - فإن الشعراء الذين كنا ذكرناهم وبعض الآخرين، أبا النجم^[أ] والعماني^[ب] خاصة، قد تخصصوا في هذا الفن ولم ينظموا قصائد في حين أن بشارا قد اعتبر مثالا قادرا على النجاح في الفنين وفعلا فإن شعراء العهد العباسي المحدثين قد استولوا على الرجز غير أنهم لم يجعلوا منه اختصاصا لهم: فإن الرجز، وقد كان بحرا مألوفاً في أشعاربدو الجاهلية الشعبية ثم خصص في القرن VII لمقطوعات قصيرة تصف حالات نفسية وحيوانات ومشاهد صيد وتقص قصصاً مرحة، قد اكتسب في عهد العباسيين قيمة خاصة وبدا من ذلك العهد قد انحصر في الطرديات والقصائد التعليمية.

وهذا البحر البدوي المحض، نفهم كيف أن المحدثين لم يستعملوه إلا قليلاً في مدائحهم إلا أنه كان يتيح لهم بفضل غرض الطرد فرصة لعرض تبخرهم ومعرفتهم الحياة البدوية، معيار الشعر العربي الدائم^[111] وإن أبانواس، ونحن نجده بهذا الصدد أيضاً قد ترك لنا من ذلك بعض النماذج صعوبتها قد صدت إلى الآن الناشرين الجديين.

وإن فناً آخر كان يمكن للأرجوزة أن تساعد عليه هو الملحمة، وقد جرت العادة أن يقال إن فن الملحمة لم يطرق من قبل العرب لأنه يقتضي قصائد طويلة قاعدة وحدة القافية تحول قطعاً دونها غير أن الرجز يمكن منها بل إن بعض المحاولات قد تمت في هذا الاتجاه إلا أنها قد فشلت لأن الملحمة على لسان العرب تتحول شعراً تاريخياً. تلك هي محاولات ابن

أ - هو أبو النجم بن الفضل العجلي توفي بعهد سنة 105 / 723 وقد نشرت بعض أرجوزه في كتاب الطوائف الأدبية للمصنف الراجكوتي القاهرة 1937.

ب - محمد بن ذوق النارمي من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ومن شعراء الرجز وفي كتب الأدب القديمة وخاصة الشعر والشعراء لابن قتيبة وأغاني الأصفهاني بقايا من أخباره وأشعاره وأرجوزه يحسن أن تجمع.

(XII) (ب) قد أصبح بالتالي مؤلفا تاريخيا حقيقيا. فلو أن التاريخ كان قد درس بطريقة منهجية عند العرب لكانت الملحمة ربما نشأت عن الفن التعليمي وقد راج رواج عظيم مستفيدا من إمكانيات الرجز.

ومنشئ الشعر التعليمي شاعر قد عرف كذلك بلواذعه السامة وخصوماته مع أبي نواس، وهو أبان اللأحقى (م 815) (ج) وقد كان مؤدب أسرة الوزراء الشهيرة البرامكة - وقد رأى أن ينظم لتلاميذه شعرا نص كليله ودمنه النثري وكذلك بعض التعاليم الإسلامية بل ونظرية حول نشأة الكون. وآبنه ألف بدوره بحثا كاملا في الحب، هو حسب قوله - «للعشاق الذين تركوا لشأنهم وحرموا مساعدة الكتب».

وهذا الشعر التعليمي، وهو يستجيب لميل العرب [112] الفطري إلى النظم، ويسحر آذانهم ويعلق بذاكرتهم، سيشهد تطورا عجيبا. والعديد من الشيوخ سيهتمون إهتماما بالغا بتسهيل مهمة تلاميذهم مقدمين اليهم مختصرا

٢ - في الجزء الأول من ديوانه طبعة بغداد ص 519 - 591 قصيدة مزدوجة نظمها لنا بلفه أن الخليفة المعتضد بأمر الله أمر بتأليف كتاب في سيرته

ب - وردت الأرجوزة في نهاية الباب XV أو المسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم من كتاب العقد (مختلف الطبقات)

1 - نقلها إلى الفرنسية فانيان في تاريخ الموحدين وإلى الإسبانية برونس براق بحث في تراجم المؤرخين والجغرافيين العرب الأندلسيين ومصادرها ومراجعتها مديريد 1898 ^١والصواب أن القصيدة تسمى البسامة ومطلعها (البسيط)

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصود

وقد أوردها مثلا عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب في تلخيص أخبار المغرب

ج - عن أبان اللأحقى وأسرته أعد فريد غازي أطروحة تكميلية بالصرب سنة 1953 لا تزال مرفوعة.

منظوما عن فنّهم - وهكذا فإنّهم سينظمون النحو (والفِية ابن مالك م 1274
كلاسيكية في تعليم العربية) ومخارج الحروف والفقّه (تحفة ابن عاصم م
1246 تقدّم في 1698 بيت مختصرا سهلا) [أ] والمنطق والبلاغة والجغرافيا
ونتيجة هذه الطريقة هي أنّها عوض أن تعتمد على أنّها مجرد وسيلة للحفظ
فإنّ المعنيتين بالأمر قد مالوا إلى الاكتفاء بهذه الكتب التي هي بالضرورة غير
تامة والي الاعتقاد أنّ معرفة الارجوزة توفر لهم علما تاما وتعفيهم من الرجوع
الي المصادر الحقيقية.

أ - تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام أو العاصمية وهي في 1698 بيت من الرجز في الفقّه المالكي قد
طبعت مرارا.

الشعر الكلاسيكي والكلاسيكي المحدث

أن نميِّز بين الشعراء أصعب من أن نميِّز بين الآثار التجديدية والكلاسيكية أو الكلاسيكية المحدثة إذ أنه من النادر طيلة العصر العباسي الأول أن يقصر شاعر نظمه على القصائد على الأسلوب الجاهلي. غير أن هذا كان شأن أبي عبيدة (م حوالي 833) (أ) وقد كان يتوجّه في نسب قصائده إلى امرأة تدعى دنيا ويخصص الأبيات الأخرى للمدح وشكوى حاله والوصف والهجاء، وبعض النقاد قد رأوا فيه شاعرا مطبوعا إلا أنه لم يكتسب شهرة واسعة، وأشهر منه بكثير مسلم بن الوليد (م 823) وقد قدّم قسما هاما من إنتاجه إلى أولياء نعمته الكثيرين ودخل مع شاعر آخر (ب) في خصومة على أسلوب أهاجي العهد الجاهلي القديمة، وخمرياته قد أجبرتنا على أن نذكره بين المحدثين، غير أنه في أقسام ديوانه الأخرى يبدو [113] واحدا من الكلاسيكيين المحدثين الأوّكين. وهو من ثمة قد أثر تأثيرا كبيرا في عدة شعراء بعثوا الأسلوب القديم وخاصة في أبي تمام.

وعند الكلاسيكيين المحدثين فإن الهياكل هي نفسها التي كانت في العهد الأموي، وقصيدة الهجاء كثيرا ما تتخلّص من ذكر الموسم بها لتصبح قطعة من اللواذع والقصيدة قد حافظت على شكلها الثلاثي مع مقدّمة طلليّة قصيرة نوعا ما وتكون دائما تقليدية وأما المراثية فقد حافظت على شكلها الجاهلي الثنائي إلا أن الحكّم قد أصبحت لها قيمة أكبر.

أ - جمع محمد عامر غديرة أشعار عبد الله بن محمد بن أبي عبيدة وأشعار أخيه أبي عبيدة وحققها وقدم لها بمقدمة فرنسية ونشرها بمجلة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق المجلد XIX سنة 1967

ب - قد يكون المؤلف يشير إلى ما كان بين مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر من تهاج ونقائض على أن الهجاء في ديوان مسلم بن الوليد قليل قليل.

وغرض المدح وهو الأكثر تداولاً له ثراء لغويّ عجيب والأصل قلماً يجدد
فلنا مدائح مغالى فيها يمكن أن تسند بدون تمييز الي جميع شخصيات الطبقة
الواحدة بتغييرات جزئية بسيطة، وغرض الهجاء يتكوّن من نكات مباغطة
وشتائم فاحشة غير أنّ مثل تلك القطع لا تخلو البتّة من الرقّة، والشعر
الحكميّ يشتمل دائماً على خواطر ساذجة في مصير الانسان وصعوبة الحياة،
والإسلام لم يكد يلهم طريفاً والقصائد الدنيّة، وهي ذات قيمة وثائقية لا شكّ
فيها كآثار المعتزلة مثلاً، ليس لها قيمة شعرية، والوصف وقد كان من قبل
معروفاً جداً من قبل الشعراء القدامى قد تطوّر واستمد معانيه الأساسية من
الرياض والزهور

وسنتبين شعراء عراقيين وسوريين وأندلسيين وهم يتميّزون عن بعضهم
البعض بميزات واضحة.

الشعراء العراقيون

عندما ندرس الشعر العراقي في العهد العباسيّ كثيراً مانسى أنه إنّما في
القرنين VIII و IX جمعت دواوين الجاهليّين بالبصرة والكوفة. ويكون في
الآن نفسه من الحيف ومن الخطأ أن نغفل عن شخصيات أمثال خلف الأحمر
وحماد الرواية (م نحو 858) والمفضل الضبيّ [114] (م. نحو 785 والأصمعي
(م 828) ثمّ ابن السكيت (م نحو 858) وقد سعوا إلى أن يجمعوا ويدوّنوا
ويشرحوا الشعر القديم. ومن الأكيد أنّه بفضل تبحرهم ونشاطهم قد احتفظ
جزئياً بآثار بلاد العرب القديمة الشعرية وأنّ النماذج القديمة، وقد اتبعت لا
شعورياً في العصور السابقة، ثم أهملت بعض الإهمال، قد أعيد إليها مجدها
ونتيجة ذلك العمل غير المباشرة ظهور مجموعة من القصائد المنتحلة هي لا
شكّ عظيمة لا يمكن أن ننبه إليها إلا عرضاً إذ أنّنا لا نكاد نستطيع أن
نجردها بكل يقين.

والشاعران الكلاسيكيان المحدثان البارزان هما كذلك عالمان متبحران قد خلفا لنا مختارين عنوانهما (الحماسة) (أ) وهما الاثنان كذلك من أصل شامي لكن لأن إنتاجهما الأهم يعود تاريخه إلى إقامتهما ببغداد، يمكن تصنيفهما ضمن الشعراء العراقيين. وإن الأول، أبا تمام (م ما بين 842-846) قد دخل في الإسلام وارتحل في شبابه إلى الشام ومصر حيث درس الأدب والشعر ثم بعد إقامة بالموصل قبل ببلاط المعتصم (833-842) وأصبح شاعره ويشتمل ديوانه [ب] على قصائد ذات منحى ملحمي خاصة عن فتح عمورية (838) (ج) وقد شهدته، وحماسته هي اختيار لأحلى الأشعار من الجاهلية إلى العباسيين.

أما الثاني، البحتري (897)، [د] فقد كانت له بأبي تمام صلة فأوصى به سگان معرفة النعمان إذ أن الشاعرين كانا مواطنين. وقد نظم في بداية الأمر أشعارا في أفراد قبيلته ثم أصبح شاعر بلاط في عهد المتوكل (847-861) وحظي برعاية الحظي الفتح بن خاقان. ثم إنّه، بعد اغتيال الخليفة والفتح، رجع إلى الشام ثم عاد يعرض مدائحه على المنتصر (861-862) وظلّ بالبلاط في عهد الخلفاء اللاحقين. وأوصافه لقصر الخلافة هي دون أن تكون [115] الأولى من نوعها لها هي الأخرى قيمة لا يستهان بها. إلا أن البحتري

أ- حماسة أبي تمام طبعت مركات عديدة ولعلّ أدقها طبعة دار الرشيد للنشر (العراق 1980) بتحقيق عبد المنعم أحمد صالح بعنوان "ديوان الحماسة" في رواية أبي منصور الجواليقي أما حماسة البحتري برواية أبي العباس الأحرول فقد حققها على سبيل المثال لويس شيخو اليسوعي سنة 1910 بالمطبعة الكاثوليكية بيروت ثم أعادت هذه الطبعة سنة 1967 (مع زيادات وفهارس إضافية دار الكتاب العربي بيروت).

ب - نشر ديوانه بشرح الخطيب التبريزي محمد عبده عزّام دار المعارف بمصر 1951.

ج - يشير المؤلف إلى قصيدة أبي تمام وهي في 71 بيتا ومطلعها [من البسيط] السيف أصدق أنباء من الكتب * في حده الحد بين الجد واللعب

(انظر الديوان ج 1 ص 40 - 73)

د - طبع ديوانه طبعت عديدة لعلّ أدقها طبعة القاهرة 1963 وما بعدها إعداد حسين كامل الصيرفي.

-وأسفاه- ينقلب أحيانا متسولا دنيثا ويقتلع جوائز مهددا الشخصيات التي يتوجه إليها بأن ينظم فيهم أهاجي خبيثة.

وبصفة عامة فإن الأهاجي والمدائح تمتزج امتزاجا دقيقا عند شعراء ذلك العصر ويمكننا بهذا الصدد أن نذكر هجاء اغتيل (سنة 860) هو دعبيل الخزاعي^[أ] وقد قضى حياته يتغنى بفضائل العلويين ويهاجم العباسيين وعرب الشمال في مجموعة من القصائد أغلبها يخلو من الطرافة غير أن هذا لم يكن رأي الشيعة المتأخرين الذين وسموا باسم دعبيل منظوماتهم الشخصية في تمجيد أبناء علي بن أبي طالب. أما ابن الرومي⁽¹⁾ (836-896) وهو عراقي من أصل رومي فقد اشتهر بأوصافه، غير أن أهاجيه الحادة قد جلبت له الموت بالسم. وإثنا مع ابن المعتز (861-908)، وقد سبق ذكره بين شعراء الخمرة، نلتقي من جديد بأمير -علي أنه كان خليفة يوم- وشاعر حقًا كانت له بالأدب العربي معرفة موسوعية اكتسبها بإشراف أشهر النحويين، المبرد وثلعب «فقد كان يجمع إلى مقدرة فطرية كان فيها كثير من الطرافة، معارف عميقة جدًا وكذلك ذوقا جد رفيع. ولم يكن مقلدا للشعراء العرب القدامى غير أنه كان يمكنه أن يكون نذا لهم عند المقارنة من حيث أناقة الشكل وصفاء اللغة، ثم إن أسلوبه بالاضافة إلى ذلك على غاية من السهولة والوضوح. وقصائده تطرق كامل مجموعة الأغراض التي هي حسب الرأي العام للعصر، تندرج في نطاق الشعر. غير أنها تفضل أن تصف عالم أصحاب الاناقة فتعكس كل بذخهم وشيئا من التحذلق «ك، ك. توري). وقد ترك لنا ابن المعتز بالإضافة إلى

أ - حقق شعره وطبعه طبعة علمية أولى سنة 1384 / 1964 عيد الكرم الأستر وطبعة ثانية سنة 1403 / 1983 (مطبوعات - المجمع العلمي العربي بدمشق)

1- انظر س. البستاني: ابن الرومي بيروت 1967 (بالفرنسية) أحاول عديدون طبع ديوانه مثلا كامل الكيلاني القاهرة 1924 وأحدث نشرة طبعة حسين نصار بالقاهرة في سنة أجزاء بداية من 1973.

مختاراته الخمرية^[116] كتابا عن صناعة الشعر ذا أهمية من الدرجة الكبرى. (أ)

إن بغداد بعد هذه المجموعة من الشعراء العراقيين، وهي سرعان ما ستخضع للنموذ الفارسي، لم تعد تؤوي إلا ناظمين من الدرجة الثانية . غير أنه بالعاصمة نظمت قصيدة عرفت مبكرا بأوربا بفضل ترجمة لاتينية هي "لامية العجم" في مقابل لامية العرب الشهيرة التي نظمت في القرن VII ونسبت إلى الشاعر الجاهلي الشنفرى وهذه القصيدة هي من نظم الطغراني (1061 / 1121) شكا فيها عيوب عصره (ب).

الشعراء الشاميون

في القرن X وفي حين أن بغداد أضاعت إشعاعها حظيت الاقاليم باستقلال باتم معنى الكلمة فإن الثقافة العربية قد لجأت إلى الشام حيث أسس أمراء من جهة ما بين النهرين العليا وذلك منذ 944 إمارة. فرئيس أسرة حمدانيي حلب، سيف الدولة (944 / 966) قد اكتسب مجدا خالدا بمآثره العربية وترك في التاريخ الأدبي ذكرى ملك حكيم كان يرعى رعاية خاصة العلماء والشعراء "وان حاشيته الأدبية كانت عظيمة عظيمة حاشية خليفة عباسي من العهد الزاهي.. وان الشعراء بمدائحهم المبالغ فيها يغذون كبرياء الامير الفطرية

أ- المقصود كتاب البديع وقد نشره خاصة المستشرق أغناطيوس كراتشوفسكي (لندن 1935) وأعادته هذه الطبعة دار الحكمة بدمشق (د.ت) حاذفة المقدمة

ب- المقصود اللامية التي مطلعها (البيط)

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وعلية الفضل زانتي لدى العطل

وقد نشر ديوان الطغراني بمطبعة الجوانب سنة 1882 ثم نشره على جواد طاهر ويحيى الجبوري ببغداد سنة 1396 / 1976 بدار الحرية للطباعة وتوجد اللامية ص ص 301 - 309.

والشعور بأنه ملك عظيم. وقد ساهموا باكثر مما ساهمت به الأحداث نفسها في خلق الصورة التي تكاد تكون أسطورية لسيف الدولة، قاهر بيزنطة وحامي الإسلام والروح العربية، الأمير ذي الأبهة والحكمة" (م. كنار) (1).

ومن هذه الحاشية الأدبية تبرز شخصيتان وسط مجموعة من الأشخاص من الدرجة الثانية يدينون بشهرتهم إلى معاصريهم البارزين^[117] وأشهر الجميع هو بلا منازع المتنبي (915 / 955) (2). ان المتنبي وهو أصيل الكوفة وقد أجبر في شبابه على الحياة بالبادية حيث حذق العربية حذقا عجيبا قد وقف نشاطه في وقت مبكر على الشعر ولم يتوان أن يتبين فيه وسيلة ممتازة للوصول إلى الثروة. وأشعاره الأولى، وهي بصفة واضحة كلاسيكية محدثة ومتأثرة بأبي تمام والبحتري، هي مدائح لشخصيات ثانوية وقد جلبت له بعد ذلك محاولة ثورة عامين سجننا ولقب المتنبي - ثم عاد إلى حياة المدح للتكسب لا من غير أن يدخل على القصيدة الكلاسيكية المحدثة تحويرا يتمثل في تجديد النسيب بل وتعويضه أحيانا ببسطة فلسفية أو غنائية. ومنذ 948، فإنه، وقد اعترف له بالعبقريّة، قد لازم سيف الدولة ناظما مدائح في الامير ومراثي في ذويه. وبعد تسع سنوات من الحظوة فإن المتنبي، وقد شعر باقتراب أفول نجمه، هرب للاحتماء بمصر لدى الحاكم الإخشيدي كافور وقد وجه اليه مدائح متكلفة. وإنه فعلا لم يكن لهذا الذي قد كان عبدا نفس الميل

-
- 1 - انظر: م. كنار: سيف الدولة مجموعة نصوص (المكتبة العربية VIII) الجزائر 1934.
 - 2 - انظر ر. بلاشير: أبو الطيب المتنبي باريس 1935. وقد عرّفه ابراهيم الكيلاني ونشرته وزارة الثقافة والآثار بدمشق 1975. والدراسات عن هذا الشاعر كثيرة شرقا وغربا قديما وحديثا ومتفاوتة القيمة وقد حاول أخيرا أن يحصيها ويقومها تقريبا طريفا حسين الواد ضمن أطروحة دكتوراه نوقشت بالجامعة التونسية سنة 1987 ونشرت سنة 1991 ببيروت وتونس بعنوان المتنبي والتجربة الجمالية عند العرب والملاحظ كذلك أن طبعات ديوان المتنبي وشروحه كثيرة جدا لعل الأكثر تداولاً منها شرح عبد الرحمان الهرقوقي القاهرة / 1932.

الذي يكتنه لولي نعمته الشاميّ ولذلك فإنّه لم يتوان عن الرحيل إلى العراق وفارس حيث لقي ترحاباً عظيماً غير أنّه لم يلبث أن غادر تلك البلاد وسقط أثناء الطريق تحت ضربات البدو وقطاع الطريق.

فالمتنبّي هو النموذج الأمثل لشاعر البلاط في القرن X إنّه، وقد ظلّ متعلّقاً بمدرسة أبي تمام والبحتري، قد اقتصر على أن يعتمد من جديد الهياكل الكلاسيكيّة الثلاثة، القصيدة، والمراثية وقصيدة الهجاء «ليضمنها جميع المعاني الغنائيّة والغزليّة والهجائيّة والملحميّة التي تروحي بها المناسبات» (ر. بلاشير) وإنّ سبباً من أسباب نجاح (118) المتنبّي، وهو دوماً يُدرس ويُشرح ويُقلّد حين يريد العرب أن يعودوا إلى أصول الشعر، هو أنّه قد واصل السنّة الكلاسيكيّة وشعر البادية بنكهته القديمة "وهذا الذي لا تعرف ما هو مما هو أقلّ حدّة وأقلّ غرابة مما يجعل تلك القصائد على النمط القديم فيها من التصرف أكثر مما فيها من التقليد" (ر. بلاشير).

وسبب ثان لهذا النجاح هو الطابع الملحميّ لبعض القصائد على أنّها تنتمي إلى الشعر القديم بفخامتها وتهويل الأحداث التافهة. ثم إنّ الشرقيّين مأخوذون بكثرة الأبيات التي يُلخّص فيها الشاعِر في عبارة محكمة السبك حكمة عامة "إن المتنبّي في أزهى فترة من حياته، لما كان يتمتّع بالحظوة لدى سيف الدولة قد كان له خصم في شخص ابن عمّ الأمير نفسه وهو أبو فراس (932-968) الذي حبس أربع سنوات بالقسطنطينيّة. وقد ألهمه أسره قصائد غنائيّة مؤثّرة لها نغم صاف، طبيعي بعيد كل البعد عن نغم شعراء البلاط الذي كثيراً ما كان كاذباً [أ].

وحافظ مكتبة سيف الدولة، الصنوبري [ب] (م. نحو 945) يعتبر أوّل وصّاف في الأدب العربيّ إنّ له، لا شكّ، سابقين غير أنّ أوصافه لحلب وللجوّ

أ - طبع ديوانه عدّة طبعات ضعيفة ثم طبعه علمية كاملة ببيروت 1944 بعناية سامي الدّهان

ب - نشر ديوانه ببيروت 1970 إحسان عبّاس

وللسّماء وللنّور وللثلج وللزّهور لم تعدم البتّة أن جلبت اليه عناية النّقاد الغربيّين الذين اعتادوا ضعف الشعور بالطبيعة عند الشّعراء الشرقيّين بخلاف الاندلسيّين في هذا الشأن.

وفي القرن XI فإنّ الشّام لا يزال لها شاعر عظيم، أبو العلاء المعريّ (979-1058) (أ) إنّّه، وقد أصيب بالعمى منذ سنّ مبكرة، يمثل أنموذجا من أولئك العميان المؤثرين الذين وهبوا ذاكرة خارقة للعادة وبراعة شعريّة [119] مذهشة إنّ المعريّ، وقد عاش في فترة لم يكن فيها إشعاع بلاط سيف الدولة قد خمد خمودا تامّا، يبدو أنّه قد أراد في البداية أن يصبح شاعرا مدّاحا من نوع المتنبيّ. غير أنّه قد أدرك أنّ تلك المهنة لم تكن تتناسب مع أنفته الطبيعيّة. فرجع بعد إقامة قصيرة ببغداد إلى وطنه معرّة النعمان، لا دون أن يكون قد اكتسب في العاصمة آراء تكاد لا توافق السنّة وإن شهرته عالما وشاعرا بعد رجوعه قد جلبت اليه طلبه من جميع الأنحاء وأكسبته شهرة واسعة غير أنّه اجتهد في أن يحيا حياة الصرامة في عزلة وقفها على الدراسة. وديوانه الأوّل، سقط الزند^[ب]، يشتمل على قصائد نظمها قبل رحلته إلى بغداد، مدائح على طريقة المتنبي ومراث وقصائد مناسبات. ثم انه في ديوان ثان يحمل العنوان الذي له دلالتة، عنوان لزوم مالا يلزم^[ج]، قد التزم نوعا خاصا من القوافي الصعبة ثم إنّّه خاصّة " وهو لم يكتف بأن يفصح بدون خوف

أ - نشر مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة أبي العلاء المعري أحصى فيه آثار أبي العلاء وما ألف عنه قديما وحديثا وقد نشرته مطبعة العلم بدمشق سنة 1978، والكتاب في الأصل بحث قدّمه لنيل شهادة دكتوراه المرحلة الثالثة من جامعة الصربون بإشراف ش بلا

ب - طبع عدّة طبعات والطبعة المتداولة هي طبعة دار صادر بيروت أمّا أدقّ طبعة فهي طبعة القاهرة 1945 "شرح سقط الزند وجاء فيها كلّ بيت مشفوعا بشروع التبريزي والبطلومي والخوارزمي

ج - طبع ديوان اللزوميات أولزوم ما لا يلزم طبعات جزئية أو كاملة أفضلها طبعة هومياني 1855 - 1856 وطبعة القاهرة 1891 - 1894 ولكن الطبعة المتداولة هي طبعة دار صادر

المظالم السياسية والاجتماعية قد اتخذ من الحياة البشرية بأكملها موضوعه وتأمل في أعماق قضاياها (نيكلسون) « مستهزنا بأوفر معتقدات الإسلام قيمة وإن صحة عقيدته هي فعلا لأسباب واضحة، مشكوك فيها ولقد ذهب الأمر ببعضهم إلى اتهامه بأنه حاول أن ينافس القرآن في كتاب عنوانه: الفصول والغايات ليس لدينا منه الاجزاء^[أ]. إنه لا شك يقر بوجود الإله لكنه يقاوم الدّين البشري ولا يؤمن بالحياة الآخرة ويدعو إلى أخلاق عملية تعتمد الضمير والعقل. ومن الممكن أن يكون تشاؤمه ناتجا عن "بذور الشك المنهجي" والسخرية التمردية التي يتضمنها التعليم السري لفرق الاسماعيلية (ل. ماسنيون) غير أنه واقع أن هذا الرجل غامض الشخصية وأن لاشيء نهائيا يمكن بعد أن يقال عنه. وإن أثره النثري الرئيسي - وهو أقل غموضا من شعره - هام لقربته من الكوميديا الإلهية⁽¹⁾ [120] نعني رسالة الغفران (2) وقد كتبت في اسلوب العصر المزركش والمسجع مع استشهادات شعرية غزيرة جوابا عن رسالة هي أيضا سجع لرجل يسمى ابن القارح⁽³⁾ صب جام غضبه على المانويين والزنادقة وحاول أن يبدد لدى المعري - وهو يسعى إلى جلبه إلى الاهتمام بمصيره - سوما قد يكون ظنه به. وإن هذا الأخير قد قابل في رسالته، وقد ألفها سنة 1033 "بالرفض التام الخفي الذي كأنه لم يفهم. وإن الجواب هو جواب ساخر يتلذذ بعرض تبخر يعجبه منه التحذلق" فعلا فإن المؤلف يعد

أ - طبع ما بقي من كتاب الفصول والغايات في تمجيد الله والمواظ على سنة 1938 بالقاهرة.

1- انظر رودنسون: دانتى والاسلام بمجلة تاريخ الأديان 1951. ^[الملاحظ أن الكوميديا الإلهية قد ترجمت إلى العربية انظر مثلا تعريب حسن عثمان ط. دار المعارف بالقاهرة 1967]

2- ترجمها ترجمة جزئية. م.س. ميسا: رسالة الغفران 1932 ^{[ثم ترجمها ترجمة كاملة فينسان منصور مونتاي (مع مقدمة للكاتب ايتيمبل). باريس 1984]. والمعروف أن بنت الشاطئ طبعت الرسالة طبعة علمية (عدة مرات بداية من سنة 1950 دار المعارف مصر.}

3- انظر: ر بلاشير: ابن القارح وانشاء رسالة الغفران للمعري بمجلة الدراسات الاسلامية 1941-1946.

مراسله بالغفران في الآخرة ويتخيّله بين المختارين - وهم شعراء جاهليون وإسلاميون مبينا أسباب دخولهم الجنة ويتخيّل كذلك إقامة المفضوب عليهم مما من شأنه أن يوفّر له الفرصة ليعرض آراءه عن الزنادقة. وهكذا فإنّ الجدل والهزل والفلسفة والأدب تمتزج في هذا الأثر الذي هو - لما يحتوي عليه من نقد أدبي قدّم تقديمًا بارعا - يقترب من رسالة ابن شهيد^[أ] وهي صرح من أغرب صروح الأدب العربيّ بإسبانيا.

الشعر الأندلسي⁽¹⁾

منذ الفتح (711) أو يكاد كانت الحالة بإسبانيا الإسلامية شبيهة بحالة سائر أقاليم الإمبراطورية بعد التفكك بمعنى أنّها تحظى باستقلال حقيقيّ غير أنّ ازدهار^[121] الحضارة الإسبانية العربية الطريف إنّما يعود تاريخه إلى عهد عبد الرحمن III (912 / 961) ودكتاتورية المنصور (م1102) وقد أبلغ الحكم الأمويّ أوجه. وإثر ذلك مباشرة فإنّ الحرب الأهلية قد أطاحت بالصرح الأمويّ في حين أنّه في الامارات التي كان يحكمها ملوك الطوائف قد كانت الثقافة الأندلسية أشدّ ما تكون على الاطلاق إشعاعا فيلاطات ملوك طليطلة وبطليوس وبلنسية ودانية والمرية وغرناطة واشبيلية قد جلبت الشعراء والأدباء والفنانين والعلماء بحيث أنّ الأقوال السياسيّة قد صحبه نشاط في الحركة الفكرية. والاستيلاء على طليطلة سنة 1085 من قبل ألفونس VI قد حمل الأندلسيين على التوجّه إلى المرابطين وقد أسسوا قبيل ذلك إمبراطورية بالمغرب الأقصى وإنهم منذ 1086 قد كبّدوا الجيوش المسيحية هزيمة الزلاقة وعادوا للاستيلاء على إسبانيا ثم خلفهم الموحدون (1147 / 1230) وحركة

أ - يقصد المؤلف رسالة التواضع والزواجع وسيحدث عنها ص [144].

1- انظر: ه بيراز: الشعر الأندلسي بالعربية الكلاسيكية في القرن XI ط. 2 باريس 1953.

«استرداد الأوطان» قد ازدادت سرعتها ولم تثبت إلا دولة نصريّ غرناطة وحدها وقد حافظوا على حياة فكرية قوية حتى نهاية النفوذ العربيّ (1492).

وبدايات الأدب الاندلسي لا تزال يسودها الغموض غير أنّه يبدو أنّها تميّزت بظهور شعر شعبيّ ليس لنا منه الآن إلا نماذج قليلة غير أنّها تنبئ بالاتجاه الذي سيسلكه الشعر الاسباني الأصيل والاندلسيون رغم رغبتهم في التميّز عن سائر المسلمين، قد ظلّوا في البداية أساساً شرقيّين وأدبهم يستمدّ عناصره من الأدب العراقيّ الشاميّ فأبو نواس وأبو تمام والبحثري وابن الرّومي وابن المعتزّ والمتنبّي خاصة قد استحضنت أشعارهم وأتبعته. والأدباء الشرقيّون قد جلبوا وأكرموا غاية الإكرام والموسيقى العراقيّ زرباب (857-789) قد " كان الحكم غير منازع في ميدان ألوان الأناقة والباعث لجميع "الموضات" الجديدة التي سادت منذ ذلك الحين لا فحسب في المظهر الخارجي بل حتّى في أسلوب العيش عند المسلمين الأندلسيين" (أ.لفي بروفنصال)

ومهما يكن من أمر فإنّ الشعر الاسبانيّ، بداية من القرن XI، دون أنّ يتحرّر تحرراً كاملاً، قد بلغ أوج ازدهاره [122] وشاعر البلاط كان، كما كان الشأن بالشرق، يقضي الحياة متنقلاً حتى يلقي القبول الحسن فيصبح إذ ذاك المدافع الرّسمي عن رجل دولة مطنبا في مدحه. نعم، لا شك أنّ هذا الشعر ليس هو الأهم بل الأهم هو ذلك الذي يحمل طابع البيئّة الاندلسيّة ويتميّز بشعور بالطبيعة جدّ مرهف ويسترعي انتباهنا المنزلة الهامّة التي تحتلّها أوصاف المدن وقصور الرّيف والمشاهد الطبعيّة والأجنة. وهناك غرض خاصّ من وحي فارسي وقد سبق أن طرقه الشعراء المشارقة، قد فضّل الأندلسيون طرقه. إنّ شعر الأجنة، بالأوصاف والمقارنات والمحاورات بين الزهور. والحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والخاصّة تحتلّ هي الأخرى مكانة هامّة غير أنّ المرأة

والحبّ هما غرضان طاغيان وسيشدّ ان بنسبة أوفر اهتمامنا لما يرجح لهما من تأثير في شعر الترويدور^[أ].

وبعد بدايات لا تزال غامضة فإنّه في نهاية القرن IX قد ظهر فحول الشعراء الأندلسيين وإنّ واحدا من أقدمهم، وهو ابن هاني (م973)^[ب] متنبّي الغرب، قد اضطرّ لسوء سيرته لمغادرة اسبانيا والتحق ببلاط الفاطميّ المعزّ مادحا إياه مغاليا حتى إنّ النقاد العرب يكادون يتهمونه بالكفر^[ج] وابن عبد ربّه (860-940) هو كاتب اسبانيا الإسلاميّة الكبير غير أنّه قد عرف خاصّة باختياره: العقد وقد ضمنه قصائد غزليّة وزهديّة وتاريخيّة من نظمه^[د].

ويجب ان ننتظر نهاية القرن X والقرن XI لنجد شعراء هم حقّا ذوو طرافة يتميّزون عن أخوانهم الشرقيين بعض التميّز. وابن شهيد وابن حزم هما ناظران جذابان سيكون لنا عنهما حديث أطول. ثمّ ان الشعر بعدهما قد أصبح غزيرا غزارة لاحد لها ساعدت عليها اللامركزيّة التي هيأت استلهاما محليّا وإقليميا.

والقرطبي الرّمادي (م1013 او 1022) هو شاعر^[123] الخليفة الحكم الثّاني (961-976) وابنه هشام الثّاني (976-1009) وقد اشتهر خاصّة

أ - الشعراء الغنائيون الذين عرفوا في القرون الوسطى (خاصة في القرنين XII و XIII م) لاسيما في جنوب فرنسا. ويختلف الباحثون في اشتقاق الكلمة ويرون مثلا أنها يمكن أن تكون من مادة عربية هي الطرب أو الضرب (العزف)

ب - أعدّه عنه محمد اليعلاوي أطروحة دكتوراه دولة ناقشها بجامعة الصربون بهاريس ونشرتها الجامعة التونسية سنة 1976 ثمّ عربيّها ونشرتها دار الغرب الاسلامي ببيروت. سنة 1985 بعنوان ابن هاني المغربيّ الأندلسي وقد كان زاهد علي نشر سنة 1933 بالقاهرة ديوان ابن هاني بعنوان تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني وهذه الطبعة قد نفذت والطبعة المتداولة اليوم هي طبعة دار صادر وأنجز محمد اليعلاوي طبعة أخرى بدار الغرب الاسلامي ببيروت (1995)

ج - من أشهر قصائده قصيدته التي مطلعها [من الكامل]

ما شئت لا ماشاءت الأقدار * فاحكم فأنت الواحد القهار

د - طبع كتاب العقد طبعات عديدة. لعلّ أفضلها بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري القاهرة 1949

بالاشعار التي ألهمه إياها حبّه حبّاً عفيفاً حسناً التقى بها بإحدى الحداثق العامة^[أ]. وان ابن زيدون (1) (1003-1071) وهو قرطبيّ هو الآخر، لا يزال يُمتع الشّباب المغاربة والمشاركة الذين لا ينفكّون يستحسنون منه قصائد مؤثرة موجّهة إلى الشّاعرة ولأدة وقد هجرت هذه حبيبها لتلتحق بشاعر آخر ابن عبدوس وقد نظم ابن زيدون قصائد في تهديده ورسالة ظلّت شهيرة^[ب]. ثم أنّه وقد أصبح وزير ملك اشبيلية المعتمد (1040-1095) قد خاصمه كذلك ابن عمّار (م1086) (ج) وهو شاعر صعلوك كان قد صاحب الأمير ثم أصبح وزيره وثار عليه ثم إنّ - وقد ألقى به في السّجن - قد وجد نبرات شجيّة يطلب بها عفو سيّده غير ان هذا لم يستجب له بل قتله بيده وان صديقا لابن عمّار، ابن وهبون (م نحو1089) (د) قد انتصب مداح المعتمد غير أنّ عجبه بنفسه قد ألهمه قصائد ذات اتّجاه فلسفي يتضوّع منها تشاؤم لا مبرر له فهو صاحب بيت من أجمل أبيات الشّعر العربيّ المدحيّة، حين يقول للمعتمد ملّحاً إلى لقب المتنبي: ^[طويل]

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى × بأنك ترويه إذن لتألّها

أ - جمع شعره وقدم له ماهر زهير جرّار (نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1400 / 1980 والملاحظ أن ابن حزم قد قصّ في كتابه طوق الحمامة وفي باب من أحب من نظرة واحدة ص ص 56 - 58 (طبعة برشي) لقاء الرّمادي بهذه الحسنة عند باب العطارين بقرطبة.

1- انظر. أ. كور: شاعر عربي من الأندلس ابن زيدون. قسنطينة 1920. ^[طبع ديوانه طبعات عديدة لعلّ من أحسنها طبعة علي عبد العظيم القاهرة 1957].

ب - المقصود الرسالة الهزليّة وقد طبعت مع ديوانه.

ج - ابن عمار: ديوانه وإن كان قد جمع قديما لم يصلنا ولكن صلاح خالص حاول أن يجمع أشعاره ضمن أطروحة تكميلية نوقشت بجامعة الصربون بباريس ونشر عنه ببغداد سنة 1957 كتابا بعنوان محمّد بن عمار الأندلسي.

د - ابن هبون : جمع ابن بسام ديوان ابن وهبون ولكنه لم يصلنا وفي مصادر الأدب الأندلسي وخاصة ذخيرة ابن بسام وقلائد العقبان للفتح بن خاقان بن خافات بقايا من أشعاره وأخباره وقد جمعها ودرسها مبارك الحضراوي للأحراز شهادة الكفاءة في البحث بكلية الآداب تونس 1984. ونشرها بمجلة دراسات اندلسية بتونس عدد10 - و عدد 15 . 1993 و 1996.

وشاعر آخر جدير أن يذكر هنا، هو الصقلي ابن حمديس (1055-1132) وقد عاش هو الآخر فترة ببلاط المعتمد وخلف لنا ديوانا ذا قيمة^[أ].

ويجب أن نلاحظ أن ملك إشبيلية^[ب] وهو حامي الشعر وميسانٍ منتج كان هو نفسه شاعرا حقًا يمكنه أكثر مما يمكن غيره أن يسكب غنائيته وفي الواقع فإن حبه زوجته المفضلة «اعتمادا» وهي نفسها شاعرة قد ألهمه قصائد كثير من العرب لا يزال يمكنهم إنشادها عن ظهر قلب^[124] ثم إنه لبالعشرات يجب أن نذكر هؤلاء الشعراء الاندلسيين ولن نستفيد من مثل هذا التعداد إلا قليلا وإنما يبرز جو الرومنطقية الشعري الذي كان يسود انذاك شبه الجزيرة وحبّ الاندلسيين العميق للشعر وقد كانوا يولونه كامل عنايتهم على حساب ثقافتهم الدينية. وإن العقلية الأندلسية مزيج بين الكلاسيكية والرومنطقية ثم الوثنية والمسيحية والإسلام. مما يعطي أدب اسبانيا الإسلامية الشعري ذاك الطابع الذي هو ربّما فاتر بعض الفتور رقيق بعض الرقة، وفي نهاية الأمر تقليدي إلا أنه يأخذ بالألباب أخذا عجيبا.

وقد كان من الطبيعي لهذه البلاد التي طالما بحثت عن نماذجها المقتدى بها في الشعر الشرقي واستعملت في افراط التشابيه والقوالب الجاهزة التي كادت تفنى أن ترد من منابعها الخاصة لتنشيء فنا أندلسيا بحثا وهذا الفن

أ - نشر ديوانه للمرة الأولى المستشرق ك. سكيابرلي (روما 1887) ثم ظهرت طبعة ثانية (القاهرة 1960) بتحقيق إحسان عباس. ويعدّ عنه الحبيب العوادي ورسالة دكتوراه دولة ستناقش قريبا بتونس

ب - يعني المعتمد بن عباد وقد نشر ديوانه بالقاهرة سنة 1951 أحمد بدوي وحامد عبد المجيد في طبعة مرضية ثم أعاد طبعه طبعة رديئة جدا يجب إهمالها رضا الحبيب السويسي (الدار التونسية للنشر سنة 1975). وقد أعدّ رسالة دكتوراه دولة نوقشت بالصرى وطبعت بتونس سنة 1977 والملاحظ أن مصطفى خالص كان قد نشر ببغداد سنة 1378 / 1958 كتابا بعنوان المعتمد بن عباد الاشبيلي دراسة أدبية تاريخية كما نشر ببيروت سنة 1385 / 1965 كتاب اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية..

هو "الموشح" وهو قصيدة غنائية وقطعة شعرية منظومة في اللغة الكلاسيكية ومعدة للغناء والموشح فنياً هو "ثورة صغرى" إذ هو يستعمل تركيباً مقطوعياً معروفاً غير أنه قليل الاستعمال من قبل الشعراء القدامى فهو بصورة عامة يتكوّن من مطلع في بيتين يوحى بموضوع القطعة ثم من مقاطع ذات أربعة أبيات الثلاثة الأولى منها لها نفس القافية والرابع له قافية المطلع (أ-أ، ب-ب-ب-أ، ج-ج-ج-أ، الخ غير أن تراكييب أخرى هي طبعاً ممكنة) وأخيراً من مقطع ختامي يسمى خرجة ويتكوّن من مزيج من اللغة الرومانية والعربية يعكس في الجملة المزج بين حضارتين ويمثّل نموذجاً فريداً لانصهار غنائيتين على أنهما متباعدتان كلّ البعد. وإن دارسي العربية طالما جهلوا خاصية الموشح الأساسية تلك وإنما منذ عشرين سنة فقط نُفِذَ إلى هذا السرّ ومنذ ذلك الحين فإنّ اكتشاف مجاميع جديدة قد ساعد على أن يدرس بصورة عميقة المشكل الذي يثيره وجود الخرجة [125] وأعمال المتخصّصين قد تكاثرت (1) واكتشاف دار الطراز لابن سناء الملك (1155-1211) ونشره سنة 1949 (أ) وهو بحث فني حقيقيّ للموشح، قد ساعدا خطوة أخرى الدراسات التي كانت إلى ذلك الحين قد تعثّرت. والجهل بطبيعة الخرجة الحقيقية الذي بقي عليه دارسو العربية كان يعود أساساً إلى أن القطع المعروفة منذ عهد بعيد كانت قد حُذِفَ منها المقطع الختاميّ لأن النساخ لم يكونوا قد فهموه أو هي إن كانت كاملة لم تشتمل إلا على خرجة هي فحسب باللغة العربية إذ أن المؤلفين المتأخّرين قد نسوا ضرورة أن يضمّنوها ألفاظاً أعجمية.

1- انظر خاصة: م. ستارن: الأغاني المستعربة بالرّمز 1953، قرسيا فورمز: الشعر الغنائي الإسباني العربي في دراسات عربية V / 1958 / 2 ولنفس الكاتب الشعر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس ط 1 / 1852 وط 2 / 1956. القاهرة ومن أفضل الدراسات في ميدان الموشحات كتاب فنّ التوشيح لمصطفى عوض الكريم ط. 2 بيروت 1974 وكتاب الموشحات الأندلسية تأليف محمّد زكريا عناني الكويت 1380 ولشارل بلا فصل مهم بعنوان الموشح والزجل همزة الوصل بين ثقافات مختلفة بالمجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض (1970 / 1390).

أ - حققه ونشره جودة الركابي بدمشق سنة 1368 / 1949.

وهذا الفن، والحق يقال، وقد تعاطاه عدد كبير من الاندلسيين كان يعتبر عامياً وإن الشعراء الكبار المتعلقين بالعربية كانوا يتجنبونه احتقاراً له. ومع ذلك فإن أطرف الشعراء الاندلسيين تقريباً وهو ابن قزمان (م1160) قد تجاوز ذلك خطوة أخرى فأشاع فن الزجل وهو ناشىء عن الموشح، غير أنه يتميز بالاختصار على استعمال العربية العامية وابن قزمان، وقد قضى حياة شاعر متشرد وعاش عيشة متحررة بل ماجنة، قد نظم ديواناً^[أ] تنعكس فيه مغامراته. إلا أن هذا الديوان صعب الفهم بعض الصعوبة إذ أنه يزخر بألفاظ رومانية شوهاها إن قليلاً وإن كثيراً، الناسخ المشرقي للمخطوط الرئيسي الذي نملكه. فأغانيه تبدأ عادة بمقطع غزلي وتختتم بمدحة في عبارات مبالغ فيها وكثيراً ما تكون متكفلة وابن قزمان يشيد كذلك بالخمير والملذات مذكراً في هذا الصدد بأبي نواس. وقصائد الغزل هي نسبياً قليلة ومما يلفت النظر أن الشاعر لا يتغنى فيها بالحب المثالي الأ قليلاً.

ويجب أن نقول فعلاً إن الحب العذري قد كان سنة راسخة باسبانيا، حيث ان ابن حزم (994-1064)،^[126] بعد ابن مؤسس مذهبه الفقهي، ابن داود (م910) وكتابه الزهرة^[ب] - قد كان إن صح القول قننه في كتابه "طوق الحمامة"⁽¹⁾

أ - نشر ديوانه سنة 1896 بـ برلين بعناية د. فونزبورغ ثم أعاد نشره سنة 1933 أ. ر. نيكل معوضاً الحروف العربية بالحروف اللاتينية والدراسات عن الزجل عديدة وخاصة لدى المستشرقين لما بين الزجل وشعر التروبادور الشعراء الجوالين في الغرب من اتصال ومن أهم الدراسات العربية كتاب الزجل لعبد العزيز الأهواني منشورات جامعة الدول العربية د. ت.

ب - طبع النصف الأول من كتاب الزهرة لـويس نيكل بمساعدة إبراهيم طوقان بيروت 1351 / 1932 وطبع نصفه الثاني إبراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسي ببغداد منشورات وزارة الاعلام 1975.

1 - ترجمة إلى الفرنسية: ل. برشي 1949. انظر لفي بروفنصال رد. أثناء إعادة قراءة طوق الحمامة بمجلة الأندلس مدريد 1950¹ نشر برشي مع الترجمة النص العربي ولعل هذه الطبعة، أفضل طبعات طوق الحمامة (العديدة)

إنَّ ابنَ حزم، وهو في الآن نفسه شاعر وأديب وواضع فهرس ومؤرِّخ وفقيه، ومتكلم ومفسِّر وعالم في المنطق والماورائيات وعلم النفس ومؤلف في السياسة وصاحب جدل، هو قطعاً أحد الممثلين الأرق والأخصب للأدب العربيّ بإسبانيا (1) إنَّه، وهو ابن أحد وزراء الأمويين، قد شارك إلى سنِّ الثلاثين في الحياة العامَّة وفي ترميم الدَّولة المنهارة ثم تفرَّغ للدرِّس والأدب ثم وبعد محاولات غير ناجحة انتقل إلى مذهب داود الفقهى المتقيّد بظاهر النصِّ. وقد وسع مقاييسه إلى الفقه ودافع عن آرائه باللسان وبالقلم وألف عدداً كبيراً من الكتب. ويهمُّنا هنا فحسب قصيدة مطوَّكة [أ] موجهة ضدَّ الروم وخاصة كتابه "طوق الحمامة". وفي مؤلِّف الشباب هذا، يحلُّ ابن حزم في ثلاثين باباً أسباب الحبِّ وتطوُّره والظروف المساعدة على نموه أو المعرِّقة له. فماهية الحبِّ وأعراضه والمراسلة، والرسول والوصائف والأصدقاء المساعدون والحساد والوصل والوفاء والهجر الخ... قد نشأ عنها تحليلات نفسانيَّة مشفوعة وموضحة بطرائف مؤثِّرة وأشعار لطاف كثيراً ما يأخذها الشَّاعر من إنتاجه الشَّخصي.

وهذا الأثر الذي يدعو إلى العفة - دون أن يخلو من فقرات فاحشة هو بحث حقيقي في الحبِّ المثالي وفعلاً ، فإنَّ هذا التصرُّو السامي هو الذي سيظهر في

1- انظر: ر. أرنالداز: النحو والفقه عند ابن حزم القرطبي باريس 1956 وترجمه. ن طوميش لرسائله في الأخلاق بيروت 1961.

أ - يشير المؤلِّف إلى قصيدة في 137 بيت على البحر الطويل ومطلعها
مِنَ المحتَمي بالله ربَّ العوالم ودين رسول الله من آل هاشم
أجاب بها عن قصيدة كانت وردت على الخليفة المطيع لله (حكم من 334 / 946 إلى 363 / 974 من تغرور الثاني امبراطور بيزنطة من 963 إلى 969 ومطلعها
من الملك الطهر المسيحي رسالة إلى قائم بالملك من آل هاشم
وقد أورد القصيدتين مع ردِّ آخر للفقَّال الشاشي (م 507 / 1134) مطلعها
أتاني مقال لأمري غير عالم بطرق مجاري القول عند التخاصم
عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (م 771 / 1370) في ص ص 179 - 189 من الجزء الأول من كتابه طبقات الشافعية الكبرى ط 1 بالمطبعة الحسينية بالقاهرة د. ت. وديوان ابن حزم تحقيق محمد رشاد عبد الله طنطا مصر 1410 - 1990.

آثار عدد وافر من الشعراء الاندلسيين^[127] فهم يتغنّون بحبهم امرأة يصفونها في عفة ويتمتعون بحضورها ويتألمون لبعدها وهم يتهجمون على الحراس والنمامين والوشاة والحساد والعذال وعلى مجموعة من الشخصيات العرضية التي تحتل مرتبة ثانوية.

فالتركيب المقطعي والحب الافلاطوني والحب الحسي هي عناصر نجدها في القرون الوسطى على جانبي جبال البرانس وصحيح أن نعتقد رغم بعض المتخصصين في القرون الوسطى - أن تلك القرابة ليست من باب الصدفة وأن "التروبادور" قد تأثروا فعلا بالشعراء الأندلسيين إنه حتى دون أن نؤكد أن كلمة "تروبادور" نفسها قد تكون من أصل عربي "ضرب، ضرب على آلة" (1) فإنه يمكننا أن نجمع الحجج على التأثير الأندلسي. وإن المتخصصين في القرون الوسطى المتشبهين بالأصل اللاتيني البروفنصالي لا يقبلون في سر أن يقتنعوا غير أن واحدة من تلك الحجج تبدو حاسمة ففي أغنية لقيوم IX توجد أربعة أبيات المتبحرون في العلم لم يروا فيها حتى كونها لغة غريبة حوشية "غير أن أ. لفي بروفنصال" وهو يقارن مختلف القراءات التي توفرها مخطوطات قيوم IX ويتحول المقاطع دون تغيير أي حرف قد تبين أن فيها أربعة أبيات بالعربية الاسبانية تكاد تكون مفهومة إلا أنها أفحش من أن تترجم وفيها يذكر الشاعر لمخاطبته أنه يعرف أي موقف سيقف من طيشها. (2)^[128] وهذا الإكتشاف كان من شأنه أن يعدل مواقف من اختلفوا من العلماء المتبحرين.

-
- 1- انظر: ر. لمي. الاصل العربي لفن التروبادور بحوليات (نظم اقتصادية، مجتمعات حضارات) 21/5 - 1966.
 - 2- ان مسألة العلاقات بين الشعرين قد بسطت بسطا مفصلاً من قبل أ. لفي بروفنصال في كتابه "اسلام المغرب" باريس 1948 ومن المفيد كذلك مطالعة ه. بيراز "شعر الأندلس العربي وصلاته بشعر التروبادور" في "الاسلام والغرب" (كراريس الجنوب 1947 ووجهة النظر الهامة جداً لمتخصص في القرون الوسطى قد عبر عنها ر. لوجنتي: المقطع الزجلي والخرجات ومشكل أصول الغنائية الرومانية بمجلة "دراسات رومانية" 1963 ص 27 - 209-250.

إن النثر العربي، وقد نشأ مع عبد الحميد وابن المقفع، قد خدم أدب البلاط وعارض من بعض الوجوه الأسلوب الذي استعملته مدرستا الكوفة والبصرة في سعيهما لإرساء قواعد مذهب إنسوي عربي. وإن الكتاب، وهم في عهد العباسيين من أصل فارسي، كان لهم باللغة العربية معرفة عملية غير أنهم أعرضوا عن مناقشات النحاة واللغويين العقيمة ليولوا وجوههم نحو فارس الساسانيين. فترجموا إذن شأن ابن المقفع، كتباً فارسية وبنوا على أس إیراني مؤلفاتهم في العربية واكتفوا في عملهم بكتب ألفها كبار أسلافهم - بعد أن اختاروا ما اختاروا، لم يأخذوا عن العرب وقد احتقروا، إلا ما هو ضروري وطبعوا الأدب وشؤون الحياة في البلاط بطابع إيراني واضح حتى إن العباسيين قد بدوا مجرد خلفاء ساسانيين (أ).

غير أنه قد نشأ مجتمع جديد وتكونت طبقة برجوازية أثرتها التجارة فهي تضم خاصة عناصر أعجمية أقبلت على ما انتجه الكتاب وعلى أدب موافق لمطامحها العميقة أما العناصر العربية في هذه الطبقة فإنهم لم يزالوا يهتمون بنسبة لا يستهان بها بالشعر والنحو وسائر العلوم العربية غير أنهم رغبوا في الحصول على أدب يصطبغ بصبغة دنيوية أوضح وهو بالتالي أعذب. فالشعر لم يرض إرضاء تاماً هذه الرغبة. وفي ميدان النثر فإن العرب شعروا بنقص إزاء الفرس ومنذ ذلك الحين فإن الخصومة بين أهم عناصر الجنسين وقد أذكتها مطالب العجم [129] ونشأة تلك الحركة العنصرية أي الشعوبية التي توصلت

أ - من الأقوال المشهورة في هذا الشأن قول الجاحظ «دولة بني أمية عربية اعرابية ودولة بني العباس أعجمية فارسية».

إلى إعلان أفضلية الفرس قد نُقِلَتْ إذن إلى ميدان الأدب. وظهرت اتجاهات ثلاثة: الأول يرفع من شأن الانسانيات العربية وهي تتكوّن من الشعر والنحو وكذلك القصص والنّوادر والأخبار التاريخية والأدبية. وفي الاتجاه المعاكس عملت الشعوبية على الحطّ من شأن العرب وبعث أدب محوره الثقافة الفارسية. وقد حاولت النزعة الثالثة أن توفّق بين الطرفين المتنازعين فتستخرج من الثقافتين خلاصة يرضاها الطرفان.

وهذه النزعة الاخيرة هي التي في النهاية قد انتصرت آخذة المادة المفيدة من الثقافة الفارسية ومجبرة الايرانيين على أن يأخذوا هم بدرورهم قسما من الثقافة العربية وإنّ جميع العلوم الجديدة منذ القرن IX قد سعت فعلا إلى إتمام هذا العمل محققة صلة مستمرة بين العرب والفرس. فالتاريخ، وقد أصبح عالميا يبدأ من آدم ويتعرّض إلى السلالات الفارسية. واهتمّت الجغرافيا بفارس وقد تبنت الاداب روايات أخذتها من الأدب الفارسي في حين ظل الاصل عربيا إسلاميا. وهذه الخلاصة النهائية التي إليها أضيفت الثقافة اليونانية قد حدّدت اتجاه النثر في العصور اللاحقة. غير انه منذ القرن X فإنّ ذلك الاسلوب في التعبير وقد حرّمته المحافظة العربية من التجدّد قد آل أمره إلى ان يُنْهَكَ وان يكون الخاصية التي تكاد تكون مقصورة على المتبحّرين والعلماء والأدباء الذين يكتبون على عجل في حين ان الذين يريدون العناية بأسلوبهم، كتّاب الدواوين في المقام الأول - قد التجأوا طبعاً إلى أسلوب التعبير الذي بدا لهم الاكثر اناقة أي النثر المسجوع.

الأدب

إنَّ اللفظة التي تُبناها معاصرونا ليترجموا إلى العربية لفظتنا "litterature" هي كلمة غريبة الأصل "أدب" (أ) هي ناشئة عن الجمع دأب مفردة دأب (العادة) [130] مواصلة العادة ولفظة أدب هذه قد ظهرت منذ عهد مبكر بمعنى تقاليد الأجداد "والعادات التي لا بدّ من احترامها. ومن هنا فإنّه قد أفاد "الخصال المحمودة" وحسن التربية التقليديّة وبالتالي "المعارف الدنيويّة" التي من شأنها أن تحسّن العلاقات الاجتماعيّة مثل الشعر واللغة وتاريخ العرب القديم" وهو يساوي هكذا جملة معارف "أديب" أو الانسانيات العربيّة وكتب الأدب الأولى هي فعلا كأنّها مجموعات قواعد في حسن التعايش فيها تعرض الواجبات التي على المرء أن يقوم بها ليؤدي دوره في المجتمع. فهي كتب في حسن التعايش فيها نزعة أخلاقيّة أدت إلى تقسيمها إلى فصول موافقة للخصال المطلوب توفّرها في الأديب وفيها كذلك الاهتمام بتزويد الفرد بمعارف أدبيّة وتاريخيّة ونوادر وأشعار وملح في اكتسابها فائدة لتحلية الحديث.

وهذا الفنّ الأدبي وهو يتمثل في «الأخذ من كل شيء بطرف» للتعليم والوعظ والاصلاح مع إمتاع يعتمد شخصيّات تاريخيّة أو شبه تاريخيّة في حكايات تقدّم بدون تعليق لأن العبرة منها واضحة وهو بهذه الصورة يقترب إلى

أ - عن أصل الكلمة وتطور المفهوم انظر خاصّة : ك نالينو تاريخ الآداب العربيّة... ص ص 11 - 42 ولا سيما الجدول من صفحتي 11 و 17 وانظر كذلك فصل أدب بدائرة المعارف الاسلاميّة ص ص 180 - 181 من المجلد I من الطبعة II بقلم ف ثيريلّي وكذلك خواطر في معنى الأدب بقلم ش. بلا ص ص 1 - 19 في رسالة الشرق دراسات الصادرة سنة 1964 عن المركز العلمي البلجيكي للدراسة قضايا العالم الاسلامي وقد أعيد نشره ضمن مجموعة مقالاته الصادرة بلندن 1976. وقد عرّب هذا الفصل تعريبا ردينا جدا الدكتور أكرم فاضل ونشره بالعدد الأول من المجلد الثامن من مجلة المورد سنة 1399 / 1979. ونوصي بإعادة تعريب هذا الفصل الهامّ

حدّ ما من الحديث والتاريخ إلا أنّه يظل مبدئياً عربياً أساساً. وبصورة موازية فإنّ كتاباً فرساً مثل ابن المقفع قد استحوذوا على الأدب ليقدّموا قواعد أخلاقيّة لم تعد مقتبسة من الماضي العربيّ بل من الثقافة الإيرانية وإن آخرين قد ضيّقوا من مداه وحرّروا مختارات مدرسيّة موجهة إلى جمهور محدود: فكلّ طبقة اجتماعيّة أصبح لها بهذه الصّورة كتب عرضت فيها قواعد السلوك الخاصّة بهذه المهنة أو تلك (أدب الوزراء- الكتاب، القضاة، ندمان الخليفة).

وانّه في هذه المرحلة قد تمّ التوفيق بين الشّقاقتين المتنازعتين وكتب الأدب تلك تحتوي على مزيج متناسق من الحكايات والأحداث المقتبسة في الآن نفسه [131] من تاريخ العرب وتاريخ الفرس. وفي القرن IX فإنّ الرجل الذي تلقى تربية موافقة لمقتضيات المجتمع الراقي ينقلب أديباً قادراً على الكلام عن كل شيء ليعلّم ويسلّي ويمتّع قراءه وإن له بعدُ مجموعة ضخمة من الحكايات الوعظيّة أو المسليّة هي أساساً من أصل عربيّ بالنسبة إلى أنصار الانسانيّات العربيّة ومن مصادر متنوعة بالنسبة إلى أنصار التوفيق. وفي نفس الفترة فإنّ الأدب قد اتسع إلى الجغرافيا وإلى التّاريخ القصصيّ وبعد ذلك بقليل فإنّ معاجم التراجم والمؤلّفات المخصّصة إنّ صَحّ التعبير للتاريخ القصصي والمختارات، تقدّم إلى قرائها سلاسل من الحكايات هي في أغلب الأحيان مثيرة للاهتمام عن شخصيات تاريخيّة وشعراء بل وأولياء. وهذا هو كذلك من الأدب الذي يرمي إلى التعليم أو الإمتاع. وبعد القرن XI فإنّ كامل المادة السابقة قد انتقلت إلى مجاميع وموسوعات شعبيّة لا قيمة لها إلاّ لأنها تحتفظ أحياناً بفقرات مقتبسة عن آثار سابقة... والوجه الأخير لهذا الفنّ وهو جدّ ثريّ ومتنوّع يتمثّل في المجموعات المسليّة التي هي -وقد أهملت الجانب الوعظي من الأدب- قد اقتصرت على النوادر المضحكة.

والكاتب الأشدّ تمثيلاً لهذه الصّورة من الأدب على عهد أوائل العباسيّين هو يقينا، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (868م) إنّ هذا الذي قد يكون

انحدر عن رقيق قدامى من أصل افريقي قد اندمجوا منذ عهد طويل بالعرب، ولد بالبصرة نحو 776 وقد أمكنه طيلة شبابه أن يستفيد على أحسن وجه من الإمكانيات التي قدّمتها له المدينة التي ولد بها وأن يحصل على المعارف الضرورية للأديب على النمط العربي. وإن البحوث في الشعر واللغة وكذلك جمع أخبار القبائل كانت شغل علماء البصرة الذين كانوا شيوخ الجاحظ غير أنه، خلافا لمعاصريه، فإن تطلّعه الفطريّ قد حمله على أن يعاين بصورة أنفذ البيئة التي كان بها يعيش وهي بيئة متكوّنة من عناصر عربيّة محض كانوا يشعرون أن التفوّق يفلت منهم ومن عناصر أجنبيّة كانت تمسك^[132]، في انتظار ما هو أحسن، بالسلطة الاقتصادية وقد أمكنه هكذا أن يلاحظ ملاحظات عميقة عن "البرجوازية" التي كانت قد تكوّنت وعن مختلف مظاهر النزاع العربيّ الفارسي وقد كان يشعر بخطرهِ على الثقافة العربيّة بل وعلى الإسلام. وإن البصرة قد كانت في جميع بحوثها تعتمد مقياسا عقليا بحيث إنه قد ظهرت منذ عهد مبكّر أمام مواطني الجاحظ قضية التوفيق بين العقل والعقيدة ونشأت مدرسة الاعتزال وكانت تنادي بتحكيم العقل وعلى المستوى السياسي فإن العباسيين وقد كانوا استولوا على السلطة منذ حين شعروا نوعا ما بأنهم مغتصبون في حين أن العلويين وقد خابت آمالهم كانوا يكافحون كفاحا فكريا شديدا.

إن الجاحظ، وقد صاغت البصرة فكره وعمرته على هذه الصورة، كان ربّما يقصر اهتمامه مثل شيوخه على الشعر أو النحو لولا حدث كان قد حدّد وجهة حياته المهنيّة: إن المأمون قد طلب اليه بصورة غير مباشرة أولى المؤلفات ذات الشأن والمخصّصة لتبرير تولي العباسيين الحكم(أ) وإن الجاحظ وقد دعي

أ - الرّاجع أن الجاحظ ألف حوالي سنة 200 / 816 بايعاز واضح أو خفي من الخليفة المأمون لحكم من 198 إلى 218 هـ مجموعة من الرسائل أو المقالات حول الامامة في تأييد حكم العباسيين منها مثلا كتاب في المسائل العباسية، وكتاب إمامة ولد العباس وكتاب الدلالة على أن الامامة فرض وكتاب الأجوبة في الامامة. وقد طبع بعض هذه الرسائل . انظر عن ذلك مقال ش بلا عن مؤلفات الجاحظ التعليق التالي.

إلى بغداد إنعاماً من الأمير عليه قد قضى تقريباً كل ما تبقى من حياته في العاصمة حيث مكنته قراءة التراجم عن اليونانية من إتمام تكوينه الديني وحيث تفرغ لتأليف مجموعة كبيرة من الكتب في مختلف الفنون... ويكون من المفيد لنا أن نعرف التسلسل التاريخي لآثاره (أ)، على أنها في أغلبها قد ضاعت، لنتتبع تطور فكره. فإن العناوين وهي كثيراً ما تخدم، والتشويبات المقصودة لبعض الفقرات من قبل بعض المؤلفين اللاحقين، والأساطير التي تتداول عنه، كل ذلك يدعونا حتماً إلى الحذر الدائم. غير أنه لا شك أن آثار الجاحظ، هي في معظمها من الأدب الرامي إلى التعليم بالإمتاع فالنوادير والأخبار المضحكة والملح التي يضمنها تأليفه هي بصورة واضحة يقصد بها أن تبعث في القارئ الرغبة في المواصله وإن ذلك ظاهرياً هو مجرد طريقة كاتب واثق من نفسه، غير أن لهذا القسم من مؤلفاته - على أنه ليس الاقل^[133] - أهمية قد جلبت له شهرته كاتباً ساخراً ربما مضحكا - وهي شهرة لا شك بعيدة كل البعد عن قصده الأول.

وهذه الرغبة في إمتاع الجمهور تصدر على العكس من ذلك عن مذهب في الدعاية يكاد يكون واضحاً يجعل من الجاحظ كاتباً هو في الآن نفسه ساحر غريب. وإنه ليبدر أن غاياته هي أساساً دينية وسياسية. إنه معتزلي راسخ العقيدة لكن ليس له أدنى صفة من صفات صاحب المذاهب المتعصب لمذهبه وهو يرمي قبل كل شيء إلى أن يحطم العقائد المخطئة وأن يزيل - إن شئنا -

أ - الملاحظ أن ش. بلا بمجلة أريكا (ص ص 147-180 بالجزء 2 من المجلد III) ومرة ثانية بنفس المجلة ص ص 117-164 بالجزء 2 من المجلد XXXI أحصى آثار الجاحظ (وقد بلغت في المحاولة الأولى 193 وفي الثانية 245 أثر) ذكراً ما أمكن ذلك بالنسبة إلى كل أثر (أ) التاريخ التقريبي لتأليفه (ب) الكتب القديمة التي ذكرت عنوانه، ج الفهارس الحديثة التي تشير إليه، د مخطوطاته الكاملة أو الجزئية؛ هـ: الطباعات الكاملة والطبعات الجزئية أو ما استشهدت به منه الكتب المطبوعة، و. الترجمات الكاملة أو الجزئية. ز: دراسات مختلفة حوله، ح: ملاحظات وهذا العمل نموذجي.

صبغة الخرافة عن الثقافة العربية الإسلامية وأن يحمل إخوانه في الدين علي التفكير في الإسلام ليقبلوا في نهاية الأمر، في خطوطه العامة، المذهب الذي يدعو اليه أي مبدأ خلق القرآن والعدل الإلهي ونفي التشبيه وإنه في سبيل ذلك قد ألف كتيبات تبسيطية وكتابه الغريب كتاب الترييع والتدوير (1) حيث ألقى على مخاطب أسئلة محيرة حول أحداث طبيعية وأخبار مقبولة بدون نظر ثم كتابه الضخم كتاب الحيوان في سبعة مجلدات (أ) حيث جمع في موضوع الحيوانات وهو يدرس خصائصها، الآراء الدينية وتفسير بعض الآيات والملاحظات والآراء الشخصية عن أشد القضايا تنوعاً. وهو في الجملة كتاب تمجيد، حيث عجائب الخلق، دليل الخالق، تجلّى في كل صفحة وحيث الإسلام يُمجّد واعتقادات العجم المارقة تدحض.

وفي الميدان السياسي، فإنّه قد كان فعلاً للشعوبية عدواً مبيناً وإنّه بمهارة نادرة قد ألف كتباً عديدة لبسط آرائه. وكتاب البيان^[ب] هو في الظاهر كتاب مختارات على أنه ثمين إذ هو قد حفظ لنا أشعاراً ونماذج من الخطابة العربية، غير أنّه في الحقيقة محاولة من الجاحظ^[134] يبرز في كتاب نقد بناء كفاءات العرب في الأدب وإنما يتمثل الأمر في تنبيه اللغويين إلى أن بحوثهم يجب أن لا توحد في المناقشات العقيمة ولكن على العكس من ذلك أن تغذي الانسانيات العربية وإنّ نزعاته المعادية للشعوبية لهي أوضح في

1- ترجمة م عنكاد في أريكا XII - XIV 1966-1967 (والملاحظ ان الأستاذ ش. بلا كان قد نشره بدمشق سنة 1955 بإشراف المعهد الفرنسي للدراسات العربية في طبعة علمية نموذجية.
أ - أفضل طبعاته طبعة عبد السلام هارون في 7 مجلدات القاهرة 1938 - 1945
ب - أفضل طبعاته طبعة عبد السلام هارون في 4 مجلدات القاهرة 1940 والطبعة الثانية 1380 - 1960 بمكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد.

تصوير الطبائع والطبقات الاجتماعية في كتاب البخلاء (1) خاصة فإن الجاحظ يسعى إلى الإشادة بكرم العرب مقابلًا بينهم وبين بخل الطبقة البرجوازية ذات الأصل الفارسي وهو بنفس المناسبة قد أنشأ فنًا أدبيًا ووصل به في الآن نفسه إلى منتهاه . ثم أن الجاحظ وقد كان راسخ الإيمان محبًا للعرب وللفرس عدوا قد قاده الأمر لغاية تمجيدية وسياسية إلى أن يقطع العلاقة بالماضي ليعتني بالحاضر ويصور الواقع. إنه، وهو لم يكتف بأن يوجه الأدب وجهة جديدة قد رسّخ قواعد إنسوية في بدايتها عربية محضا وتعارض التدخل الفارسي ثم تصطبغ بصورة تقوى يوما فيوما بالثقافة اليونانية ومجموعة آثاره هي منطلق لإحصاء هو محدود للمواد التي توفرها الإنسانيات العربية وقد أثرتها عناصر مستقاة من المصادر اليونانية باستثناء الثقافة الفارسية التي تهدد بتأثير الكتاب باكتساح العرب . ومحاولة التأليف هذا هي قطعا إحدى مفاخر الجاحظ الرائعة باعتراف اخوانه في الوطن والدين.

وعلى المستوى الأدبي المحض فإن له بالإضافة إلى ذلك أهمية أساسية لأنه أول ناثر عربي بآتم معنى الكلمة أو مستعرب استعربا كاملا. إنه وهو لم يؤت من موهبة الشعر شيئا [أ] قد سعى أن يعبر نثرا عن الآراء والمعاني التي كانت إلى ذلك الحين وقفا على الناظمين وقد وفق رغم المآخذ التي يأخذها عليه النقاد إلى أن يجعل من النثر العربي [135] أداة طيعة ثرية

1 - ترجمة الى الفرنسية. ش. بلا باريس 1951¹ والملاحظ أن طبعة طه الحاجري في سلسلة ذخائر العرب بإشراف دار المعارف بمصر سنة 1963 هي أفضل الطباعات العربية وأشدّها مراعاة للتحقيق العلمي النقدي الصحيح]

أ - حاول أن يجمع ما نسبت إليه من أشعار وحققها ونشرها محمد جبار المعبيد بمجلة المورد العراقية قبل أن يعيد نشرها في كتابه "شعراء بصرىيون من القرن الثالث الهجري (العتري، الجاحظ، الحمدوي) منشورات مركز الخليج العربي بغداد 1977.

ملامة لمقتضيات الفكر (1). وإنما سيكون لكاتب من اصل فارسي، ابن قتيبة (828- 889)، أن يحقق ذلك العمل التأليفي الأشمل الذي كان الجاحظ قد أباه. إنه وقد ولد بالكوفة قد تولى القضاء بدينور حينما ثم عاد إلى بغداد ليستقر بها حيث امتحن التعليم. إن ابن قتيبة، وقد كان نحويًا، أول من وفق بين مدرستي الكوفة والبصرة وهو قد كان مفسرًا اجتهد في التخفيف من الاختلافات المذهبية الناجمة عن تضمن القرآن لآيات ناسخة ومنسوخة والسنة لأحاديث متناقضة (2) وتفكيره التأليفي والتوفيقي قد قاده إلى أن يضع بين يدي الكتاب -وقد كان لاحظ جهلهم- كتابًا مدرسيًا عنوانه برنامج برمته "أدب الكاتب" [أ] إن الكتاب، وقد حيرتهم من قبل كتب الجاحظ التي كانت بينت لهم وجود ثقافة عربية، وجدوا في كتاب ابن قتيبة مختصرًا في النحو والبلاغة والعبارات الرشيقة و الوصايا التي كانت تمكّنهم من تجديد أسلوبهم ويكمل هذا الكتاب ويمثل له مختار شعري، [ب] في حين أن "عيون الاخبار" (ج) يتم في ميدان الأدب التوفيق بين الثقافتين بالاستقاء من كل منهما للعناصر التي تبدو صالحة وإن ابن قتيبة وقد تعلق بالسنة شديد التعلق وضاق بمبالات الفقهاء الذين قبلوا بتسرّع مفرط المذاهب اليونانية، قد

1- ان مجموعة آثار الجاحظ لا تزال معروفة معروفة سطحية بفرنسا ونشير بالاضافة الى الترجمتين اللتين سبق ذكرهما إلى دراسة. بلاء المفردة: البيئة البصرية وتكون الجاحظ. باريس 1953 لعرية ابراهيم الكيلاني ونشرته دار اليقظة بدمشق سنة 1961 بعنوان الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء (وبعض المقالات المترجمة خاصة بمجلة "أرابيكا" ومختارات من النصوص نشرتها لنفس المستعرب بالالمانية: زوربخ اشتوتغارت 1967 وبالانجليزية بعنوان مختلف: حياة الجاحظ وأثاره بركلاي. 1970.

2- انظر: ج. لوكت كتاب مختلف الحديث لابن قتيبة دمشق 1962 والمؤلف نفسه (ابن قتيبة "دمشق 1965 بالفرنسية).

أ - انظر مثلا طبعة بريل بليدن سنة 1900 وقد أعادت دار صادر بيروت سنة 1967 هذه الطبعة بالأوفست

ب - المقصود : كتاب الشعر والشعراء

ج - : انظر مثلا (وهي الطبعة الكاملة) طبعة بتحقيق أحمد زكي العدوي (دار الكتب بالقاهرة 1925 - 1930 (4 مجلدات)

[136]. عارض ذلك معارضة شديدة وأهمل على عكس الجاحظ، وقد كان يعتبره خصماً، التراث اليوناني. وأهمية هذين المؤلفين لا يمكن أن تُغْمَط ذلك أن مؤلفاتهما تشمل مجموع المعارف التي هي في الميدان الديني تساعد على تكوين رجل الأدب ويمكن أن نتبين ذلك من الكتب العديدة التي قلداً فيها أصحابها كتاباتهما وكذلك من كثرة التزييف وما نسب إليهما زوراً. ودراسة هذه المزيفات قد توفر لنا دلائل ثمينة إذ لكأن المزيفين لم يفهموا دائماً نزعاتهما الحقيقية وهكذا نسب إلى الجاحظ كتاب في آداب السلطان (1) ورسالة عن طرق الكهانة^[أ] عند الفرس تناسب مناسبة تكاد تكون تامة غايات ابن قتيبة وتبتعد كل البعد عن مشاغل الجاحظ الحقيقية.

ومن المشرق فإن الأدب قد انتقل إلى المغرب حيث ألف ابن عبد ربّه (868-940) عقده وهو مختار مبوب إلى 25 كتاباً كل منها عنوانه اسم جوهرة. ومحتواه مستمد من آثار الجاحظ وابن قتيبة وكذلك من مصادر أخرى أقل قيمة تجعل من الكتاب وثيقة ثمينة رغم أنه لا يوفر أي خبر عن إسبانيا الإسلامية^[ب].

أمّا في المشرق فإن الراغب الإصفهاني (م نحو 1108)، وقد اشتهر مفسراً للقرآن وكاتباً أخلاقياً قد ألف كذلك كتاب أدب "المحاضرات"^[ج] حيث طرقت جميع المعاني المتداولة مع شواهد من الشعر والنثر.

1 - كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ترجمة ش. بلا. باريس 1954. كتاب التاج في أخلاق الملوك طبعة القاهرة 1914 وخاصة طبعة بيروت 1955

أ - المقصود كتاب "العرفاء والزجر والفراصة على مذاهب الفرس وقد نشره المستشرق الروسي اينستر انتزاف سنة 1907 بسان بيتانزبور (انظر ما بين رقم 106 و 107 من إحصاء بلا الثاني)

ب - العقد وهو العنوان الأصلي أو العقد الفريد وهو العنوان المشهور طبع عدة طبعات لعل أفضلها بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ط 2 مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1952

ج - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء - طبع طبعات مختلفة مثل طبعة دار الحياة بيروت لبنان في أربعة أجزاء. سنة 1961.

ومن الملاحظ أن ذلك الإنتاج كله لئن كان ينم عند كاتب مثل الجاحظ أو ابن قتيبة عن تفكير شخصي فإنه في معظمه يعتمد على أخبار مختلفة المناسبة بينها وتبويبها هما الميزتان الوحيدتان للآثر. والخيال المحض فيه محجور وإنما [137] يظهر في ميدان يختلف بعض الاختلاف . والأدب كما كان الجاحظ يتصوره قد تفتت فعلا لينتقل إلى الجغرافيا والتاريخ في حين أن قسم الإمتاع قد نزع إلى أن يصبح فناً مستقلاً.

رأينا في الفصل السابق أن العرب كان لهم قطعاً قصص منذ عهد ضارب في القدم لكن حسب نتف الأخبار التي لدينا فإن الأدب العربي في بدايته يبدو أنه قد غُمرَ بوابل من القصص المترجمة عن الفارسية والمنقحة من قبل كتاب أحسن أسلوباً من المترجمين. ومنذ قبل القرن X ، فإن مجموعاً فارسياً من أصل هندي "هزار افسانه" (ألف حكاية) كان ترجم إلى العربية وهو، والأغلب على الظن أنه اعتُبرَ جاقاً وبارداً، قد كان حثّ كاتباً ترك لنا بالإضافة إلى ذلك تاريخاً "للوزراء والكتاب" [أ] وهو الجهشياري (942م) على أن يجمع مباشرة من القصّاصين ألف قصة عربية فارسية ويونانية كان على كل واحدة منها أن تشغل ليلة كاملة غير أن الكاتب قد توفي ولم يكن قد أنهى إلا 400 ليلة [ب].

والقاضي التنوخي (939- 994) وقد اعتمد أعمال سابقيه ولا سيما المدائني (840م تقريباً) قد ألف ثلاثة كتب ترفيهيّة أشهرها "الفرج بعد الشدة" [ج] وهو مجموعة من الأمثال والنوادر والأشعار في هذا المعنى أكملها بقصص جمعها لدى الكتاب والقضاة.

أ - نشر الكتاب أو ما وصلنا منه (الجزء الأول) مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة سنة 1357 / 1938 وقد كان نشره سنة 1926 بلمبريف هـ فون امزيك. وقد أشار إلى بعض أجزاء الجزء الثاني ونشر بعضها ميخائيل عوكاد بالمجلد XVIII من مجلة المجمع لعلمي العربي بدمشق سنة 1943 كما نشر بعضها د. سرودال في فصل ضمن الدراسات إلى ل. ماسينيون دمشق. 1957

ب - الأغلب أن المؤلف يشير إلى كتاب الأسماء وقد ضاع ولاحظ وقد نشر هنس وير كتاباً غير منسوب عنوانه الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة سنة 1956 بفساداً ظنه بعضهم خطأ أنه هو كتاب الجهشياري

ج - حققه عبود الشالحي ونشرته دار صادر بيروت 1398 - 1978 والكتابان الآخران هما المستجد من فعلات الأجواد نشره محمد كرد علي بدمشق.. ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة حققه عبود الشالحي ونشرته دار صادر

بيروت

وأبو منصور الثعالبي (961-1038) قد ألف مجموعة من الكتب الترفيحية ومجاميع من الحكم والأمثال تخللتها أخبار مأخوذة عن التراث وقد أصبح منذ ذلك اليوم مشتركا. وإن معاصره ابن مسكويه (1) (1030م)، دون أن يكون فيلسوفا بآتم معنى الكلمة وإنما كان أديبا، يتميز بالعناية الخاصة التي يوليها إلى علم الأخلاق وهو فن متفتح في الآن نفسه إلى أسلوب الحكيم اليوناني التأمل إلى القيم الإيرانية العربية التقليدية (138) وقد أدمجت بفضل المختارات ضمن نظرة إسلامية ثم إنه وقد ألف مجموعا من النوادر "أنس الفريد" [أ] قد ظل في حدود الأدب الكلاسيكي. ورسائله مع التوحيدي "الهوامل والشوامل" [ب] تقترب من "تربيع" الجاحظ بتنوع المسائل المطروحة غير أن إنتاجه النظري وخاصة كتابه في الاخلاق "تهذيب الاخلاق" (2) يتجاوز تجاوز كبيرا الإطار السابق ويساهم في تجديد "إنسانيات" تعتمد موقفا ذا طابع فلسفي يسعى إلى الظفر عمليا بالسعادة.

وهو وقد عمل بالدواوين لدى بويهسي فارس الغربية، قد تمكن من أن يستعمل بالنسبة إلى السنوات 951-980 مصادر مباشرة وأن يجسم في كتابه «تجارب الأمم» [ج] منهجا في التاريخ يشره ما تقتضيه الأخلاق، مع إبراز

1- انظر: م. أركون: مساهمة في دراسة الانسانيات العربية في القرن IV الهجري: مسكويه فيلسوفا ومؤرخا. باريس 1970 طبعة 2 سنة 1982

أ - في إرشاد الأريب لياقوت ج 2 ص 91 كتاب أنس الفريد وهو يتضمن أخبارا وأشعارا وأحكاما وأمثالا غير مبررة ولم يعرف هل نشر أم لا.

ب - طبعة أحمد أمين وأحمد صقر بالقاهرة 1370 / 1951.

2- ترجمه الى الفرنسية م. أركون دمشق 1970. 1 وطبعة 2 سنة 1988 وقد نشر الأصل العربي تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق في طبعة حسنة ببيروت 1967 ق. زريق

ج - تجارب الأمم "نشره في ثلاثة أجزاء بليدن 1909 - 1917 ل. كيتاني ثم أعاد نشره ه. ف. أمديوز و. د. س. مليوت مع الذيل الذي أضافه الوزير أبر شعاع الروذاري (م 488 / 1095) وترجما المجموع إلى الانجليزية بلندن 1920 - 1921 والكتاب في التاريخ العام أو العالمي إلى سنة 369 / 980 .

الصعوبات الملموسة التي يثيرها تشييد المدينة الفاضلة. إن جميع هؤلاء المؤلفين وقد يكون من السهل أن نطيل قائمتهم بمثلون المنحى الانتقائي الذي تعارضه نزعة عربية محض تتجسم في البحث عن الأخبار التي تمكن من إعادة قصص الغرام الشهيرة وجمعها. وانه ل يبدو أن تلك القصص لها أساس من الصحة وأن الأبطال، وإن لم يكن لهم تقريبا شخصا أي وجود حقيقي، فإن مغامراتهم هي من بعض الوجوه من التاريخ وقد نزع به طبعنا نحو الاسطورة. وعلماء اللغة أنفسهم قد تعاطوا عمل البحث هذا لدى المخبرين البدو، وإن المؤرخين قد جمعوا الأساطير القبلية عن غراميات الشعراء الشهيرة والأشعار التي نظمت في هذا الموضوع مثبتين بهذه الصورة أسطورة الشعراء العذريين الذين كانوا يموتون حباً من أجل حسانهم. وأشهر هذه القصص قصة قيس بن الملوح الملقب بمجنون ليلى وقد أصبح غرضاً من الشعر الفارسي والصوفي^[139] "إن القصة إذا ما جردت من التفاصيل الطريفة التي زينت بها العصور الحديثة قصة جد بسيطة: لقي قيس ليلى «في اجتماع نسوة فشغف بها من أول نظرة ونحر ناقته ليقيم لها وليمة فبادلته بدورها حباً إلا أن أبا الفتاة قد أبى أن يكون قيس له صهراً. ولم تلبث ليلى أن أصبحت لورد بن محمد العقيلي زوجاً فجئ قيس ألما وقضى بقية أيامه في وحدة هائما يكاد يكون عريان بين جبال نجد وأوديته ناظماً الأشعار في حبه البائس لا يرى ليلى إلا لماماً حتى قضى " (ر.أ. ينكلسون)

فأدب الخيال لم يكن إذن على غاية من الثراء فالمعينة، وقد كان الجاحظ جعل منها عنصراً من أطرف عناصر إنتاجه، لا تكاد تقدم لنا مؤلفات بارزة. وأقصى ما في الأمر أنه يمكننا أن نذكر الوشاء (قX) فإنّه، وهو يستلهم الجاحظ بل يقلده أحياناً عند الاقتضاء - قد ألف كتاباً عن آداب الأوساط

الراقية وعن حياة ظرفاء عصره الأثيقة وإن هذا الكتاب^[أ] ذا القيمة الوثائقية الكبرى وهو يمكن من تمثيل حياة الاستقراطية الخاصة حرياً أن يترجم إلى الفرنسية. وإن معاصره أبا حيّان التوحيدي^[ب] وقد كتب لعدة وزراء بدواوينهم مؤلف ذكي وهو صوفي وفيلسوف إلى حد ما. وأنه - وهو يقلد أسلوب الجاحظ السهل على أنه يقرّظه - قد ألف كتاباً في هجاء وزيرين^[ج] بعض صفحاته تذكرنا "لابرويار"^[د] وقد جمع في مقابساته^[هـ] وفي إمتاعه^[و] آراء شخصية ومحاورات وقصصاً عن مواضيع فلسفية وتاريخية مختلفة. وهذه الكتب صورة تكاد تكون أمينة لاشتغالات عصره الفكرية .

وإن لوحة عن حياة جميع طبقات بغداد وعاداتها يقدمها كذلك أبو المطهر الأزدي (قX) وقد شعر أنه يخلق فناً أدبياً طريفاً يجعله شخصية من الشخصيات تصف مشاهد حية من الحياة اليومية. وهذا الفن لن يتبع أكثر من لوحات الجاحظ الاجتماعية، ولكنه يكون (140) همزة وصل بين الأدب الواقعي والمقامة المسجعة التي ستميز القرن X.

أ- المقصود كتاب الموشى أو الطرف والظرفاء وقد طبع خاصة بمطبعة الاعتماد بمصر ط. 2 / 1372 / 1953 وقد اعتمده محمد فريد غازي لتحرير فصل هام عن "الظرفاء" نشر بمجلة: دراسات إسلامية بباريس ص ص 39-71 بعدد XI سنة 1949 وقد جاء في التعليق رقم 1 ص 39 أنه حقق الكتاب وترجمه إلى الفرنسية بإشراف بلاشير ولا يعرف الآن مصير هذا العمل.

ب - درس آثاره ضمن أطروحة دكتوراه نوقشت بجامعة الصربون بباريس سنة 1974 ونشرتها جامعة ليل بفرنسا مارك بارجي ثم أعد عنه بحثاً عنوانه مدونة التوحيدي محاولة احصاء وتبويب بمجلد XIII / 1977 من حوليات إسلامية الصادرة عن المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة) ضبط فيه كما فعل شارل بلا بالنسبة إلى آثار الجاحظ جميع آثار التوحيدي.

ج - يعني مثالب الوزيرين: صاحب وابن العميد" وقد حققه إبراهيم الكيلاني ونشرته دار الفكر بدمشق ط1: 1961

د - لا برويار: كاتب فرنسي (1645 - 1669) اشتهر خاصة بكتابه "الطبائع" وقد ألفه 1668 وجمع فيه حكماً وأوصافاً تحلل أبرز النماذج البشرية في المجتمع الفرنسي في ذلك العهد.

هـ - طبع عدة طبعات مثلاً بالهند 1888 ببغداد 1970

و - كتاب الإمتاع والمؤانسة وقد حققه أحمد أمين وأحمد الزين ونشرته بالقاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط 1 1939 (11942) و 1944 ثم ط 1 / 1953 وط 3 (بيروت 1966)

"حكاية أبي القاسم البغدادي وقد نشرها ميتز ط 1 هايدلبرق ألمانيا 1902 وأعادت طبعها بالأنفست مكتبة المثنى ببغداد . د.ت.

النقد الأدبي (1)

لئن كان وصف المجتمع وتصوير الاخلاق، وهما يتطلبان جهدا في الملاحظة لم يُلهما الكتاب العرب إلا قليلا فإنَّ النقد الأدبي عندهم قديم قَدَمَ الأدب نفسه اذا صدّقنا الأخبار التي تروي أنَّه وجد ببلاد العرب قديما مسابقات أدبيّة حقيقيّة (أ) ودون الرّجوع طويلا إلى الوراء فإنَّ اللّغويّين الذين كانوا يجمعون القصائد كانوا مجبرين لا فحسب على أن يتحلّوا بروح نقديّة لتمييز المنحول ولكن كذلك على الاختيار بين الآثار التي تتوفّر لهم، وبهذه الصورة ضبطت خاصّة قائمة المعلقات، وقد كان جمهور الكوفة والبصرة خبيرا في ميدان الشّعر ولم يكن أشهر ناظمي الشّعر يستنكفون من أن يعرضوا آثارهم على رأي هذا النقد شبه الرسمي فقد كان اذن من الطبيعي أن أصبح النقد الأدبي فناً مزدهرا، إلا أن المنظرين لما أقرّوا مبدأ إعجاز القرآن كادوا لا يهتمّون بالنّشر وكادوا يقصرون عنايتهم على الشّعر باعتباره المثل الأدبيّ الأعلى.

ان العرب وهم يجهلون الاداب الأجنبية لم يتمكّنوا من تأسيس نقد مقارن وقد نشأت أحكام عن مجرد إرتساميّة وقامت على الإحساس الفنيّ الذي يحدثه هذا البيت أوذاك، يؤخذ على حدة حتى إنّ جميع الشّعراء تقريبا اعتبروا أشهر الشّعراء (ب) على ان يحترموا - طبعا - القاعدة، أي الشّعر الجاهليّ وقد اعتبر النموذج الأمثل بالقياس اليه يُقَيَّم كلُّ (141) إنتاج، والنقد - وهو

1- انظر: أ. ضيف بحث في الغنائيّة والنقد الأدبيّ عند العرب. باريس 1917؛ أ. الطرابلسي نقد الشعر عند العرب دمشق 1955. [البحثان بالفرنسية] وقد عرّب الكتاب الثاني إدريس بللمليح بعنوان نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس للهجرة (دار توبقال بالمغرب سنة 1993).

أ - يشير المؤلف خاصّة إلى ما كان يجري بسوق عكاظ من انشاد للشعر ومفاضلة بين الشعراء.

ب - من المشهور في هذا الباب ما يلي انشد مروان بن أبي حفصة يوما جماعة من الشعراء وهو يقول في واحد بعد واحد هذا أشعر الناس فلما كثر ذلك عليه قال كملّ الناس أشعر الناس.

شكلي - سيدرس شكل المعلقات وهو، دون أن يعتبر تطوّر العادات، سيقترح تقليد القصائد القديمة تقليداً أعمى، والمحاولات المفردة للتخلص من ذلك ستلقى معارضة المنظرين ولن يساعدها البتّة نقد مناسب: والشّعراء أنفسهم هم الذين سيكون عليهم تبرير مبادرتهم.

أمّا في ما يخصّ النثر فإنّه ما أن فهم القرآن بفضل فقه اللغة والمعجميّة حتى أخضعوه إلى تحليل مدقّق غير أنهم اقتصروا على الألفاظ دون أن يبحثوا في الفنّ وانسجام الأسلوب ودون أن يحاولوا بيان الخصائص التي تجعل من الكتاب المقدّس أثراً رائعاً. والنقد من هذا النوع وهو نحويّ وتاريخيّ إلاّ أنه غير جمالي البتّة سيصبح بطبيعة الأشياء دفاعيّاً. وسيكون الأمر تقريباً على هذه الصّورة بالنسبة إلى الشعر الجاهليّ وهو سيُرى مع الزمن محاطاً بهالة من التقديس يكاد يكون دينياً.

وإنّما في القرن IX بدأ جمع الآراء التي عبّر عنها وأذاعها شفوياً أهل الذكر ونجد في بداية النقد النادرين اللذين كنّا من قبل قد بسطنا القول فيهما، الجاحظ وابن قتيبة و"بيان" الأوّل أقرب إلى المنتخبات وهي تفترض اختياراً وهو كتاب بلاغة أكثر منه عملاً نقديّاً، بمعنى أنّ قيمة المقطوعات المعروضة قليلاً ما تُبيّن غير أنّ لهذا الأثر قيمة اعترف بها أبرع النقاد العرب إذ هو، وراء مظاهر بسيطة جداً بل مضحكة، يحصي المعارف المكتسبة في الميدان الأدبيّ ويقدم قدوة للشعراء والنادرين نماذج ليست بالضرورة مأخوذة من بين الآثار الجاهليّة. والتطوّر هو من قبل مع الشعر والشعراء لابن قتيبة⁽¹⁾ بيّن على مستوى المنهج إذ المؤلّف يؤسّس نقده على دراسة وجوه بلاغيّة^[142]

1 - ترجمت المقدمة إلى الفرنسية من قبل م. فود فورا دي مونبين (باريس 1948) نشر عدة مرات وطبعه دار الثقافة بيروت لبنان 1944 طبعة مرضية

يَبْوِيها وهو يخصّ كل شاعر بترجمة إنّه وهو يعتبر المعنى واللفظ، يميّز في الشّعر أربعة أضرب: ما حسن معناه ولفظه، ما حسن معناه أو لفظه، ما تأخّر معناه ولفظه (أ). وإنّ نزعتة التوفيقية قد قادتة إلى أن يرى أنّ تقليد القدماء يجب أن يكون بمقدار وفي اعتدال غير أنّه ليس للمحدثين أن يخضعوا المعاني القديمة للظروف الجديدة.

وأهمية كتابه تكمن خاصّة في ضبط قاعدة سيحرص جميع الشعراء على اتباعها: نظم أشعار باعتماد صور استعمالها القدماء لكن باعطائها طابعا شخصيا.

وقد رسم قدامة (م نحو 948) في كتابه نقد الشّعر [ب] القواعد العامة لفنّ الشّعر وهو يتمثّل في "ائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن وائتلاف المعنى مع الوزن وائتلاف المعنى مع القافية" وكي يتميّز الشّعر عن النثر فإنّ جمال الألفاظ والقوافي - وهذه صيغة لفظية بحث - أمر ضروري والأغراض الأساسية هي في نظره المديح والهجاء والنسيب والوصف والتشبيه.

ثم إنّ خلفه أبا هلال العسكري (م بعد 1005) قد أراد أن يحوّر وينظّم ويتّم عمل الجاحظ وأن يقدّم في كتابه "كتاب الصناعتين" [ج] عرضا متكاملا عن البلاغة العربية. وعنده أنّ ماهية الشّعر والفصاحة في الألفاظ وفي الصّور المشرقة أكثر منها في المعاني إلّا أنه لا يبلغ به الأمر إلى أن يقبل معنى غير معقول وخير الأساليب ما كان خفيفا مفهوما وواضحا. فما الشّاعر بخلاق بل هو

أ - كلام ابن قتيبة هو 1 ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه 2 ضرب منه حسن لفظه وحلا فإن أنت فتشّته لم تجد هنالك فائدة في المعنى 3 ضرب منه جاد معناه وقصّرت ألفاظه عنه و4 ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه (الشعر والشعراء طبعة دار الثقافة بيروت 1964 ص 12 - 55)

ب - طبع هذا الكتاب طبعات عديدة أهمّها طبعة أ. هرنباكر ليدن 1956

ج - طبع طبعات مختلفة أفضلها طبعة المكتبة العصرية صيدا بيروت 1406 / 1986 وتحقيق محمد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم

فحسب فتان: وهذه النظرية قد أدت بنسبة تفوق ما عليه الأمر عند ابن قتيبة إلى السلخ الذي ينعت به بالسرقة على أنهم لم يؤاخذوا عليه الشاعر في جميع الحالات، فالسارق هو فعلا أهل للمدح اذا استطاع وهو يأخذ معنى عبّر عنه سابقه - أن يقدمه في صورة أجود وأدق.

- ثم ان المدرسة القيراونية (أ) في القرن XI اهتمت بالنقد الأدبي وحاولت - وهي تعتنى بدراسة دواوين الشعراء المشاركة - أن تستخرج قواعد فن شعري (143) وإنه ليس لنا من ابن شرف (م 1068) إلا فصول من كتاب ضخمة فيه بعد حكم عام عن كل شاعر دراسة كثيرا ما تكون حصىفة لبعض الأبيات الخاصة (1) وقد ترك لنا الحصري (م 1022) في كتابه "زهر الآداب" (ب) مختارات لا تزال جد مفيدة، اما ابن رشيق (م نحو 1070) فهو مؤلف كتاب في فن الشعر، العمدة (ج) رأى ابن خلدون من الصالح ان يلخصه في "مقدمته"، وهو كذلك كما هو الشأن بالنسبة إلى بيان الجاحظ نوع من المنتخبات فيه نقل المؤلف وهو ينظمها، الآراء التي عبّر عنها سابقوه دون أن يضيف اليها شيئا يكون حقاً شخصياً. وائتلاف المعنى مع اللفظ يبدو له ضرورياً إلا أنه مثل النقاد الآخرين، أميل إلى تغليب اللفظ.

وقد حاول الاندلسي حازم القرطاجني (د) (1211-1285) أن يطبق على الأدب العربي نظريات أرسطو وهو يعرفها بفضل الترجمات العربية لكتاب الشعر إلا أن محاولته يبدو أنها قد ظلت مفردة "مجهولة".

أ - درس هذه المدرسة الشاذلي بو يحيى ضمن أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بجامعة الصربون وطبعت بتونس بالفرنسية سنة 1972 بعنوان الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري.

1 - مسائل الانتقاد ترجمه ش. بلا ونشره بالنص العربي بالجزائر 1953.

ب - كتاب زهر الأدب وثمر الأكباب نشره نشر علميا علي محمد الهجاوي القاهرة ط 1 / 1953 وط 2 / 1963

ج - كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه نشره في طبعة ضعيفة وهي متداولة محمد محبي الدين عبد الحميد ط 1 القاهرة 1934 وقد أخرجه في طبعة أدق تميزت خاصة بمجموعة من الفهارس محمد قرقران بيروت 1988

د - اعتنى بهذا الكتاب : منهاج البلفاء وسراج الأدهاء محمد الحبيب بن الخوجة ودرسه للاعزاز علي دكتوراه المرحلة الثالثة (جامعة الصربون 1964) ونشره بتونس 1966 ثم في طبعة ثانية ببيروت دار الغرب الاملاي 1981

وأبرز ممثل للنقد الديني⁽¹⁾ بعد المفسرين الذين كانوا قد حاولوا عرضاً ان يبينوا مظاهر الجمال في القرآن هو الباقلاتي (م1013) وقد حاول في كتابه "إعجاز القرآن" معتمداً تحليلاً عميقاً أن يثبت معجزة الكتاب المقدس "إن المؤلف، وقد سيطرت عليه تلك الفكرة الدينية، فكرة ان القرآن هو أفصح الآثار جميعاً، يبسط نظريته بروح ملؤها الاقتناع. انه وهو يبحث عن الفصاحة مضطراً إلى الحديث عن الشعر وتفسير مختلف النظريات عن فن الكتابة، وإنها لمناسبة بالنسبة اليه كي يعرض آراء الشخصية وان لم تكن وقفا عليه إذ يجب الاعتراف بأن تلك الحجج الأدبية تتكرر عند جميع المؤلفين" (أ.ضيف) فبدأ فتأنا عظيماً، ذا فكر ثاقب وذوق مرهف "إلا أن نظريته تبقى ارتسامية وهو يعجز عن (144) تحليل الأسباب العميقة للمعجزة القرآنية وقد قال هو نفسه "فاما نهج القرآن (ونظمه وتأليفه ووصفه) فإن العقول تنبئ في جهته (وتحار في بحره وتضل دون وصفه) ونحن نذكر لك في تفصيل هذا ما (تستدل به على الغرض وتستولي به على الأمد وتصل به إلى المقصد) وتتصور إعجازه كما تتصور الشمس (وتتيقن تناهي بلاغته كما تتيقن الفجر) (واقرب عليك الغامض واسهل لك العسير) واعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان (قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا آل عصمة تعظ لما فيه) وهو أدق من السحر وأهول من البحر وأعجب من الشعر" (أ) إنه وهو قاصر عن بيان مظاهر الجمال الحقيقية للكتاب المقدس إن لم يكن بتحليل لا طابع أدبياً له، هو على العكس من ذلك يجد كل السهولة حين يتعلق الأمر باكتشاف عيوب جميع صور الأدب الأخرى ويظهر ظالماً ظلماً واضحاً لشعراء مقدرتهم معترف بها.

1- انظر : ت. نولدكه ملاحظات حول أسلوب القرآن ونحوه (ترجمة إلى الفرنسية ث. ه. بوسكي وشفعه بملاحظات اجتماعية حول مبدأ أفضلية (أو إعجاز) القرآن (باريس 1954)
أ- نقلنا النص العربي من إعجاز القرآن للباقلاتي ص 279 ط. دار المعارف بمصر 1954 ووضعنا بين قوسين ما لم يترجم الى الفرنسية:

وان النقد المقارن هو مخيب للآمال بنفس الدرجة، رغم أن "وساطة" (أ) أحد كتاب عضد الدولة بشيراز، وهو الجرجاني (X) تتسم بخصال ناقد، تشوبها مع الأسف نية المؤلف المسبقة وهو يريد أن يبين تفوق المتنبي. والآمدی (م981) فيلسوف اهتم في موازنته بمقارنة فضائل كل من القديمين المحدثين أبي تمام والبحتري فقد قال: "فاما انا (فلمست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكني) أقارن بين قصيدتين من شعرهما اذا اتفقتا في الوزن والقافية (وإعراب القافية) وبين معنى ومعنى فاقول: ايهما أشعر (في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ثم احكم انت حينئذ (على جملة ما لكل واحد منهما اذا احطت علما بالجيد والردئ) (ب).

والنزعة الفنية لنقده تعرقلها سيطرة الاهتمامات النحوية إلا أننا نلاحظ أن الأمدي يميل إلى أن يولي المعنى الأفضلية على اللفظ وإن رسالة الغفران للمعري صورة طريفة من النقد الأدبي وهي تلي ببعض السنوات رسالة شباب غريبة للاتدلسي: ابن شهيد (م1035) وإن رسالته: "التوايح والزوايح" هي اذا ما قيّمناها من خلال الفصول (ج) التي احتفظت بها "ذخيرة" ابن بسام (م1147) تحيفة فنية في النقد وفي الفخر معا: يتصور جني (145) لشاعر قد أرتج عليه ثم يقوده إلى الوادي الذي يقيم به توايح كبار الشعراء والكتاب. فيقدم لهم ابن شهيد أشعارا وفصولا نثرية من تأليفه ضابطا بذلك شبه قائمة فائزين ومظهرها

أ - نشر "الوساطة بين المتنبي وخصومه" محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد الهجاري بالقاهرة ط 4 . 1386 / 1966

ب - نقلنا النص العربي من الموازنة ص 12 ط 2 القاهرة 1954 ووضعنا بين قوسين ما لم يترجم الى الفرنسية.
ج - الفصول المشار إليها جمعها وقدم لها بدراسة ضافية ونشرها بعنوان رسالة التوايح والزوايح بطرس البستاني بيروت 1951 وأعادت دار صادر نشرها مراكات ونلاحظ كذلك أن حسين يوسف خريش قد أعاد نشرها ودرسها . مطبعة الكتاني عمان الأردن 1980 .

مقدرته على البروز في جميع الفنون. ويعبر بالمناسبة عن آراء شخصية في البيان ويبسط نظرياته في رسائل أخرى حفظ لنا منها ابن بسام أجزاء. وشغله الشاغل هو تحديد هذا البيان الذي هو في نظره هبة من الله. فالإلهام وحده هو الذي يخلق الشاعر أو الناثر مما يؤدي بالمؤلف إلى أن يشن حملات شعواء على القائلين "بالصنعة" وموقف مثل هذا جدير بأن ينبه اليه تنبيهاً إذ أن ابن شهيد يحيد -بما لا يخلو من شجاعة- عن سنة قد استقرت في عصره أيما استقرار (1). (145)

التاريخ (2)

أظهر العرب في جميع الأزمان شغفا شديداً بالتاريخ باهتمامهم ببطولات أجدادهم وأنسابهم، وإنه من اليسير أن نتخيل أن قصص الحروب بين القبائل وهي التي تكون "أيام العرب" كانت تملأ ساعات الفراغ لدى الرجال حين يجتمعون في مضاربهم وكانت تساعد على الحفاظ على ذكرى أبطال الماضي. وجمع هذه الأخبار حيث كثيراً ما تشرح الأشعار بواسطة حكاية نثرية هو خاصة عمل مؤرخ ولغوي من البصرة، هو أبو عبيدة (م 825) [أ] ونحن مدينون له بقسم

1 - هذا الكاتب الطريف كان موضوع دراسة مفردة في اللغة العربية لـ ش. بلا عمان الأردن 1966 [والملاحظ أن نفس المستشرق نشر كذلك ديوان ابن شهيد (دار المكشوف بيروت لبنان 1963).] وقد ظهرت عن ابن شهيد كتب أخرى نذكر منها خاصة كتاب حازم عهد لله خضر ابن شهيد الأندلسي بغداد 1984 وخاصة كتاب الشاذلي بويحيى ابن شهيد الأدلسي حياته وشعره ونثره رسالة التوايح والزوايح تونس 1993 .

2 - انظر صوفاجي: مدخل إلى تاريخ الشرق الاسلامي باريس 1943 ط 2 من إعداد: كهان باريس 1961 [وقد أصدر ك. كهان طبعة جديدة (باريس 1982) بعنوان مدخل إلى تاريخ العالم الاسلامي في القرون الوسطى (القرن VII - XV) طريقة البحث والمصادر والمراجع] [ومفيدة في هذا الباب قراءة كتاب "علم التاريخ عند المسلمين" تأليف فرائز روزنتال وتعريب صالح أحمد العلي ومراجعة محمد توفيق حسن مكتبة المثنى بغداد 1963.

أ - أبو عبيدة معمر بن المثنى مولى بني تميم من قریش اشتغل بعلوم اللغة والشعر والحديث والقرآن ألف عدة كتب بلغنا منها مثلاً كتاب الخيل حيدر اباد 1358 / 1380 ونقائض جرير والقرزوق رواها عنه ابن حبيب والسكري وطبعها باقان بليدين 1905 - 1912 ويعتبر من الشعرية ويقال أنه كان أغرى الناس بمشاتم الناس.

كبير من المعلومات التي لدينا عن العصر الجاهلي. وإن مؤلفاته في أغلبها قد ضاعت [146] غير أن مقتطفات كثيرة منها قد احتفظ بها المؤرخون اللاحقون.

لكن العامل الأول لنشأة التاريخ، ليس البتة الرغبة في معرفة الماضي البعيد، بل إنما هي الأهمية التي لشخصية الرسول. فإن المسلمين كي يحيطوا بها أوسع إحاطة قد جمعوا أحاديث منها تظهر في القرن VIII سيرة محمد ومغازيه. وإن الحديث هو نقيض الدقة التاريخية بمعنى أننا لا نناقش محتوى الأحاديث غير أنه يشتمل على مبدأ تاريخي لمنهج التابع الذي يدخله سند الرواة. ومن جهة أخرى فإن هذه الطريقة في رواية الحديث قد أصبحت مقدسة وكل طريقة غيرها تبدو انتهاكا للمقدس وإن المحدثين وهم يفرضون أن ترتبط الأحاديث بعضها ببعض بدون انقطاع قد أنشأوا مفهوم لا معكوسية الزمن الذي يقود من الترجمة المفردة إلى تاريخ كامل مقسم إلى طبقات، أضف إلى ذلك أن مقتضيات سياسية قد قوت اهتمام العرب: فعلم الأنساب اعتمد لضبط حق المسلمين في الحصول على عطاء وفي تولي الولايات وكذلك فإن معرفة طرق افتتاح البلدان الأعجمية ضرورة لتحديد نوع الضرائب. غير أن الأمر الأساسي هو أن العرب دخلوا التاريخ وشعروا أنه عليهم أن يعبروا عن أنفسهم تاريخياً لمضاهاة العالم المتحضر. وإن العنصر الديني يتمثل في تبرير رسالة الرسول والقوم الذين بينهم ولد: فإن محمداً أصبح حجر الزاوية في الفكر التاريخي ومن هنا ظهر التصور اليهودي المسيحي لتداول الوحي عبر سلسلة من الأنبياء هم بمثابة علامات في العلاقات بين الله والبشر. واندماج العرب في التاريخ قد اقتضى إذ ذاك عناية متواصلة بكل ما حدث قبلهم فنشأ هذا التاريخ الكوني الذي هو خاصية من خصائص المؤلفات التاريخية العربية.

[147] ومنذ القرن VII إذن فإن التاريخ قد تميز عن الحديث غير أنه التجأ إلى نفس المخبرين واعتمد نفس المناهج وقد تكونت في القرن VIII : ثلاث

مدارس رئيسية مدرسة مدنية تخصصت في الآثار التي هي بها ملأى. فابن اسحاق (م768) كتب سيرة للرسول حورها ابن هشام (م834) (أ) ثم إن الواقدي (م832) في سيرته لمحمد (ب) وفي مؤلفاته الاخرى قد رمى إلى التدقيق الزمني ومثل حقا الخطوات الأولى للتاريخ، ومدرسة عراقية يمثلها أبو مخنف (م774) (ج) وهشام الكلبي (م819) (د) وقد واصل عمل أبيه (م863) اعتمدت مناهج علمية بل فكرت حتى في دراسة بعض النقائش وأخيرا مدرسة شامية لم يبق لنا منها إلا بعض الآثار - خاصة عند البلاذري (م892) - ذلك أن التاريخ الإسلامي هو عباسي أساسا ومناهض للامويين.

وفي حين أن أبا عبيدة قد اهتم بتاريخ ما قبل الإسلام فإن مواطنه المدائني (هـ) (م840) وبعض العراقيين الاخرين قد اهتموا ببدايات العهد الإسلامي وأعدوا مجموعة الأخبار التي سيعتمدها من سيخلفهم.

وجميع الكتب المؤلفة في تلك الفترة لا تزال تتمثل في شكل مجموع حديث "وهذه الطريقة في التقديم تعطي الخبر نكهة غير منتظرة: إنه وهو يعيد في أمانة رواية شفوية، يحتفظ بالاسلوب السهل وبساطة اللهجة وتلقائية الحديث، وإن الخطب والأحاديث تروى أو على الأقل - يزعم لها ذلك -، في عبارتها

أ - طبعت عدة طبعات أفضلها حاليا طبعة القاهرة ط. 2 / 1375 / 1955 بعناية مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي وقد نشر من كتاب ابن اسحاق محمد حميد الله بعنوان سيرة ابن اسحاق الرباط 1976 وكذلك سهيل زكار بعنوان السير والمغازي بيروت. 1978.

ب - كتاب المغازي للواقدي نشره ج.م.ب. جونز لندن. 1966 وقد كان طبع مركات عديدة.

ج - أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي من أغزر المؤرخين إنتاجا نقل عنه الطبري والبلاذري

د - هشام بن محمد الكلبي أو ابن الكلبي من مؤرخي الكوفة من كتبه جمهرة النسب نشره ودرسه كسكال واستر نزيوك ليدن 1966 وكتاب الأصنام وقد طبع مركات أفضلها طبعة محققه مع ترجمة إلى الفرنسية بعناية و. عطاء الله باريس 1969.

هـ - المدائني نسب إليه كتب عديدة وصلنا بعضها مثل كتاب المردفات من قريش نشره عبد السلام هارون القاهرة 1951 (ضمن نراد المخطوطات) وكتاب التمازي ط. ابتسام مرهون الصفار وبدي محمد فهد النجف 1971...

ذاتها في أسلوب مباشر وفي لغة قرون الإسلام الأولى الحية المجازية القوية وإن الكثير من هذه الأخبار وهي تزخر بالجزئيات الموحية وتصاغ أحياناً في قوة، لها في الآن نفسه دفء الحياة وسحر الحكايات: وإن منها ما هو نماذج للأسلوب القصصي " (ج. صوفاجي).

وإنه ليقين أن المؤرخين الأوائل ساهموا في جعل النثر وسيلة تعبير جديدة بالاهتمام وهم قد جمعوا بالاضافة إلى ذلك^[148] مادة أمكن معها للعلماء، وقد تمت الأعمال التمهيدية، أن يشرعوا في دراسة التاريخ الكوني، ولنفهم من ذلك تاريخ الأمم التي هي حسب التصور الإسلامي قد سبقت العرب وبالتالي تاريخ اليهود والنصارى والفرس وقد أصبح تاريخهم معروفاً المعرفة الممكنة بفضل التراجم. وإن كتاب المعارف^[أ] لابن قتيبة (م889) هو بعد نوع من الموسوعة في التاريخ العالمي يعود إلى تاريخ اليهود والفرس مع أخبار عربية قومية وسيرة الرسول. وإن أبا حنيفة الدينوري (م895) يقدم في كتابه "الأخبار الطوال"^[ب] نوعاً من التاريخ العالمي منذ الاسكندر غير أن هذا العمل يخلو من الموضوعية لأن المؤلف يجتهد في الدفاع عن الحزب الشيعي. وذلك هو الشأن ولكن بدرجة أقل، بالنسبة إلى تاريخ البيهقي العالمي (ج) (م نحو 900) وإن معاصره البلاذري (م892) قد خصص كتاباً (د) من الطراز الأعلى إلى الأشراف الذين قدم عنهم أخباراً متقطعة مسندة. وكتابه عن الفتوح (هـ) العربية يظل مصدراً وثائقياً من الدرجة الأولى.

أ - اعتنى به المستشرقون منذ 1850 وطبع مركات وأفضلها تحقيق ثروت عكاشة ط. 2 بدار المعارف بمصر 1969.

ب - حققه عهد المنعم عامر وراجعته جمال الدين الشيال وطبعته ط. 1 سنة 1960 دار أحياء العربية بالقاهرة.

ج - نشره في جزأين المستشرق هوتسمه ليدن 1883^[1] وقد أعادت نشره المكتبة الحيدرية ومطبعتها بالنجف (ط 4 - 1394 - 1974) وقد قدم له وعلق عليه محمد صادق بحر العلوم

د - المقصود كتاب انساب الأشراف وقد اعتنى به خاصة المستشرقون منذ أن نشر جزءاً منه اهلوارادت بليبزيق 1883 وقد نشرت منه الجامعة المبرية بالقدس بعض الأجزاء منذ 1936 وقد أعاد نشره محمود باقر المحمودي بيروت 1974/1394.

هـ - فتوح البلدان نشره منذ 1963 - 1966 دي خويه بليدن وأعيد طبعه مركات كما ترجم إلى عدة لغات والطبعة المتيسرة هي طبعة الآخرين الطباع بيروت 1377 / 1957.

وأنما في هذه الاثناء ظهر الطبري (م923) وهو قبل كل شيء محدث. إنه -وقد ولد نحو 839- بدأ مبكراً الرحلة "في طلب العلم" وأقام ببغداد ومصر والشام ثم استقر نهائياً في العاصمة العباسية. وهناك تفرغ كلياً وفي استقلال تام إلى عمله الأدبي الذي أساسه الحديث غير أنه اهتم كذلك بالمعجمية واللغة بل وبالرياضيات والطب. إنه -وهو يطبق على التاريخ طريقته الدقيقة قد ألف حولياته التي بقي لنا منها مختصر في ثلاثة عشر جزءاً أي عشر الكتاب الأصلي (1) فقط. وهذا الاثر يمثل مجموع المعارف التاريخية التي كانت للعرب غير [149] أن الطبري ليس إلا "جماعة أمينا يذكر مصادره ويجمع الأخبار بعضها إلى بعض ولا يهتم لا بالتوفيق بينها ولا بإدماجها بعضها في بعض لا ولا بتصحيحها: هو غول يلتهم في نهم غير أنه لا يهضم حتى أننا إذا فتحنا بطنه وجدنا كما هي أجساد ضحاياها". (و. مارسى) ومع ذلك فإن المؤلف وهو واع بالزمن وبأولية رسالة محمد، يعتمد أعمال سابقيه وهو ينزع إلى وعظ القاريء حاذفا الجزئيات المناوئة للإسلام، وكتابه يبدأ بتاريخ البطارقة والرسل والملوك في العصور القديمة. ثم ينتقل إلى العهد الساساني ثم إلى الرسول فالأمويين والعباسيين وإن الكتاب، ما أن يصبح الضبط الزمني ممكناً، أي منذ بداية الإسلام، يصبح حوليات وهو يقف عند سنة 915م.

إن بناءه، وهو مرضي لدى المؤرخين المحدثين إذ أنه يسمح بنوع من التحقيق - له بالاضافة إلى ذلك فضل يتمثل في تقديم رواية شهود عيان أي رواية متنوعة، ملونة، حية كانت تسحر القاريء لو لم تكن الإعادات التي اقتضتها نزاهة المؤلف تثقل مجموع الكتاب.

1 - هـ زو تنهارق: تاريخ... الطبري 4 أجزاء باريس 1867 - 1874 هو ترجمة لرواية فارسية مختصرة (العل أفضل طبعة لتاريخ الطبري هي التي أعدها محمد أبر الفضل ابراهيم ونشرتها دار المعارف بمصر في 10 مجلدات من 1960 إلى 1969).

ومن ذلك الحين فإن الشّارة قد انطلقت وإنّ النشاط التاريخي قد اتجه بصورة عامّة اتجاهات رئيسيّة ثلاثة: بعض المؤرخين وهم يعتمدون حوليات الطّبري قد ألفوا تواريخ عالميّة واصلوها إلى عهدهم. واهتمّ آخرون بفترة معيّنة. ثمّ إنّ مجموعة ثالثة قد اهتمّت أساساً بمدينة أو إقليم فجمعوا على التّوالي وإنّ لم يجعلوا من ذلك بحوثاً مفردة بأنّ معنى الكلمة، تراجم الأعيان الذين عاشوا مدّة. وبعد الطّبري، فإنّ أنموذج التاريخ العالميّ هو كتاب الكامل (1) لابن الاثير (1160-1234) وهو يمزج الموادّ التي أخذها عن سابقه [150] دون أن يذكر مصادره. وإنّ أبا منصور الثّعالبيّ ق^{XI} (2) قد عرض تاريخ البشريّة منذ آدم إلى محمّد الغزنوي (969-1030) معتمد بأحسن مما اعتمد الآخرون المصادر الفارسيّة. "وهذا الاثر محاولة عجيبة للتخلّص من الطريقة الزمنيّة المحض التي تتصف بها الحوليات العربيّة ولعرض التاريخ باعتماد علم النفس "ك. بروكلمان).

ومن بين المؤرخين الذين اهتمّوا اهتماماً خاصّاً بفترة تطول أو تقصر، يجدر أن نذكر بعد ابن عبد الحكم (م871) وهو مؤلف تاريخ لفتح افريقيا الشماليّة والاندلس، (3) الصوليّ (م946) وقد حاول أن يدوّن مذكرات شخصيّة عن تاريخ بغداد والاقاليم المجاورة. وهو يتبع الترتيب الزمّني في استطراد. وإنّ الأسلوب بسيط لازخرف فيه وهو يعبر في سرد حيّ عن تفكير تلقائي. والقيمة الانسانيّة

-
- 1 - القسم الخاص بالمغرب والأندلس ترجمه إلى الفرنسية أ. فانيان الجزائر 1901 (لعل أفضل طبعة هي طبعة دار صادر ودار بيروت في 13 جزءاً 11385 / 1965، وج13 خاصّ بالفهارس 1378 / 1967).
 - 2 - ترجمه هـ: زو تنبارق تاريخ ملوك فارس باريس 1900 المقصود غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم وقد أعيد نشره سنة 1963 بطهران
 - 3 - ترجمة أ. فاتو الجزائر 1942 ط 1948 الملاحظ أن ابن عبد الحكم الف فتوح مصر وفتوح افريقية والأندلس وقد نشره ش. ك. توري سنة 1922 بلندن أما ألبار فأتو فقد نشر القسم الخاص بافريقية والأندلس مع ترجمة إلى الفرنسية (ط 2 1947)

لكتابه كفيّلة بأن تجعله في صفّ أحسن الآثار في الأدب العربيّ (1) وإنّ هلالا الصابي (م1056) هو كذلك من كتّاب الدواوين قد ألف، معتمدا وثائق رسمية، تاريخ الأحداث التي حدثت في ما بين 970-1055. (أ)

أمّا في الأندلس فإنّ سليل أميرة غوطيّة، وهو ابن القوطيّة (م977) قد جمع إلى نشاطه لغويّا أعمالا تاريخيّة وألف تاريخا للأندلس منذ الفتح إلى عبد الرحمن III (912-961) (ب) وإنّما في هذا الصنف يجب أن ينزل أثر على درجة من الغرابة وهو ترجمة ذاتيّة ألفها أسامة بن منقذ (1095-1188) وقد عاش حياة مضطربة وأمّكنه وهو يتحدث عن نفسه أن يقدّم صورة حيّة عن المجتمع الإسلامي في عهد الحروب الصليبيّة (2)

(151) وبعد كتب التّراجم الناتجة عن المقتضيات المباشرة للحديث والمرتبة حسب طبقات تاريخيّة - وطبقات ابن سعد (م845) شهيرة - قد ظهرت

1 - أخبار الرازي بالله والمتقي بالله: ترجمة م. كنار الجزائر 1946-1950 (في جزأين¹ وكان ج.ه. دن قد نشر البعض من كتاب الأوراق في جزأين أخبار الشعراء ثم أشعار أولاد الخلفاء مطبعة الصاوي القاهرة 1355/1936.

أ- هذا الكتاب الذي يشتمل على الأحداث التاريخية من 360 / 970 إلى 447 / 1055 لم يصلنا منه إلا قطعة تشتمل على حوادث 389 - 393 / 998 - 1002 نشرها المستشرق آمدروز ببيروت سنة 1904 ملحقة بكتاب الوزراء وقد نشره بالإضافة إلى طبعة آمدروز عبد الستار أحمد فراج بدار أحياء الكتب العربية القاهرة 1958 بعنوان الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء.

ب - ابن القوطيّة كتابه تاريخ افتتاح أو فتح الأندلس اعتنى به العديد من المستشرقين وخاصة ريبيرا إذ حقق هذا الكتاب ونشره مع ترجمة إلى الإسبانية بمدريد 1926 كما ترجم إلى الفرنسية سنة 1856 ثم طبع مع ترجمته إلى الفرنسية سنة 1889 بباريس وأعاد طبعه أنيس الطباع بيروت 1957.

2 - أسامة بن منقذ كتاب الاعتبار أول من نشره ه. ديرنبورق بباريس سنة 1889 بمجلة الشرق اللاتيني ثم أعاد نشره ف. حتى برنستاون سنة 1930 ونشر مركات عديدة أخرى أفضل طبعة هي طبعة مؤسسة دار الأصاله للثقافة والنشر والاعلام بالرياض سنة 1407 / 1987 بتحقيق قاسم السامرائي كما ترجم الكتاب إلى لغات عديدة وقد ترجمه إلى الفرنسية خاصة ديرنبورق سنة 1895 وأعاد ترجمته أ. ميكال بباريس (المطبعة القومية) سنة 1983).

تواريخ المدن حيث تطور المدينة التاريخي يصعب تتبعه لأن تلك المؤلفات هي في الحقيقية مجاميع تراجم وأشهرها هو تاريخ نيسابور للحاكم (م1015) (أ)، واصفهان لأبي نعيم (ب) (م1038) وبغداد للخطيب البغدادي (م1071) (1) ودمشق لابن عساكر (م1176) (2)

وفي الاندلس فإنّ الترجمة للاعلام قد تعاطاه الكثيرون فابن الفرضي (ج) (962-1013) أعدّ تاريخاً لعلماء الاندلس واصله ابن شكوال (1101-1183) (د) وأتمه ابن الأبار (هـ) (1199-1260) وهو في الآن نفسه مؤرخ

أ - الحاكم: محمد بن عبد الله النيسابوري محدث جاب عدة بلدان لدراسة الحديث وجمعه حتى سمي الحافظ الكبير وإمام المحدثين نشر من كتبه: المستدرک على الصحيحين: حيدر آباد 1332 / 1334 والمدخل في أصول الحديث حققه محمد راغب الطباخ ونشر بعلب 1351 / 1932 وقد ترجمه إلى الانجليزية ونشره ج روسن لندن 1953 وكتاب معرفة علوم الحديث نشره معظم حسين بالقاهرة 1937. وله كتاب نيسابور ولا تعرف هل طبع أم لا.

ب - أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الاصفهاني: حجة في مهذبي الفقه والتصوك كتابه حلية الأولياء وطبقات الاصفياء (عشرة أجزاء) طبع من 1351 / 1932 إلى 1357 / 1938

1 - الخطيب البغدادي أهم كتبه تاريخ بغداد وقد نشر بالقاهرة 1349 / 1931 وأعيد طبعه في بيروت سنة 1388 / 1968 [نشر جزء منه سلمون باريس 1904.

2 - ابن عساكر أحد أفراد أسرة شامية اشتهرت بالعلم والقصود هنا هو ثقة الدين علي بن أبي محمد (499 / 1105 - 571 / 1176) وأهم كتبه تاريخ مدينة دمشق وهو معجم تراجم وقد نشر بدران وأحمد عبيد كتاب تهذيب تاريخ دمشق في 7 أجزاء من 1911 إلى 1932 وقد تولى مجمع دمشق منذ سنة 1954 وصلة غير منتظمة العمل على نشر تاريخ مدينة دمشق [ترجم وصف دمشق ن. البسياف دمشق 1954.

ج - ابن الفرضي: كتاب تاريخ علماء الأندلس نشره كوديرا مدريد 1891 وقد أعادت طبعه الدار العربية للتأليف والترجمة سنة 1966

د - ابن باشكوال: كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس نشره كوديرا مدريد 1883.

هـ - ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة لابن باشكوال. نشره كوديرا مدريد 1888 - 1889 وقد نشر الركون والنشيا ملحقا وفهرسا (مدريد 1915) كما نشر قسما منه (من الألف إلى الجيم. بال وابن شنب. الجزائر 1920.

وأديب وشاعر. ومعجم (أ) الحميدى (1020-نحو 1095) هو أيضا قد
واصله (ب) الضبيّ (م 1203) وهذا يكمله تاريخ الموحّدين (1) للمراكشي
(1185-بعد 1224)

ان جميع كتب التراجم التي ذكرناها ليس لها إلا صلة واهية بالأدب المحض.
وليس هذا شأن آثار المؤلف المشرقيّ المسعوديّ (م 956) وهو قد اعتبر التاريخ
إمتاعا وأدخل الأدب في هذا الفنّ. وهو في حقيقة الأمر هاو بعد أن جاب فارس
والهند والقوقاز والشام ومصر إرضاء لرغبته الشديدة في المعرفة قد ألف
مجموعة كبيرة من الكتب هي أضخم من أن يحتفظ بها. وتاريخه العالمي يعدّ
ثلاثين مجلدا جميعها قد ضاعت. وقد نشر منه لحسن الحظّ مختصر ثم موجز
بعنوان "مروج الذهب" (2) إنه في هذا الكتاب الضخم يمزج أولا الجغرافيا
(152) بالتاريخ ويصف بلاد الشرق الأقصى التي زارها ويعدّد، حسب التوراة،
البطارقة والملوك والحكّام من آدم إلى عيسى ويقدم قوائم ملوك أمم أعجميّة
(وهو بذلك أوّل من تحدّث عن ملوك فرنسا) لينتقل بعد ذلك الي تاريخ الرّسول
والخلفاء مقتصرًا بصورة عامّة على ترجمة قصيرة تتبعها مختارات من
الأخبار والحكايات حسب مبدأ الأدب. ثم إنّه في أخريات حياته قد ألف كتاب
"التنبيه والاشراف" (3) حيث لخص وأصلح وكمل كتبه السابقة. إن إنتاج

أ - الحميدى: جلوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر. نشره محمد
بن تاوريت الطنجي القاهرة 1953.

ب - الضبيّ: بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس نشره كرديرا مطريد 1885

1 - المراكشي المعجب في تلخيص أخبار المغرب وقد نشره سنتي 1847 - 1848 دوزي بعنوان تاريخ الموحّدين [ترجمة
فانيان - الجزائر سنة 1893 سبق نشر الترجمة بالمجلة الإفريقية سنتي 1891 و 1892 وقد حققه ونشره بالقاهرة سنة
1947 محمد سعيد المريان.

2 - مروج الذهب ومعادن الجوهر نشره ونقله إلى الفرنسية برببي دي منيار وباقي دي كورداي باريس 1861 - 1877 وقد
أعاد نشره وترجمه شارل بلا (النص العربي في 7 أجزاء الجزآن الأخيران فهارس تكوّن موسوعة) بيروت من 1966 إلى 1979.

3 - ترجمة كراي فر باريس 1897 وقد كان دي خوية نشره بليدن سنة 1894 ثم نشره بالقاهرة عهد الله اسماعيل الصّاوي سنة
1357 - 1938 وأعاد نشره بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد وهي الطبعة المتداولة الآن.

المسعودي متنوع جداً. وقد كتب في لغة جميلة غير أنه خلو من الروح النقدية لأن المؤلف يقبل دون نقد الأساطير والخرافات التي تحصل له ويبدو غير مكترث بالدقة التاريخية غير أن ما يبقى من ذلك الإنتاج العظيم هو علامة المعرفة الموسوعية التي كان المسعودي قد تحصل عليها خلال رحلاته.

ولون آخر من التاريخ هو ذلك الذي جاء به أوطوره أبو الفرج الإصفيهاني (897-967) في كتابه "الأغاني" (أ) تاريخ الأشعار التي لحنت. إن المؤلف، وقد كان يحيا حياة أديب جوال ويتمتع برعاية الأمراء البويهيين وسيف الدولة، قد استطاع أن يجمع مجموعة هامة من الحكايات عن الشعراء والمغنين وكبار شخصيات المجتمع العربي مفضلاً بصورة واضحة الجزئية الطريفة بل الفضيحة. إن هذا الكتاب، وقد جعل للإمتاع وهو بصفته هذه ينتسب إلى الأدب، هو مصدر نفيس لدراسة الأدب والمجتمع خلال قرون الإسلام الأولى.

أ - كتاب الأغاني: هو أشهر من أن نذكر به وقد تعددت طبعاته وكانت أولها ببلاط سنة 1285 / 1868 - 1869 في 20 جزءاً أضاف إليها المستشرق برونو جزماً نشره بليدن سنة 1888 وقد أعد المستشرق لويدي جزماً للفهارس نشره بليدن بين سنتي 1895 و 1900 وأعيد الكل في طبعة ثانية صدرت بالقاهرة سنة 1323 / 1905 - 1906 ورغم تعدد الطباعات بالقاهرة وبيروت تظل هذه الطبعة أساسية رغم قديمة طبعة دار الكتب المصرية.

(153) الجغرافيا⁽¹⁾

في حين أن التاريخ نبتة نجمت تلقائيا في التربة العربية ولم تأخذ عن الأجنبي غير بعض المواد، فإن الجغرافيا قد استمدت أصلها من الخارج.

يقين أن المعجميين العرب في العصر الكلاسيكي قد أجبروا على الاهتمام بالجغرافيا لشرح القصائد القديمة التي تقدم حصيلة ضخمة من أسماء الأماكن، وإن ذلك الاهتمام - بدون أية نية في استعمال تلك الشواهد لدراسة اللغة - قد تجسم في مجموعة متأخرة من المهاجم الجغرافية لن نعود إليها رغم فائدتها الدائمة: إنها آثار البكري (م 1094) (أ) والزمخشري (ب) (1075-1144) وأخيرا ياقوت (1179-1229) (2) (ج). وقد اتبعه القزويني (د) (1203-1283)

1- انظر: ر. بلاشير: منتخبات من الجغرافيين في القرون الوسطى باريس بيروت 1932؛ ل ط 2 / 1376 / 1957 بمطبعة كلينكسيك باريس أ.س. مرمجي نصوص جغرافية عربية عن فلسطين باريس 1951. أ. ميكال: جغرافيا العالم الاسلامي البشرية الى منتصف القرن XI. باريس لاهاي 1967. وللمستشرق كراتشوفكي كتاب هام عنه صلاح الدين عثمان هاشم بعنوان تاريخ الأدب الجغرافي العربي ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة 1963 وأعادت طبعه دار الغرب الاسلامي بيروت 1987.

أ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع نشره وستيفلد باريس سنة 1876 في جزأين وأعادت نشره لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة من 1365 / 1945 / إلى 1371 / 1951 في أربعة أجزاء.

ب - كتاب الأمكنة والمياه والجيال تحقيق ابراهيم السامرائي بغداد 1968

2- ترجمة جزئية لهرابي دي مينار: معجم فارس الجغرافي والتاريخي والأدبي باريس 1861.

ج - ياقوت معجم البلدان نشره وستيفلد بليزير بين سنة 1866 و 1873 ثم نشر عدة مرات بالبلاد العربية خاصة بالقاهرة وبيروت ومنه مختصر بعنوان مرصد الإطلاع نشره جوينبول بليدن بين سنتي 1850 - 1864) وقد طبع عدة طبعات أخرى ببيروت غير ذات قيمة حتى طبع في ستة أجزاء السادس للنفارس وهو من إعداد فريد عبد العزيز الجندي دار الكتاب العلمي بيروت 1992.

د - القزويني عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات نشره وستيفلد بقوتينق سنة 1842 ونشر كذلك بهامش حياة الحيوان للدميري بالقاهرة سنة 1319 / 1901 - 1902.

وله كتاب آخر بعنوان: آثار البلاد وأخبار العباد وهو أدخل في ميدان الجغرافيا وقد نشره كذلك وستيفلد 1848. وقد أعيد طبعه كما هو ببيروت سنتي 1960 - 1961 كما كانت طبعة وستيفلد الأساس لطبعات أخرى جزئية.

وإننا لن نتبسّط كذلك في الآراء حول الكون والجغرافيا التي احتلت منذ عهد مبكر، وقد نمّتها بعض الآيات من القرآن، مكانة ما ضمن إهتمامات العرب المتطلّعين إلى معرفة حركة العالم وتوزيع الشعوب على سطح الأرض وهنا أيضا فإنّ المفاهيم الأولى سرعان ما أثرتها مفاهيم جديدة جاءت من فارس ومصر ويونان. وانه فعلا لمن الشّرق جاءتنا معطيات أساسيّة عديدة مثل قسمة العالم إلى سبعة أقاليم حسب كستورات أوستا السبعة (أ)، غير أنّ ترجمة مارين الصوري (ب) وبطليموس (ج) قد قدمت مفاهيم رياضيّة ظلّت طويلا أساس (154) الجغرافيا العلميّة التي أبرز ممثليها هم مشهورون منذ القرون الوسطى: وهم الخوارزمي (د) (م بين 835-847) والبثّاني (هـ) (م 929)

أ - عنوان مجموعة نصوص مقدسة من الدّهانة المجوسيّة (ديانة إيران قديما) أُلّف أصلها إبّان غزو الاسكندرية الأكبر ثمّ أعيد بالاعتماد على الرواية الشفوية في عهد الساسانيين (القرنين الثالث والرابع) في 21 كتابا وجمع منها سنة 1758 انكتيل دو برّون بعضها وأقدمها ينسب إلى زردشت وبعضها في لغة عاميّة أحدث عهدا. وقد ترجم اللغوي الفرنسي ج ل برنوف (1775 - 1844) قسما من هذه المجموعة (باريس 1829 - 1833) من اللغة الزندية إلى الفرنسية.

ب- مارين الصوري أو مارينوس: رياضي وجغرافي من القرن الأول الميلادي وصلتنا آثاره من خلال آثار بطليموس ج - بطليموس: عالم في علم الفلك والرياضيات والجغرافيا عاش في القرن II م ألف كتبها هامة أشهرها المجسطي جمع فيه معارف القدماء الفلكيّة وكتاب الجغرافيا وقد ظلت كتبه تعتمد إلى نهاية القرون الوسطى وعهد النهضة بأوروبا مع العلم أن المسلمين زمن النهضة العباسية وحركة الترجمة قد عرّفوا بعض آثاره وتأثر الجغرافيون وغيرهم بأرائه

د - الخوارزمي: من علماء الحضارة العربية الاسلامية في الرياضيات والفلك والجغرافيا أفاد منه الغرب المسيحي في القرون الوسطى فائدة عظيمة تنسب إليه كتب عديدة في الحساب مثل المختصر في حساب الجبر والمقابلة وكتاب الحساب الهندي أو الجمع والتفريق وكذلك كتاب زيج السند هند. وأقرب كتبه إلى الجغرافيا كتاب صورة الأرض نشره بليبيرق سنة 1926 المستشرق هـ. فون ميزك والملاحظ أن كتبه ضاعت أصولها العربية ووصلتنا كما ترجمت إلى اللاتينية.

هـ- البثّاني من أكبر علماء الفلك في الحضارة العربية الاسلامية تنسب إليه مؤلفات عديدة مثل كتاب معرفة مطالع البروج في ما بين أرباع الفلك ورسالة في تحقيق أقدار الاتصالات وشرح المقالات الأربع لبطليموس وخاصة وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا كتاب الزيج وقد اهتم به كارلو نالينو تحقيقا وترجمه إلى اللاتينية ونشره من 1899 إلى 1907 في ثلاثة أجزاء.

والبيروني (أ) (م 1048)

إنَّ الجغرافيا الوصفية قد نشأت بتأثير عوامل عديدة تضافرت في الآن نفسه ويقطع النظر عن المعطيات العلمية التي تطرقت إلى الأوساط العلمية وأثارت نوعاً من حبّ الإطلاع فإنَّ تنظيم الإدارة بالأقاليم وخاصة مصلحة البريد قد أجبرت كتاب الدواوين على تحصيل معلومات دقيقة عن المسالك والمراحل ومحصول الضرائب. ومن جهة أخرى فإنَّ توسيع العلاقات التجارية إلى البلدان البعيدة والقصص التي يعود بها منها الرحالة والبحارة قد بعثت في العرب الرغبة في أن يعرفوا مناطق العالم التي يجهلون بها ويعرفوا بها.

وكتب الجغرافيا الأولى هي إذن كتب لفائدة الكتاب وإنَّ كتاب ابن خرداذبه (ب) (م نحو 885) يقدم مبادئ في الجغرافيا الفلكية مقتبسة عن بطليموس ثم معلومات عن منطقة بغداد وسائر الأقاليم مع ذكر المسالك في العالم الإسلامي بل وفي أقاليم أعجمية. وإنَّ قسماً من الكتاب مخصص للوثائق الإحصائية ولمذكرات تاريخية وأسطورية واللغة فيه هي طبعاً باهتة جافة.

وفي نفس المجموعة تندرج «الأعلاق النفيسة» (1) لابن رسته (بداية القرن X) وقد سحرته مناطق العالم العجيبة جنوب بلاد العرب، مصر،

أ - البيروني: مؤلف عربي من أصل فارسي ساهم في إثراء علوم متنوعة مثل الرياضيات وعلم الفلك والفلسفة والتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع وكان شاعراً وأديباً اشتهر بمؤلفاته الآثار الباقية عن القرون الخالية نشره صاشو ليبزيق 1879 وتاريخ الهند نشره بليدن ونقله إلى الانجليزية صاشو سنة 1910 والقانون المسمودي في الحياة والنجوم (طبع حيدر أباد بالهند سنتي 1954 / 1956 وكذلك الجماهر في معرفة الجواهر نشره كرتكو بحيدر أباد 1936 وطبع طبعات أخرى عديدة وقد نشر برالو بحثاً في مجلة المعهد الدومينيكي الدراسات الشرقية سنة 1956 أحصى فيه مؤلفات البيروني وما كتب عنه من دراسات.

ب - ابن خرداذبه: كتاب المسالك والممالك نشره دي خويه بليدن سنة 1889

1- ابن رسته: كتابه: الأعلاق النفيسة نشره دي خويه بليدن سنة 1892 وترجمه إلى الفرنسية ق فيات ونشره بالقاهرة سنة 1955.

القسطنطينية، الهند، بلاد المايجار والصقالية، و"كتاب صناعة الكتابة" لقدامة (م نحو 948) أكثر إحكاما وأوسع وذو نزعة أدبية أوضح (أ).

وهذه الكتب تقدم نفس النوع من المعلومات وإن مؤلفيها هم جميعا أعاجم ينتمون إلى الإدارة ويعتمدون على وثائق مجمعة (155) في دواوين العاصمة، وإنما إلى كتاب يعود مرة أخرى الفضل في إنشاء هذا النوع الأدبي الجديد وهو لا يزال خاضعا في شيء من الإفراط إلى مقتضيات عملية.

غير أنه منذ القرن IX لما كان الأدب في أوج الازدهار، فإن أدباء لم يكونوا البتة قد هبثوا إلى إنتاج عمل علمي استولوا على المعارف الجغرافية المتوفرة ليجعلوها في متناول المثقفين وألفوا كتباً ليقدّموها إلى ذوي الواجهة حسب عبارة بلاشير. وإن هذه الآثار وهي تتجه إلى جمهور أوسع وأشدّ عروبة على الخصوص وبالتالي أشدّ تشرّطا في ما يخص الشكل قد نهجت نهجا أدبيا وخرجت عن السنّة الديوانية بل ناهضتها أحيانا.

إن من أوائلها كتاب الأمصار وعجائب البلدان للجاحظ (م 868) وقد ضاع غير أنني قد جمعت منه شخصا بعض البقايا المتفرقة (ب) وإذا اعتبرنا هذه القطع فإن الجغرافيا العلمية أو العملية ليست لها أية منزلة وجميع جهود المؤلف ترمي إلى أن يقدم في صورة ممتعة مميزات مختلف البلاد وخصائصها في الميدان البشري والطبيعي إنه يمكن أن نجعل من هذا الكاتب الغزير أحد

أ- قدامة كتاب صناعة الكتابة في الأصل في ثمانية أقسام وصلتنا منها الأربعة الأخيرة وتظهر عناية قدامة بالجغرافيا في الفصل الحادي عشر من القسم الخامس، وهو خاص بالبريد وفي فصول القسم السادس السبعة وفيها معلومات جغرافية عامة وهذه الفصول هي التي جمعت بعنوان كتاب الخراج وقد نشره دي خويه بليدن سنة 1889) كما نشر القسم السابع بليدن سنة 1965 والقسم الخامس بطهران سنة 1974 -

ب - نشره شارل بلا في مجلة المشرق (مارس أبريل 1966) ونشره كذلك صالح العليّ بمجلة الآداب ببغداد سنة 1970 وكذلك عهد السلام هارون في رسائل الجاحظ الجزء الرابع وانظر بلا احصاء مؤلفات الجاحظ بمجلة دراسات عربية المجلد XXXI

رواد الجغرافيا البشرية. وكذلك هو كتاب أدب ألف للتعليم بالإمتاع، كتاب البلدان، لأديب فارسي، هو ابن الفقيه الهمذاني (أ) (ألف نحو 903) وليس لنا منه إلا مختصر (1) وهو مختار جمع فيه المؤلف لكل طُلعةٍ وغير ذي اختصاص مجموعة من المعارف من كل جنس تتصل بالجغرافيا، مجموعة عظيمة من الأخبار والقصص والأساطير والنوادر.. لم يكن من المسموح به لأديب ان يجهلها» (ر. بلاشير).

والى الوثائق الرسمية التي جمعتها مصالح الادارة المركزية قد انضافت إلى نهاية القرن IX قصص لا يمكن التثبت من صحتها عن رحلات إلى بلاد بعيدة وأدمجت في الكتب المختصرة. وقصص الرحلات من هذا النوع سرعان ما بدأت تكون نوعا مستقلا جديرا وذلك على الاقل إلى حد ما بأن يوثق به وهكذا فإنه في سنة 851 قد ألقت قصة رحلة إلى الهند والصين (2) وفي النصف الأول من القرن الموالي فإن ابن فضلان (3) قد أرسل في سفارة إلى ملك بلغاريي الفلقا ونشر بعد عودته قصة تحتوي كل ما كنا نملكه لمدة طويلة من المعلومات عن هذه البلاد. وإن مسعرا قد بدأ سنة 942 رحلات بآسيا ودون مشاهداته في رسالة (ب) وفي سنة 975 فإن الأسواني (ج) قد قص تنقلاته

أ- ابن الفقيه الهمذاني نشره ذي خويه بليدين سنة 1885

1- وصف المغرب وأوربا استخرجه الحاج الصادق من مؤلفات ابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسته: وترجمه الجزائر 1949

2- ترجمه صوفاجي: قصة الرحلة الى الهند والصين باريس 1948.

3 - ترجمه م. كتار بحوليات معهد الدراسات الشرقية XVI الجزائر 1958. ¹ طبعت رسالة ابن فضلان طبعات عديدة أفضلها بعناية سامي الدهان (منشورات مجمع اللغة العربية بدمشق 1959 ط1 ثم ط2 1991) وهي بعنوان رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309 / 921

ب - مسعر أبودلف تنسب إليه رسالتان وقد اعتنى المستشرقون بهاتين الرسالتين جمعت الأولى باعتماد الفوزيني ثم ياقوت والفضل يرجع خاصة إلى وستنفيلد (سنة 1842) ونشر الثانية المستشرق مينورسكي في مجلة أوربانس 1952 كما أعد عن أبي دلف ورحلته بفارس كتابا نشره بالقاهرة سنة 1952

ج - الأسواني: هو ابن سليم الأسواني له كتاب أخبار النوبة الأغلب أنه ضاع لكن احتفظ المقرئ بمقتطفات منه.

في أعلى النّيل وإنّ بحّارا من نهاية القرن X ، وهو بزرق بن شهریار قدّم في كتاب عجائب الهند (1) مشاهدات شخصيّة محلّاة بمجموعة من القصص العجيبة.

ومؤلفو هذه الكتب ليسوا علماء إنّما هم مجرد رحّالة لكن في نفس الفترة عرفت الجغرافية الوصفية تغييرا هاما: ففي عهد المأمون كانت قد أعدت شبه خريطة للعالم مكّنت في القرن الموالي البلخي (م934) من إعداد أطلس مصحوب بنصّ قصير، ومنذ ذلك الحين فإنّ جغرافة مدرسته، وهم يعتمدون معطيات علميّة والأطالس التي كانت في متناولهم، بدأوا جغرافيا وصفية جديدة أكثر أدبيّة حتى إنّ النصّ المصاحب للخرائط كان أطول وأكثر تفصيلا وإنّما في هذا الميدان ستؤلف الآثار الأكثر تمثيلا للأدب الجغرافي عند العرب ذلك أنّ المؤلفين في أغلب الأحيان كتّاب بالمعنى الأتمّ للكلمة وفي الآن نفسه علماء ورحّالة.

(157) ولعلّ اليعقوبيّ (م900)، وإن لم يكن ينتسب إلى هذه المدرسة أوّل من قدّم وصفا منظّما للأمبراطوريّة التي جابها في معظمها. وعمله في ماعدا ذلك يتركّز على معلومات استمدّها من سؤال الرّحّالين ، وهذا الكتاب (2) يندرج كذلك في صنف الكتب المختصرة وفيه إحصائيات وذكر المسالك غير أنّه يتميّز بانعدام الخرافات وبالأوصاف الدقيقة. وإنّ وصف البصرة وشرقيّ بلاد العرب والصّين والهند والامبراطوريّة البيزنطيّة قد ضاع وهي خسارة يؤسف لها.

1 - ترجمه دفيك: باريس 1878، 1883-1886 (وقد أعاد فيها النظر صوفاجي في ذكرى صوفاجي دمشق 1954).¹ وقد نشر كتاب عجائب الهند المستشرق فان دار ليث سنة 1883 [

2- ترجمة ق فيات: البلدان القاهرة 1937. ¹ وقد نشره دي خويه بليدن 1892]

وفي المدرسة الخاصة بالبلخي، وقد نشأت بفارس فإن كتاب أحد وزراء السامانيين وهو الجيهاني (أ) (النصف الأول من القرن X) لا يزال يولي مكانة كبرى لمسائل فلكية، وكتاب الاصطخري (ب) (منتصف القرن X) قد أعاد النظر فيه وصحّحه، بطلب من المؤلف، ابن حوقل (م بعد 977) وقد نشر بعد ذلك، بعنوان "صورة الارض" (1) صورة جديدة مزيدة من كتاب سلفه.

وكتاب المقدسي (م بعد 1000) المعنون: "أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم" (2) ينتمي هو الآخر إلى مدرسة البلخي ويقترب من كتابي الاصطخري وابن حوقل غير أنه يتميز عنهما بغزارة المادة الجغرافية المعتمدة وهدفه، شأنه في ذلك شأن سابقه يقتصر على وصف العالم الإسلامي وقد قسمه صاحبه إلى أربعة عشر إقليمًا وهو يتبع بالنسبة إلى كل منها تخطيطًا جاهزًا: ذكر الاقاليم والأمصار المشهورة ووصف المدن التي زارها وان التفاصيل التي هي جغرافية محض مشفوعة بلمحة عن حالة الإقليم مع ذكر المذهب الفقهي السائد والخصائص في الصناعة والتجارة والموازين والمكايل [158] والنقود والضرائب ولغة الاستعمال والطباع الخاصة بالسكان والحالة

أ - الجيهاني: كتابه وهو يشبه كتاب الخراج لقدامة بن جعفر ضاع لكن قد يكون الادريسي اعتمده في وصف آسيا
ب- الاصطخري: كتابه المسالك والممالك اعتمد فيه كتاب البلخي وقد نشر جزءا منه ج. هـ. مولار بقوتا سنة 1839 ونقله إلى الألمانية ا. د. موردتسان (هانبورق 1845) ثم نشر دي خويه بليدن سنة 1870 وفي طبعة ثانية سنة 1927 كما نشره محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غريال سنة 1381 / 1961 بالقاهرة.
1- ترجمة ج. هـ. كرامر وق فيات بيروت 1964.

ابن حوقل كتابه: المسالك والممالك اعتمد فيه كتاب الاصطخري - وهو بنفس العنوان بطلب من مؤلفه ولكنه أثراه بمعلومات شخصية. نشره ذي خويه سنة 1873 بليدن وأعاد نشره في نشره أفضل كلامرس سنة 1938 وترجمه إلى الفرنسية وقد أعاد النظر في هذه الترجمة فيات ونقحها ونشرها بباريس وبيروت سنة 1964.
2- وصف المغرب الاسلامي ترجمه ونشره ش بلا الجزائر 1950 وترجم القسم الخاص بالشام وفلسطين ونشره أ. ميكال دمشق 1963. ¹ وقد نشره كاملا دي خويه ليدن 1906]]

السياسية وأخيرا المسالك والمراحل بين أهم المدن. وقد كان همه دوما أن يقدم عملا طريفا وأن لا يأخذ شيئا عن أسلافه على أنه يقسو عليهم في غير حق وأن يمجّد الخالق وأخيرا أن يحترم الطابع المحلي مستعملا في وصف كل إقليم اللغة الخاصة بسكانه. وهذا الكتاب، وهو يقترب من أدلتنا السياحية الحديثة حين يقدم المؤلف معلومات جغرافية جافة، يتسم غالبا بصيغة العمل العلمي الحق وفي نفس الوقت بصيغة الأثر الأدبي حيث تنم بعض الفقرات عن نزعة عصره إلى استعمال نشر مزخرف بل مسجع.

إن ابن حوقل والمقدسي يمثلان أوج الجغرافيا العربية وبعدهما فإن المادة تبدو كافية وإن الجغرافة يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بأن لا يرتحلوا فحسب لإثراء معارفهم وهكذا فإن الاندلسي البكري (م 1094)، وقد سبق أن ذكرنا معجمه الجغرافي مدين شهرته لكتابه "المسالك والممالك" (1) وهو نقل من الكتب السابقة أضيفت إليه - لحسن الحظ - معلومات شخصية عن الغرب الإسلامي وهو في الجملة غير معروف معرفة كافية من قبل سابقيه وإن اندلسيا آخر، وهو الإدريسي، (1100-1166) قد زار الشرق وأفريقيا الشمالية وحاذا فرنسا. وهو وقد استقدمه ملك صقلية روجار الثاني (أ) قد أعان على رسم خريطة مسطحة من فضة للكرة الأرضية وضّحها بكتاب في الجغرافيا الوصفية عرف بعنوان "كتاب روجار" وحرّر (2) بعد ذلك مرة ثانية موسعا . إنه خلافا لعادة سابقيه [159] يبدأ بالمغرب الذي يعرفه المعرفة الفضلى ويصف

-
- 1- ترجمه جزئية بقلم دوسلان: وصف افريقيا الشمالية [السودان] باريس 1859 ط. 2. 1913 وط. 3. 1965 [وقد نشر بروفنصال فصولا تتعلق بالاندلس وكذلك فعل أحمد الرازي (مجلة الأندلس 1953) ونشره كاملا في جزئين أدريان فان اليوفن وأندري فيري ونشرته بتونس دار العربية للكتاب وبيت الحكمة.
 - أ - روجار الثاني (نحو 1095 - 1154) أول ملوك صقلية (حكم من 1130 - 1154).
 - 2- ترجمة سيثا (الى الفرنسية) بقلم أ. جويرت باريس 1836-1840 في جزآن والقسم المتعلق بافريقيا واسبانيا ترجمه ونشره ر. دوزي ودي خويه ليدن 1864-1866 ووصف جامع قرطبة ترجمه ونشره أ. داسو لامار الجزائر 1949. [عنوان الكتاب هو نزهة المشتاق في اختراق الأقطان]

الجهات الأخرى معتمدا مؤلفات سابقة يتممها بملاحظاته الخاصة وبالنسبة إلى أوربا بسؤال نرمندي صقلية، والطريقة هي نفس طريقة المقدسي غير أن الأسلوب ليس له نفس الطابع.

وإزاء جميع الجغرافة الآخرين يتنزل البيروني (973-1048) وهو شخصية طريفة عرف منذ عهد مبكر بأوربا (أليبرون) إنه، وهو من أصل إيراني، قد رحل إلى الهند وتعرف على خصائص الثقافة الهندية. وهو من ذلك التكوين قد جنى كتابه "تاريخ الهند" وهو يضم معلومات عن التاريخ والجغرافيا والتقاليد والأدب والعلوم. وقد ألف كذلك كتابا في الفلك ورسالة عن الأحجار الكريمة. وإن ما يميّزه، بقطع النظر عن قيمة أثره الوثائقية، أنه لا يتخلص من اهتمامات المتفنتين أسلوبا وأن بعض صفحاته هي نماذج رائعة من الأدب العربي.

وبعد هؤلاء الجغرافة وهم في الآن نفسه كتاب، فإن الأدب الجغرافي، مثل جميع النشاطات الفكرية، دخل في فترة سبات غير أن مقتضيات الدين الإسلامي قد أحييت فنا أدبيا أكثر من كونه علميا، فن الرحلة وهي ستمكن بعض كتاب العصور اللاحقة من الإشعاع فترة ما.

علم الكلام والفلسفة (1)

يمكن بدون شكّ وقد أطلنا الحديث نوعاً ما عن التاريخ والجغرافيا أن يلومنا بعضهم لو أقصينا من هذا البحث عن الأدب العربيّ كل ما انتج الفقهاء والفلاسفة المعروفون بأوربا (160) منذ القرون الوسطى وعلى كل فلتنّ خلف لنا المفكرون العرب كتباً هي أقرب إلى الفن منها إلى الأدب فإنّ لبعضهم على الأقل في الميدان الأدبي أهمية تبرّر أن نشير إليهم ولو إشارة عابرة.

فالفلسفة، وللعرب عنها لفظة أصيلة، الحكمة، إلا أنّهم يفضلون أن يطلقوا عليها لفظة أقلّ شبهة أي الفلسفة، قد عارضت في القرون الأولى علم الكلام وهو فنّ التفكير للدفاع عن العقيدة وفعلاً فإنّ الفلسفة العربية ليست البتّة إسلاميّة وإنّ صفة الفيلسوف تطلق في الدرجة الأولى على أناس يعبرون في اللغة العربية عن آراء كانت نوقشت في مختلف المدارس السّابقة وهذا هو شأن الكندي (م بعد 870) (أ) وهو منجم وكيميائي وفيلسوف طبيعيّ والرازي (864-925) (ب) وهو طبيب وكيميائي وناقد معارض للدّيانة القائمة والفارابي (م 950) (ج) وهو مفسّر أرسطو وفيلسوف على مذهب الإفلاطونية المحدثه

1- انظر ل. فاردي وم. م. قنواقي: مدخل الى علم الكلام الاسلامي، باريس 1948، عرّفه صبحي الصالح وفريد جبر بعنوان فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية ونشرته دار العلم للملايين بيروت 1967. ج قدري: الفلسفة العربية في أوربا في القرون الوسطى نقله هودي، باريس 1947، هـ. كريان: تاريخ الفلسفة الاسلامية، باريس 1964.

أ: الكندي : نشر بعض ما وصلنا من مؤلفاته محمد عبد الهادي أبو ريده: رسائل الكندي في جزئين القاهرة 1950 و1953 ويعتبر الكندي أول من حاول التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام. أنظر مؤلفات الكندي تأليف ريتشارد يوسف مكارتي مطبعة العالي بغداد 1961 .

ب - أبو بكر الرازي: كان أساساً طبيباً ثمّ نبغ في الفلسفة واهتم بتحديد ظروف السعادة مبرزاً أن الأديان غير قادرة على تحقيقها ومفضلاً حكماء اليونان وخاصة سقراط وأفلاطون.

ج - الفارابي: من مؤلفاته التنبيه على سبيل السعادة والجمع بين رأيي الحكيم الإلهي إفلاطون وأرسطاطاليس وكتاب الحروف وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ومن آخر ما كتب عنه كتاب جاك لنقاد بعنوان من القرآن إلى الفلسفة: اللغة العربية وتكوّن لغة الفارابي الفلسفية المعهد الفرنسي دمشق 1994 وهو في الأصل كتورا دولة من الصربون.

وإخوان الصفا(أ) وقد ألفوا في القرن العاشر موسوعة فيها تبلورت اتجاهات الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية وابن سينا (980-1037) (ب) وهو خليفة الفارابي. وأصحاب الافلاطونية الحديثة الأندلسيين وإمامهم في ذلك ابن مسرة (م931) (ج). والفلكي الرياضي الطبيب الموسيقي وشارح أرسطو ابن باجة (م1138) (د) والقاضي الطبيب والفيلسوف ابن رشد (1126-1198) (هـ) وقد حاول أن يوفق بين الشريعة والفلسفة (1) وعارض الغزالي معارضة عنيفة ومهما كانت قيمة هذا الفكر الفلسفي في نظر الفلاسفة فإنه ليس عربيا إلا لأن أصحابه قد عبروا عنه بالعربية في نشر هو عامة أشد فنية من أن يدخل في نطاق الأدب الخالص غير أنه يحسن أن نذكر بصورة أخص (161) ابن طفيل (م 1186) وهو طبيب وفيلسوف أندلسي آخر مؤلف «أحد الكتب الأشد غرابة في القرون الوسطى» (كارادوفو) أي القصة الفلسفية قصة حي بن يقظان (حي: انسان، ابن يقظان الله) (2) وفيها عرض الفلسفة الكلامية على مذهب الإفلاطونية الحديثة

أ - طبعت رسائلهم طبعت مختلفة والطبعة المتداولة اليوم هي طبعة بيروت 1957 وقد خصهم مارك بارجي بأطروحة دكتورا دولة صدرت عن جامعة ليل بفرنسا سنة 1972.

ب - ابن سينا انظر مؤلفات ابن سينا تأليف جورج شحاتة قنرات دار المعارف بالقاهرة 1950 ويحيى مهدي مؤلفات ابن سينا طهران 1954.

ج - ابن مسرة ألف كتاب التبصرة وكتاب الحروف ولكن لم يصلنا شيء من كتبه وقد تحدث عنه صاعد الأندلسي في طبقات الأمم والقفتي في تاريخ الحكماء

د - ابن باجة ألف كتباً عديدة انظر عنها جمال الدين العلوي المتني الرشدي دار تيقال بالمغرب 1986 ومن أشهر كتبه تدهير المتوحد نشره آسين بالاثيوس غرناطة 1946 كتبت عنه دراسات عديدة منها مقال المنجي الشملي: أبو بكر ابن باجة ونزعته الفلسفية من خلال تدهير المتوحد حوليات الجامعة التونسية 1964.

هـ - ابن رشد من أهم مؤلفاته تهافت التهافت ردًا عن تهافت الفلاسفة للغزالي وكتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة.

1- فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال. ترجمه ل. قوتيي. الجزائر 1942 - ط. 2، 1948

2- ل. قوتيي حي بن يقظان رواية فلسفية لابن طفيل الجزائر 1900 ط 2 بيروت 1936.

«بصورة تدريجية وبمقدرة عالية معتمداً تخيل رجل من طبيعة سامية له مؤهلات فائقة للنظر العقلي سيجد نفسه منذ صباه المبكر قد ألقي به في جزيرة خالية وسيكتشف هناك بقوة عقله فحسب الفلسفة ويبني لنفسه من جديد كامل نظام المذهب الافلاطوني الحديث الإسلامي» (كرادي فو)

ولللخلافات السياسية التي هزت الإسلام تقريباً منذ نشأته أساس ديني وفيها بالتالي بذور العناصر الأساسية لتطور التفكير الديني منذ عهد الامويين كان أنصار مذهب الاختيار قد وجدوا في مذهبهم وسيلة لمقاومة الحكومة وقد فرضت نفوذها لتبرر استلابها بالحكم على أنه مظهر من مظاهر الحتمية وفي نفس الفترة فإن مخالطة المزدكيين والمانويين واليهود والمسحيين بما يسلطونه على الإسلام من تهديد قد دفعت أشد المسلمين يقظة إلى دراسة مذاهبهم ليستطيعوا ردّها بصورة أحسن وقد ساعدهم في ذلك المنطق والجدل إذ قدّموا لهم أسلحة للمقاومة مقاومة أجدى. ومن جهة أخرى فقد أدرك أصحاب المذاهب الأوكون أن السنة الإسلامية البحت بفروعها في التفسير والفقه يخشى عليها الوقوع في رتابة عقيمة وأن لا تظلّ قادرة على مقاومة هجومات أهل البدع أو المسلمين الذين لم يؤمنوا إلا بمقدار وعليه فقد حاولوا أن ينشئوا مذهباً هو، وهو يحترم عقائد الإسلام الأساسية (162) بل يدافع عن الدين الذي دعا اليه محمد، يوفق بين العقل والايمان ويوفر للعقائد أساساً أمتن ودرجة أعلى ويعرض أخيراً نظرة للعالم هي في الآن نفسه عقلية وإسلامية بحت. ويكمن خطر هذا العمل في صعوبة التوقف عند حدود السنة ولهذا فإن بعض الفقهاء، وقد أغرتهم إلى حد الافراط المذاهب الأجنبية وعجزوا عن الصمود لزوجة الأفكار التي تهزهم، قد اقتربوا من البدع بل قد اندفعوا فيها بصورة واضحة فكان لا بدّ في الميدان غير الديني من كامل براعة رجل مثل ابن قتيبة لتحقيق مزيج تحتفظ فيه العناصر العربية رغم ذلك

بالسيادة وكذلك على الصعيد الديني فإن إفراط بعض المنظرين المتسرّعين قد أثار ردّ فعل سنّياً ضدّ مذهب انتقائيّ يخشى فيه على الإسلام أن يخسر مكانته الأساسيّة وسيكون من نصيب الشهير الغزالي (أ) أن يوفق بين السنّة وعلم الكلام والفلسفة والتصوّف وأنّ يقدّم للعالم الإسلامي خلاصة تحتفظ بطابعها الإسلاميّ.

وإنّما إلى مدرسة الاعتزال، وقد نشأت بالبصرة في القرن VIII يرجع الفضل فيه إنشاء علم الكلام الإسلاميّ وإنّها، وقد شاركت في عهد الخلفاء الأمويّين المتأخّرين في حركات سياسيّة، قد شهدت نشاطها بكلّ بالنجاح عند قيام العبّاسيّين وقد ناصروا مذهبها. وفي القرن IX نشأ نزاع عنيف بين الذين يريدون التوفيق بين العقل والعقيدة بالتقليل من شأن هذه إن اقتضى الحال وبين المسلمين المتعلّقين بالسنّة. وأفي البداية فإنّ مبدأ خلق القرآن، وقد فرضه المأمون، قد أحدث محنة حقيقيّة (ب) أصابت شخصيّات بارزة ثم كانت عودة إلى الورا قام بها المتوكّل (847-861) ثم إنّ معتزلياً قديماً هو الأشعري (ج) (874-935)، وقد اكتشف وجوها من التنافر بين النظريّات الاعتزاليّة وروح الإسلام قد نصّب نفسه إمام المذهب السنّي على أنّه قد فرض عليه استعمال الجدل. وإنّما هنا ظهرت أهميّة الاعتزال وهو وإن أفل في نهاية الأمر، قد مكّن على كل حال (163) المذهب السنّي من أن يجد طريقه وأن يستعمل للتعبير مصطلحات فلسفيّة.

- أ - عن مؤلفات الغزالي أنظر: محاولة ضبط تواريخ مؤلفات الغزالي تأليف موريس بويج وقد حيّنه ونشره ميشال الأر بالمطبعة الكاثوليكية بيروت 1959. وعبد الرحمن بدوي مؤلفات الغزالي القاهرة 1961
- ب - عن هذه المحنة انظر أهم تاريخ ضمن أخبار المؤمن والمعتصم والوائق
- ج - متكلم وفقه بدأ حياته معتزلياً ثم انظم سنة 300 / 912 إلى أهل السنة من أهم كتبه طبقات الاسلاميين واختلاف المصلين.

ثم إنه، بعد الماتريدي (م944) (أ)، وقد نشر في الأقاليم مذهباً قريباً من مذهب الأشعري، وبعد الباقلاني (ب) (م1013) وقد بين إعجاز القرآن واستعداد المذهب الذري المعتزلي المقتبس عن اليونان وبعد القشيري (ج) (986-1074) وهو أشعري وصوفي فإن البحث النظري قوي في نطاق المذهب السني وعلم الكلام تحرر تحرراً كاملاً من الفقه وقد كان لا يزال مرتبطاً به بعض الارتباط.

وإنما في تلك الفترة ظهرت شخصية من الطراز الأول كنا أشرنا إلى دورها في الأدب الأندلسي، نعني ابن حزم (994-1064) وهو بعد أن اطلع على مذاهب مختلف المدارس الفقهية اعتنق في نهاية الأمر المذهب الظاهري وهو لا يقبل إلا النص الحرفي للقرآن والسنة مصادر للفقه وينفي الحجة البشرية في ميدان الفقه. وإن مؤسس هذه المدرسة، داود (د) (م883)، كان اقتصر على ميدان الفقه ويكمن تجديد ابن حزم في تعميمه النظرية الحرفية وفي تطبيقها على العقيدة الإسلامية. وإنه في فصله قد سجل مناظراته العامة وأعد في نهاية الأمر أول تاريخ نقدي ومقارن لجميع الآراء الدينية ونقد مختلف المدارس الإسلامية نقداً دقيقاً قاده إلى أن يقوم بعمل مؤرخ للفرق ليظهر تفوق مذهبه الخاص. وهذا الكتاب، وهو صرح للفكر العربي هو كذلك صرح أدبي لأن ابن حزم، خلافاً لأغلب الفلاسفة العرب، كاتب عظيم طالما نسي.

أ - الماتريدي فقيه وكتكلم ومفسر حنفي من مؤلفاته كتاب التوحيد بيروت 1970 وتفسير بعنوان تأويلات القرآن القاهرة 1971.

ب - الباقلاني قاض وكتكلم أشعري وفقيه مالكي ألف كتباً عديدة وصلنا بعضها وخاصة كتاب إعجاز القرآن وقد طبع مرات عديدة

ج - القشيري متكلم وصفي له تفسير للقرآن بعنوان لطائف الاشارات القاهرة 1970. ورسائل عديدة أهمها الرسالة القشيرية (في التصوف) وقد طبعت عدة مرات.

د - داود ابن علي ابن خلف الاصفهاني مؤسس المذهب الظاهري اقتصر على القرآن والحديث وفهماهما حسب ظاهرهما كتبه طاعت ولكن وصلتنا منها مقتطفات بفضل ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل.

لكن رغم الآثار التي لا شك فيها لمذهبه في المغرب فإنه كان أبعد من أن يكون قد لعب دورا في مثل الأهمية التي كانت لأعظم الفقهاء العرب، الغزالي (1058-1112)، محيي الشريعة. إنه، وهو من أصل إيراني، وألف فعلا عدة كتب بالفارسية ولد بخراسان قد عاش ببغداد وارتحل مرآت في عزلة للظفر (164) بطمأنينة النفس واعتكف بمسقط رأسه حيث واصل تدريسه. وهو بعد أن انتابه في شبابه بعض التشكك قد تطور تطورا روحيا رسمه في ترجمته الذاتية "المنقذ من الضلال". وميله الطبيعي إلى التصوف قد تغلب على تشككه وأحدث في نفسه اضطرابا قاده إلى ضرب من الواقعية التامة: إن العقل يجب ألا يسيطر على الفكر الديني، لكن يجب أن نحذر من تحريم النظر العقلي فالمهم فوق الكل هي التجربة الدينية الذاتية وبالتالي فإن كل يقين أساسه لم يعد العقل بل النشوة. وإن الغزالي، وهو بطور مذهب الأشعري، منح صوفية القشيري مكانة أعظم في المذهب السني وجمع جمعا موفقا وسائل المعرفة عند الفقهاء المسلمين. قدم نصائح عملية في كتابه "إحياء علوم الدين" (1) ودحض حجج الفلاسفة المركزة على التفكير القديم في كتاب: "تهافت الفلاسفة" وسيرد عليه ابن رشد في كتابه: "تهافت التهافت" وهو في أخريات حياته سيلخص «نتائجه الختامية عن المعنى العميق للدين» في رسالة قصيرة عنوانها "أيها الولد" (2) ومجموعة آثار الغزالي وهي جد غزيرة (3) تنتسب في قسم كبير منها إلى الأدب ذلك أن هذا المفكر هو كذلك كاتب ذو أسلوب سهل بين لا تصنع فيه.

1- حله وأعد فهارسه ه. بوسكي باريس 1955. وقد طبع طبعات عديدة وهو من أهم كتذب الغزالي حجما ومحتوا وهو في أربعة أقسام هي العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات وكل قسم ينسم إلى عشرة أقسام.

2 - نشره وترجمه إلى الفرنسية ت. صباغ بيروت 1951

3 - قائمة المراجع عن الغزالي جد طويلة ويمكن النظر في كتاب الغزالي تأليف كركا دي فو باريس 1903 وفينسينيك تفكير الغزالي باريس 1940 وهما أهم الأعمال بالفرنسية بقطع النظر عن الفقرات المخصصة له في كتب تاريخ الفلسفة وفي دوائر المعارف. (وانظر التعليق أ ص 196)

ان الغزالي وهو فقيه مناوي، للفلاسفة كان له هو نفسه خصم في شخص ابن تيمية (1263-1328) الذي ناهض تصوفه وتعلق بالسنة وهاجم^[165] عبادة الأوكيا، وقاوم الفلسفة اليونانية واليهودية والمسيحية وعاد بهذه الصورة إلى مذهب التشبيه غير أنه لقي بعض المضايقات لأرائه إذ أنه كان يريد أن ينبذ التقليد وينتصب مجتهدا أي أنه كان يسعى جاهدا أن يكون لنفسه آراء شخصية في حين أن: "باب الاجتهاد" كان قد أغلق منذ قرون ونظرية ابن تيمية (1) تبناها حرفيًا تلميذه ابن قيم الجوزية (1292-1350) وإنما هي التي بنسبة كبيرة قد أثرت في الإسلام الحديث، عن طريق المصلحين الوهابيين.

التصوف

ان العنصر الصوفي الذي أدخله الغزالي في السنة الإسلامية ليس تجديدا أتى به ذلك المفكر العظيم إذ أن التصوف يرجع إلى عهود الإسلام الأولى «وطغيان العنصر الفقهي في الإسلام الرسمي لم يكن قادرا أن يرضي جميع الضمائر لا ولا خاصة أن يناسب من أسلموا حديثا وتركوا ما كانوا عليه من أديان تقوم على التوحيد. فهم قد احتفظوا من تربيتهم الدينية السابقة بذكرى مثل أعلى آخر على أنه حنين إلى الكمال أو السمو الروحيين... وقد فكر بعض المؤمنين... في الاتصال بالله اتصالا أمتن بطريقة أخرى غير الوفاء للقواعد الظاهرة وسبيل العدل الشرعي وقد طمع هؤلاء المؤمنون إلى أن يجربوا تجربة شخصية وأشد عمقا الحقائق الدينية تلك التجربة التي من شأنها أن تيسر لهم ارتقاء الروح ارتقاء تدريجيا نحو الله» (هـ.لامنس)

1 - انظر بحث في نظرية ابن تيمية القاهرة 1939. تاليف: هـ. لاوست والمؤلف قد ترجم كتاب السياسة بيروت 1948.

وهذه "التجربة الشخصية" التي يوصي بها الغزالي كان بعض المتصوفة الآخرين قد قاموا بها قبله. بل قد كانوا ألفوا كتباً يجب علينا أن نذكرها تقريباً كلها إذ أنه في هذا الميدان قد اكتست المواضيع الدينية^[166] الصبغة الأدبية الواضحة. ويقدم لنا "بيان" الجاحظ بعض النماذج من بلاغة المتصوفة الأوائل مثل الحسن البصري (م728) ويجب أن نذكر أن هؤلاء المتزهدين أو الخطباء الشعبيين ذوي الأصل الفارسي قد أثروا إثراء كبيراً فن الخطابة عند العرب. وبعد هذه الفترة بقليل فإن فقيهاً عراقياً معتزلي النزعة على أنه قد تصوف أعني المحاسبي (م857) سعى إلى الطهارة الروحية باتباع حياة زهد وقدم في قالب وصايا كتاباً كاملاً عن الحياة الباطنية وبعده فإن الجنيد (م910) يهمننا بتأثيره في المتصوف العظيم الحلاج (858-922) وقد "ضرب بالسياط وقطعت بعض أعضائه وصلب ثم قطع رأسه وأحرق" (ل ماسنيون) بعد محاكمة حسنة بنسبة متوسطة صورته (1).

وتمر السلسلة بالغزالي ثم إن الحلقة التالية يمثلها ابن عربي (1165-1240) وقد ألف موسوعة المعارف الصوفية وأصبح منظر الرمزية الصوفية وإن إنتاجه، وهو ثري جداً، يتضمن كذلك أشعاراً دينية وتفسير قرآن ومؤلفات أخرى صوفية.

وفي الطرف المقابل فإنه لا يمكننا ألا نذكر إنتاج ابن الجوزي (أ) (1116-1200) وهو فقيه وخطيب وكاتب منوع الإنتاج بغدادى الموطن وإنتاجه الأدبي وهو جد متنوع وغزير يتميز بموقف نقدي تجاه المتصوفة.

1- عن التصوف الاسلامي يجب ان نقرأ أعمال. ل. ماسنيون وخاصة "بحث في أصول المصطلحات الفنية..." باريس 1922 ومحنة الحلاج شهيد الاسلام الصوفي باريس 1922. ¹ وانظر كذلك في التصوف الاسلامي طائفة من الدراسات ألفها نيكولسون ونقلها إلى العربية أبو العلاء عفيفي القاهرة 1956
أ - ابن الجوزي من أشهر كتبه المنتظم حققه ف. ترنكوي حيدر آباد 1938 - 1940 وكتاب ذم الهوى تحقيق مصطفى عبد الواحد القاهرة 1962 وانظر مؤلفات ابن الجوزي لعبد الحميد العلوجي بغداد 1965.

النثر المسجوع (1)

إنَّ كتاب القرنين VIII و IX، ابن المقفّع وعبد الحميد والجاحظ وابن قتيبة، عرفوا فنَّ الكتابة وسعوا - وهم يقدمون مؤلفات قراءتها [167] عذبة - أنَّ يبسطوا اللغة وأنَّ يجعلوها قادرة على التعبير عن الأفكار الأكثر دقة وفي الجملة أن يرتفعوا بالنثر إلى أسلوب في التعبير عربي محض دون أن يضرّوا مع ذلك بالشعر الذي يجب أن يحافظ على مكانته المفضلة إذا ما تعلق الأمر بمخاطبة الأذن والقلب. وقبل القرن X فإنَّ الاختلاف كان واضحاً بين أسلوبَي التعبير غير أننا، بدايةً من ذلك العهد، نشهد حملة جديدة للشعر متقنّاً بقناع من النثر المسجوع. إنَّ التحول من الأسلوب الطبيعي إلى الأسلوب المتكلف، هذا الموقف الوسط الذي مكّن الكتاب من تزيين النثر بجميع حلي الشعر، يمثل بدون شك انحطاطاً للذوق العربيّ وتدهوراً مرجعه الكتاب الذين اتجهوا بعد أن استنفدوا إمكانيات المعنى نحو التي لا تزال يمكن أن يوقرها لهم اللفظ. وفي القرن X فإنَّ القوم لم يزالوا يطلبون في اعتدال من النثر نفس المشاعر الفنيّة التي يطلبونها من الشعر. ولكن بعد ذلك فإنَّ الكتاب الصرف الذين ليسوا مؤرخين ولا جغرافة ولا فلاسفة أغرقوا في تكلف يشهد بعدم قدرتهم على تجديد نثر قد أنهكت قواه، وقدموا من جديد الصور التي أخذها أسلافهم عن الشعر لإثراء لغتهم.

1- انظر زكي مبارك: النثر العربي في القرن IV هـ / X م باريس 1931 [وقد نشره صاحبه بالعربية بعنوان النثر الفني في القرن الرابع. نشر دار النهضة المصرية القاهرة د ت .

ومن ذلك الحين فإنَّ العبارة البسيطة لكاتب كالجاحظ وقد عيب بأنَّه لم يكن شاعراً (أ) لم تعد تكفي فالمنشود هو المحسنات البلاغية وقد أكثر الكتاب من الاستشهاد بالأمثال والأشعار والآيات القرآنية بل وسلخوا نصوصاً شعرية وعدّدوا، وهم يأخذون عن الشعراء صورهم، أوصاف كلِّ شيء: الطبيعة والرجال والنساء والحيوانات والأطعمة والألبسة والحلي فالكتابة صناعة تتعلّم فكل شيء - أو تقريباً كل شيء - مصطنع فالأوصاف يُشتَم منها التعلّم إذ أنَّها لم تتمَّ بصورة طبيعية وإنَّ الذكريات الأدبية تحلي الأسلوب الذي وقف به الإلهام.

[168] أسلوب الترسل

إنَّ السجع ظهر بطبيعة الحال أوّل ما ظهر في المراسلات الرّسمية. إذ أنَّ البلاط هو الذي يفرض ما يروج من أساليب. نعم قد نكتشف إذا ما دققنا البحث، بعض الفواصل في الرسائل التي حرّرها كتاب القرن IX إلا أنَّ في ذلك شذوذاً في حين أنَّه في القرن الموالي قد عمَّ استعمال القافية وأصبح لزاماً على الخاصّة.

إنَّ ابن عبّاد (938-995)، وزير الأمراء البويهيين، قد خلف لنا مجموعة رسائل لها حظوة كبرى (ب)، ومواطنه ابن العميد (م970) (ج) قد لقّب خطأ

أ - إشارة خاصة إلى ما جاء في المقامة الجاحظية للهمداني "إنَّ الجاحظ في أحد شقي البلاغة يتطف وفي الآخر يقف. مقامات الهمداني ط محمد عبدو، بيروت د ت ص 75 .

ب - نشرها عبد الوهاب عزام وشوقي ضيف بالقاهرة سنة 1953 .

ج - بعض رسائله مبهونة في بعض المصادر القديمة مثل تجارب الأمم لمسكويه وريضة الدرر للشمالي.

بالجاحظ الثاني، وإن موظفا آخر من موظفي الإدارة، أبا بكر الخوارزمي (935-993) (أ)، وقد عاش لدى سيف الدولة وأقام مدة ببلاطات فارس هو الآخر كذلك مؤلف مجموعة من الرسائل في النثر المسجوع. وقد ذهب به الأمر إلى أن يستعمل أسلوب الدواوين في مراسلاته الخاصة التي راسل بها الأمراء والوزراء والقواد وكتاب الدواوين والعلماء للتهنئة أو التعزية وغير ذلك. وهذا الأسلوب، وهو بعد إلى حد ما مزخرف ومصنّع، لا يزال يبدو على درجة مفرطة من البساطة في نظر خلفه وخاصة في نظر أشهر مترسلي القرن X، بديع الزمان الهمذاني (968-1007)، وهو بعد أن حظي مدة لدى ابن عباد ارتحل طلبا للرزق إلى نيسابور حيث اصطدم بعداء الخوارزمي وخرج منتصرا (ب) كما أكد هو ذلك على الأقل إثر مناظرة أدبية مع منافسه ثم خلفه عند موته وقد حصل بعد ذلك بقليل. وقد احتفظنا منه بمجموعة رسائل (ج) شخصية لها نادرا قيمة عامة إلا أنها تلفت الانتباه بأسلوبها المزخرف وصنعتها الفنية. والنمط الذي سيسود بالدواوين بداية من القرن XIII هو آثار وزير (د) لصلاح الدين، وهو القاضي الفاضل (1135-1200). وأسلوب المهنة هذا، حيث الوحدات المسجوعة طويلة والاستعارات عديدة وحيث الشكل يعوّض الفكرة يظهر في نماذج^[169] من كتاباته الرسمية فهذه لها خاصة قيمة وثائقية إذ هي تمثل وثائق نفيسة.

أ - هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي له خاصة مجموعة رسائل طبعت مرات مثلا الأستانة 1297 / 1879 وبومبي 1301 / 1883 وقد أورد الثعالبي في بتيمة الدهر نماذج من نثره.

ب - في معجم الأدباء لياقوت طبعة مرقليوث / 106 تفصيل لهذه الخصومة وخاتمتها "وما خرج الخوارزمي حتى غابت الشمس وعاد إلى بيته وانخلد انخلالا شديدا وأنكشف باله وانخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره وذلك في شوال سنة 383".

ج - طبعت رسائله طبعات مختلفة مثلا ببيروت سنة 1890.

د - في الحقيقة كاتبه ومستشاره ومدير ديوان الإنشاء.

المقامة

من الكتابة الديوانية والمراسلة الشخصية انتقل النثر المسجوع منذ القرن X إلى فن كان ظهوره بصورة مفاجئة، وهو المقامة، وخصائصها، وهي طريقة بعض الطرافة، هي التالية:

شخصية طريقة بليغة تجمع بين صفات المكذبي والبهلولاني تعبر عن آراء في مواضيع مختلفة أو تشارك في مغامرات تتفاوت إضحاكاً وأقوال هذا البطل وحكاياته ينقلها راء يكون الشخصية الثانية وهي لا بد منها في المقامات ثم إن كل شيء يقال سجعاً.

ومجموع المقامات الأول المعروف هو من وضع المترسل الذي التقينا به منذ حين وهو الهمذاني (1) وكتابه يعتمد أساساً على أفكار البطل اللطيفة وحيله البارعة في طلب المال والحصول عليه، مما يوفر للمؤلف الفرصة ليصف مشاهد من الشارع ويروي أحداثاً ماضية ويعبر عن آرائه الخاصة مخفياً وراء شخصية البطل: عروض أدبية وفقهية، خطب وعظية وخطب رثانة مملة وحيل متسوكين وخدع سراق وألغاز، كل هذا يمثل المادة المقدمة بفضل تنسيق روائي بارع.

وظهور هذا الفن المفاجيء لم يكن يسعه ألا يشير اهتمام النقاد فتساءلوا عن المصدر الذي كان المؤلف قد استلهمه، وأتينا والحق يقال لسنا مطلعين

1- ر. بلاشير وماسنو. مقامات مختارة ومترجمة عن العربية مع دراسة عن هذا الفن باريس 1957. لطبعة المقامات المتداولة هي طبعة الشيخ محمد عبده وهي ناقصة أما الدراسات عن فن المقامة عامة أو الدراسات الجزئية الخاصة ببعض المقامات فعديدة نذكر منها: قراءة في شكل تراثي: المقامة لحصادي صمود ص ص 11 - 81 من كتابه الوجه والقفا في تلازم التراث والحداثة الدار التونسية للنشر تونس 1988. وفصل مقامة بدائرة المعارف الإسلامية / 105 - 113 لشارل بلا. وقد عرّيته حسناء الطرابلسي بمجلة الحياة الثقافية عدد 62 - 1991 (تونس). وكتاب فن المقامات في الأدب العربي لعبد الملك مرتاظ الجزائر 1988 وكتاب المقامات: السرد والأنساق القصصية لعبد الفتاح كيليطو ترجمة عبد الكبير الشرفاوي دار توبقال المغرب 1993.

إطلاعاً جيداً على هذه المسألة، غير أنّ الراجع أنّ المقامة تتّصل [170] بتطوّر الآثار الترفيحية وتستلهم الحكايات المسجوعة التي كان لغويّ من البصرة إستقرّ ببغداد، وهو ابن دريد (م933) قد فكّر في تأليفها لغاية تربية (أ). ومن جهة أخرى فإنّ الكدية التي ظهرت عند الهمذاني ليست أمراً مبتدعاً فإنّ الجاحظ (م868) كان من قبل، في تصويره مختلف الأصناف الإجتماعيّة قد أكثر من الحديث عن المكذّبين، هؤلاء الأشخاص المتنوعي الشخصية المهذارين الذين لا وازع لهم والذين هم صورة لما سيكون عليه البيكارو (ب) وفي نهاية الأمر فإنّما في آثار الجاحظ وحكاية الأسدي والمقامات ومجاميع اللطائف يمكن أن توجد النماذج السابقة للرواية البيكارسكية (1).

ان هذا الفن كما هو منتظر سيتطور في اتجاه يوافق ذوق العرب وهم يرجعون كل شيء إلى صفاء اللّغة وسيستعيد الصيغة التي كان أعطاء إيّاها ابن دريد. فإنّ ابن شرف (م1068) قد اعتمد شكل المقامة واستلهم علانيّة الهمذاني لإبداء آرائه في الشعراء العرب وطبعاً فإنّ الكدية قد اختفت والبطل قد حذف وبقي فحسب الراوي وهو يتكلم سجعاً وفي نفس العصر فإنّ

أ- ابن دريد: في زهر الآداب للحصري أنّ ابن دريد ألف أربعين حديثاً وقد تكون هي التي أراد الهمذاني أن يتجاوزها في مقاماته. وهذه الأحاديث لم تصلنا وقد يكون ما أورده أبو علي القالي في الأمانى منسوبا إلى ابن دريد هو بعض هذه الأحاديث.

ب - بيكارو *pizaro* وهو في الاسبانية المغامر

1- يحسن أن تتواصل الأبحاث في هذا الإتجاه وأن توضع في متناول المتخصّصين في الأدب المقارن ان لم تكن ترجمات كاملة على الأقلّ تحاليل لمؤلفات مثل محاسن البهيتي (ق X) وان اكتشفاً طريقاً مقنناً من قبل أ. رومر (ملاحظات الى لزلوا) بمجلة اللغات اللاتينية الحديثة عدد 172 سنة 1965 هو بهذا الصدد مشجع. إشارة إلى دراسة عن كتاب حياة لزلو دي تورم وهو رواية اسبانية (من نوع المغامرات) مثال الرّجل الذي لا يفكّر إلا في مصلحته اليومية غير عابئ بالقيم الأخلاقية. وقد نشر محمود طرشونة سنة 1982 كتاباً بالفرنسية بعنوان الهامشيون في القصص البيكارسكية العربية والاسبانية وهو نص أطروحة ناقشها بالصريون سنة 1980. ج المقصود كتاب مسائل الانتقاد وقد سبق ذكره ص 143 (الأصل).

ابن ناقيبا (1020-1092) (أ) قد تخلّى عن وحدانيّة البطل وأدخل رواية عديدين موليا الشكل أهميّة رئيسيّة.

وإنّما إلى نحويّ من البصرة، وهو الحريري (1) (1054-1122) سيعود أمر تأليف أشهر أثر في النثر المسجوع يملكه العرب وفي الحين نفسه إعطاء المقامة شكلها النهائي وإن سلفاستردي ساسي، إمام الاستشراق الفرنسيّ الأوّل قد تبين كل الفائدة التي كان يمكن استفادتها من مقامات الحريري في [171] تعليم العربيّة ولذلك فإنّه نشرها مشفوعة بشرح بقلمه وهذا « ليس أقلّ إبداع حقّه هذا العالم الموسوعي » (ك هوبار) إذ أنّها في نهاية الصعوبة فإنّ الراوي والبطل قد احتفظ بهما. بل يُزعم أنّ الأوّل ليس خياليا لكن في ما يخصّ أهميّة القصّة وطرافتها فإنّ الحريري لا يقوم للمقارنة بالهمذاني وعلى العكس من ذلك فإنّ اللغة ثريّة ثراء عجيبيّا وهذا ما جلب لهذا الأثر شهرة عاجلة ويمكن أن نتصور بعض التصور طريقة الحريري وتبحّره حين نعلم أنّه خاصّة قد ترك نصّين كل كلمة فيهما تبدأ في واحد بحرف س وفي الآخر بحرف "ش" إنّها المهارة المحض وإنّ هذه الصنعة قد امتعت القراء طيلة قرون (ب).

وفي القرن X لم يعتبر من المقامة إلاّ محسناتها البلاغيّة وأعرض في الآن نفسه عن المضمون والتنسيق الروائي حتى أنّه لم يحتفظ إلاّ بالاسلوب المسجّع الذي اعتمد في جميع أنواع المواضيع. وألّمع الاسماء قد ساهموا بتسطهم في الخضوع إلى هذا النوع الأقل: فالغزالي (ج) (1112م) والزمخشري (د) (1143م)

أ - ابن ناقيبة: حقق مقاماته ونقلها إلى الفرنسية ك. هوبار بالمجلة الأسبورية سنة 1908 وانظر كذلك مقامات الحنفي وابن ناقيبة وغيرهما اسطنبول 1912.

1- ع. عطية: مقامات الحريري نقله إلى الفرنسية فانتور دي بردي فوتبورج. أويسلا 1964 [طبعة النص العربي المتداولة هي طبعة دار صادر بيروت مع مقدمة قصيرة وضعيفة لميسى سابا]

ب - انظر المقامة اللبية طبعة دار صادر بيروت ص ص 401 - 402 ومن بين ما جاء فيها 5 أبيات تضمنت كلمات في كلّ واحدة منها صاد و3 أبيات في كلّ كلمة منها سين و19 بيتا تضمنت الكلمات التي فيها ظاء

ج - إشارة إلى كتاب مقامات العلماء بين يدي الخلفاء والأمراء وهو مخطوط بيرلين رقمه في قائمة كتاب هريج 79

د - إشارة إلى مقاماته وقد طبعت ببيروت سنة 1894

وبعض الأطباء، والمتصوفة استحوذوا عليه دون أن ينتجوا آثارا روائع. واصبحت
المقامة مجرد تمرين لدى بلاغيين متعلقين بالمحافظة على السنة اللغوية
باستعمال كلمات غريبة وعبارات متكلفة لا علاقة لها مباشرة بالأدب.

[172] الفصل الرابع عصور الأدب العربي المظلمة (1800-1258)

لمحة تاريخية:

بعد أن استولى المغول على بغداد كانت بعض مراكز المقاومة قد ثبتت دون أن يكون فيها كبير خطر على الغزاة. وشرقا فإن هزلاء قبلوا الدخول في الإسلام أما الفرس فقد تخلصوا من التأثير العربي وخضع سائر العالم الإسلامي لنفوذ الترك "وهم.. بعد أن سكن تيار المغول قد نهضوا فأنشأوا لمدة قرون عديدة من فارس إلى المغرب الأقصى ومن بلاد القرم إلى اليمن، أمبراطورية أطاحت نهائيا ببيزنطة وظلت الأكثر استقرار والأشد قوة من بين جميع الأنظمة السياسية التي عرفها الإسلام" (ج. صوفاجي) وفعلًا فقد أعادوا وحدة آسيا الغربية واستولوا على القسطنطينية سنة 1453 وتلقبوا بلقب خليفة سنة 1516 واستولوا بعد ذلك مباشرة على الشام وبلاد العرب ومصر وتقدموا حتى شمال أفريقيا وإن الإسلام المغربي قد ظل إلى بداية القرن التاسع عشر يسيطر عليه الأتراك وهم دون أن يخفقوا حتى الموت اللغة والأدب العربية قد حذوا تحديدا كبيرا من الحركة الفكرية وفي حين خرج القسم الشرقي من الأمبراطورية عن الثقافة العربية فقد اقتصر في الجهات الأخرى على المحافظة على التراث وضبط المعارف الحاصلة تقريبا دون إنتاج أي طريف غير أنه في أقصى المغرب حيث يبدو أن العروبة قد التجأت لا يزال بعض الكتاب ذوي الموهبة قادرين على الإتيان بالجديد.

[173] قائمة مصادر ومراجع

يمكننا بالنسبة إلى هذه الفترة أن ننظر في: ر.فروسي، الامبراطورية الماغولية، الطور الأول باريس 1941، ل. بوفالامبراطورية الماغولية، الطور الثاني باريس 1927، م. فود فروادي ممبين: الشام في عهد الماليك من خلال المؤلفين العرب باريس 1923 ج مرسى: العرب في بلاد البربر [أفريقية] من القرن XI إلى XIV قسنطينة 1913 أ.ف. فوتيبي: ماضي افريقيا الشمالية : باريس 1937، ر.برنشفيف بلاد البربر الشرقية [أفريقية] في عهد الحفصيين مجلدان باريس 1940-1947¹ نقله إلى العربية الأستاذ حمادي الساحلي ونشرته سنة دار العرب الإسلامي بيروت بعنوان:

لم يخصص إلى اليوم أي كتاب عام لهذه الفترة من الأدب.

الشعر

إنَّ الشعر العربي يقتضي، كي يتطور، لا فحسب جمهوراً قادراً على الإحساس به إن لم نقل على فهمه ولكن خاصّة ميسانيين إلا أنه إذا استثنينا أقصى المغرب وإسبانيا حيث انتهى النفوذ العربي سنة 1492 فليس من المماليك بل وأقلّ من ذلك من العثمانيين يمكننا أن ننتظر تشجيعات. وإذا أن القوم يحبون رغم كل شيء الشعر فإنهم يكتفون بتقليد القدماء ووصف الأشياء التي تقع عليها أيديهم وإذا أرادوا، كلفهم ذلك ما كلفهم، أن يمدحوا أحدا فإنهم يمدحون الرسول أو الأولياء الصالحين المحليين.

فالشكل لم يتجدّد، والصنعة والغنغورية (أ) قبل ظهور صاحبها تسيطران، والاقتباس من الشعراء الكلاسيكيين بل ومن القرآن طويل عريض وفي الأغاني الشعبيّة، وهي قد راجت بعض الرواج، اتّبع القوم السنّة الأسبانية ونظموا الموشح والزجل.

ومن بين جميع شعراء هذه الفترة الطويلة فإن نفراً قليلاً يكادون يستحقّون الذكر فابن نباتة (1287-1366) (ب) عاش بسوريا وتعاطى المدح والشعر الخفيف والحلي (1278-1351) (ج) ارتبط ببلاط بني مردين واهتم، فضلاً عن

أ- عربنا بها gongorisme وهو مذهب المؤلف الأسباني فونفرا (1561 - 1627) وهو يعتني بالأسلوب باعتماد الغريب والاستعارة. ويمكن ترجمة هذه الكلمة بالتقعر أو التكلف أو التصنع .

ب- طبع ديوانه طبعات جزئية ثمّ كاملاً بالقاهرة سنة 1323 / 1905 والملاحظ أنه اشتهر كذلك بكتابه شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون وقد طبع طبعات عديدة أدّقها طبعة القاهرة 1384-1964 وهو يدلّ على تبحّره في اللغة والأدب والتاريخ.

ج- صفى الدين الحلّي م 750 - 1349 طبع ديوانه طبعات مختلفة منها طبعة دمشق 1300 / 1882 وطبعة بيروت 1310 / 1892 وفي ديوانه كذلك قصيدة في مدح الرسول "الكافية البديعة" وله كذلك العاقل الحالي والمرخص الغالي وهو في فنون الشعر العامي مثل الزجل والموالي وكان كان والقوما.

مدائح، بالشعر الشعبي وكان له منظرا. ثم نظم كذلك قصيدة في مدح [174] الرسول كما فعل البوصيري (1212-1296) وهو مدين أساسا في شهرته إلى برده (1) وهي قصيدة من نوع كلاسيكي يعترف فيها المؤلف بهفوات شبابه ويقابلها بسيرة محمد المثالية ذاكرة معجزاته. وعلى إثر هذه القصيدة تمثل الرسول للبوصيري في المنام ثم حسب الأسطورة شفاه بصورة عجيبة من داء الفالج. ولهذا فإن أبيات هذه القصيدة تحظى بخصائص خارقة للعادة " ولا يزال القوم إلى اليوم يستعملونها تمام ويتلونونها في الجنائز" (ر.باسي)

والسوري ابن الورد (1290-1349) (أ) خلف لنا إنتاجا لا بأس بغزارته لكن لا طرافة له البتة. وانه لعلينا مهما بدا ذلك غريبا أن نقفز قرابة الخمسة قرون لنجد شعراء ذوي قيمة وإن كانت هذه الفترة الطويلة من السبات لا تخلو البتة من ناظمين. وإن لواحد منهم أهمية تاريخية إذ أن ديوانه وآثاره في النحو واللغة لهما تنس. والمعني بالأمر أسقف حلب الماروني جرمانوس فرحات (1670-1732) وهو، إثر عودته من رحلة إلى روما حيث كانت توجد منذ 1584 مدرسة مارونية وإلى اسبانيا وصقلية ومالطة، قد جمع حوله مجموعة من الشعراء والعلماء ويمكن أن نكتشف بعض آثار التأثيرات الأوروبية في كتبه المدرسية التي كانت لا تزال مستعملة إلى نهاية القرن الماضي وفي معجمه العربي المنشور بمرسيليا سنة 1849 (ب) وديوانه وهو من الشعر الكلاسيكي

1- ترجمه ر. باسي باريس 1894. وهي القصيدة المعروفة أيضا بالكواكب الدرية في مدح خير البرية وهي في 162 بيت على البحر البسيط مطلعها

أمن تذكر جيران هذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة يدم

وقد طبع طبعات عديدة أفضلها التي أشار إليها المؤلف

أ- ابن الورد : نشر ديوانه فارس الشدياق بمجموعة الجوائب سنة 1300 / 1882 بالقسطنطينية كما طبع بعض آثاره الأخرى في النحو والقصة مثلا.

ب- عنوانه إحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب وهو مرتب مثل أهم المعجمات القديمة حسب أواخر الكلم.

وبه بعض الموشحات هو في جملته ذو إلهام ديني (أ) وإن فرحات قد حاول بعد شعراء سوريين آخرين ولكن بمزيد من النجاح، أن يطوِّع هياكل الشعر العربي إلى مواضيع مسيحية وهكذا فإن الغزل قد اعتمد لتمجيد العذراء وشعر الخمر للعشاء السري (ب).

[175] النثر المسجّع

ان أسلوب كتاب الدواوين، طالما بقيت العربية لغة رسمية، لم يظهر عليه أي تغيير بالنسبة إلى العصور السابقة، وإن أسلوب القاضي الفاضل هو المتبع، فالفواصل تمططت والاستعارات والوان الجناس ما انفكت تتزايد فالتفخيم والاطناب والتصنع قد جرّدت في نهاية الأمر هذا النثر، وقد كان يعتبر فنياً، من كلّ قيمة أدبية، وإن العربية لما أصبحت اللغة التركبية لغة رسمية قد تدهورت أيما تدهور. فمجاميع الرسائل قد اتخذها نماذج من لا يزالون مكلفين بكتابة مثلها. بل لقد ظهرت قوالب ليستعملها العموم وقد كانوا يحررون رسائلهم الخاصة في أسلوب تافه لكثرة تداوله.

وإن كاتباً شهيراً من هذا العصر، وهو الخفاجي (1571-1659) وقد عاش بالقاهرة والقسطنطينية ألف سجعا عدة كتب في التراجم رثبت فيها الشخصيات حسب المناطق التي كانوا بها يعيشون. وقد ألف كذلك مقامة ذلك أن هذا الفن لا يزال يتعاطاه الكثيرون. وقد خصصت مقامات قلّدت فيها مقامات الحريري لمواضيع غزلية ودينية وصوفية ومدحية.

أ- طبع ديوانه ط 2 المطبعة الكاثوليكية ببيروت 1894 .

ب - المقصود آخر عشاء تناوله عيسى مع حواريه وقد طبع ديوان جرمانوس فرحات طبعات عديدة .

وقد ألف ابن الوردي مقامة عن الوباء، والسيوطي (1445-1505) عن مواضيع مختلفة فيها حتى الفاحش وقد قصّ العلويّ سنة 1715، وهو لا يزال يقلّد الحريري، مغامرات جرت في الهند. وأغلب هذه المقامات تعارن بهلوانية لا تستحقّ أيّ اهتمام.

النثر المرسل

إنّ النثر المسجّع اعتبر في ذلك العصر أفضل أساليب التعبير غير أنّ الكتاب الذين كان لهم ما يقولون لا يضحّون دائماً بفكرهم^[176] أو بسعة معارفهم لفائدة الذوق السائد. ولكن الكتب المؤلفة في العصور المظلمة هي التي النقاد يحكمون عليها بأشدّ القساوة وإنّ كانوا مجبرين على الرجوع اليها في كل حين. فهي فعلا في الغالب موسوعات⁽¹⁾ تضبط المعارف الحاصلة وتعيد في خلاصة تأليفية سهلة الاستعمال الآراء والاحكام السابقة وتوفّر فصولا عديدة من كتب هي الان لا يمكن الوصول اليها.

وهذه المجاميع الضخمة وهي سمة عصور الانحطاط، على أنّها تستجيب لضروريات واضحة، قد بعثت عليها كذلك رغبة مؤلف المعجم العظيم الموسوم بلسان العرب، ابن منظور (م1311) قد عبر عنها أحسن تعبير حين قال إنّ شرع في كتابه في نفس الظروف التي «صنع فيها نوح فلكه». فقد تمثل الأمر فعلا في أنّ ينقذ من التلف التراث الذي جمّع طيلة قرون.

والأدب الشعبي قد عرف مع ذلك ازدهارا لم يعرفه في أيّ عصر سابق وإنّهُ إلى عصر الخمود هذا يرجع تاريخ مجاميع القصص الضخمة المعروفة بالمغرب معرفة تامة. وفي ميدان الجغرافيا ظهرت من جديد رحلات من نوع جديد كل الجدة في حين ان التاريخ يمثله الشهير ابن خلدون.

1- انظر س. بلا: "الموسوعات في العالم العربي" في كراريس التاريخ العالمي XI / 3، 1966.

الأدب

إن الميل إلى الموسوعات قد بعث، في صورة أوسع بكثير مما سبق، أدب القرن التاسع وقد أثرته مساهمات أجيال ما بين العهدين. ويمكن أنه نتبين فيه مجموعتين أساسيتين: من ناحية الموسوعات المعدة للموظفين، ومن ناحية ثانية موسوعات شعبية تولي عناية أكبر لمعلومات في الأخلاق العملية، للقصص الوعظية والنوادر المضحكة^[177] ويجب أن نصنف في المجموعة الأولى من المؤلفين النويري (1279-1332) وهو، بعد أن شغل عدة مناصب لدى المماليك، شرع في تأليف نهايته (نهاية العرب في معرفة فنون الأدب) (أ) حيث أراد أن يجمع المعارف الضرورية لكاتب ديوان. وهكذا فإننا نجد فيه نصيبا من التاريخ والجغرافيا وعلم الأجناس وعلم النباتات وعلم الحيوانات. وإن ابن فضل الله العمري (1301-1341) دمشقي استقر بالقاهرة حتى تولى القضاء وكاتب ديوان، وهو أيضا قد ألف موسوعة تاريخية جغرافية (1) عنوانها مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (هكذا). «إن وظائفه الإدارية قد مكنته من الاستقاء من وثائق الدولة وإن وسائل استخباره واسعة وقد حاول بفضل كل ذلك أن يرسم لجمهور ضيق غير أنه مثقف، صورة هي في الآن نفسه كاملة ومفصلة عن العالم في عهده. وإن الروح النقدي ضروري لمثل هذا العمل ولم يعدمه البتة العمري. وقد اقتصر تصديقه للاخبار على أن يقبل نظريات، لا شيء في عهده، قد كان بعد قبلها. (ر. بلاشير). والصفدي (1296-1362) هو

أ- طبع بدار الكتب المصرية بداية من 1923 في 18 جزءا.

1- الفصول المتعلقة بأفريقيا باستثناء مصر قد ترجمها ونشرها فود فروا دي مونبين باريس 1927. طبع الجزء الأول بالقاهرة سنة 1343-1924 وله كتاب التعريف بالمصطلح الشريف طبع بالقاهرة سنة 1312-1894 وفيه وصف للتنظيم الإداري للدولة المماليك وعلاقة الديوان المركزي بالقاهرة بدواوين مختلف الأقاليم.

أيضا شامي. وقد كتب "مسالك البحار (؟) في ممالك الامصار" وهو كتاب في الجغرافيا وقد خلف هذا الكاتب إنتاجا غزيرا جدا يتكوّن في معظمه من نقول. وكتابه في التراجم "الوافي بالوفيات" هو لا شك أوفى كتب التراجم الموجودة إلا أنّه لا يزال في معظمه غير متيسّر الاستعمال⁽¹⁾ ثم ان القلقشندي (م1418) قد أراد كذلك أن يقدّم في كتابه صبح الاعشى (أ) مؤلفا يعتمد الكتاب. وقد جعل منه مجموعة معارف^[178] عصره (2) وقد جمع البغدادي (1621-1674) في كتابه الضخم "خزانة الأدب" (ب) نصوصا مفيدة جدا في اللغة والتاريخ والأدب تشرح مئات من الشواهد الشعرية أمّا بالنسبة إلى الموسوعة الشعبية فأشهرها ما كتب الوطواط (1235-1318) (ج) والابشيهي (1388 بعد 1446) وقد اشتهر خاصة بكتابه المستطرف⁽³⁾ وهو مجموعة قصص وأشعار وحكم وأخبار تكون ما يجب أن يعرفه المسلم المتوسط الثقافة.

-
- 1- أميل أمار قد نشر مقدمته في المجلة الآسيوية 1911-1912. وقد عمل على نشره ه. ريتز وديدرنق¹ ووصلا به في 24 مجلد إلى حرف اللام المنشورات الإسلامية فيزيادان بيروت 1981 - 1993.
 - أ- صبح الاعشى في صناعة الإنشاء. طبع بالقاهرة في 14 جزءا بين سنتي 1337-1912 و 1341-1922
 - 2- انظر: ف فيات: مؤلفات كاتب الديوان المصري الكلاسيكية في القرن XV بمجلة دراسات اسلامية XVIII / 1963.
 - ب- خزانة الأدب ولب لبابة لسان العرب طبع بالقاهرة سنة 1299-1882 والطبعة الأفضل هي: بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة 1989 (في ثلاثة عشر مجلدا منها مجلدا للفهارس).
 - ج - الوطواط محمد بن ابراهيم الأنصاري كان ورّاقا من كتبه غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائص الفاضحة فيه مختارات من الشعر والنثر طبع بالقاهرة سنة 1284-1867 وفي سنوات أخرى وله مجموعة رسائل سماها عين الفتوة و امرأة المروعة طبعت بالقاهرة سنة 1315-1897.
 - 3- ترجمه: ج. رات: المستطرف: باريس . تولون 1899-1902: جزآن. وعنوانه الكامل: المستطرف في كل فن مستظرف وقد طبع بالقاهرة سنة 1352 / 1933 وبهواشه كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات لابن حجة الحموي.

القصص وروايات الفروسيّة

ان كتب الادب التي عدّنا مزيج ليس له، وان كان للطابع القصصي فيه نصيب، أي شبه بمجموعات القصص التي عرفت بالمغرب بفضل ألف ليلة وليلة خاصّة (1). ان هذه المجموعة الضخمة بعد ان كان "انتوان فلان" قد نشر ترجمتها لأول مرة وذلك من سنة 1704 إلى 1717 قد اصبحت اثرا كلاسيكيا ولاقت نجاحا باهرا بكامل أوربا حيث انتشر العديد من روايات النص الفرنسي وهذا الرواج يعود بدرجة كبيرة الى تجدد الاهتمام بالشرق كما يعود الى ظاهرتي حب الغريب والجنس اللتين عرفتا في القرن XVIII ويعرف القارىء هيكل هذه المجموعة ونكتفي بالتذكير به في ايجاز.

[179] فالملك شاه الزمان وقد رجع الى منزله على حين غفلة أدرك ان زوجته تخونه فقتل المجرمين ثم ذهب الى أخيه شهریار فلاحظ أنّه هو ايضا تهينه زوجته فسار الاخوان بحثا عن رجل أشقى منهما. وعلى شاطئ البحر أبصرا جنيا يبرز ويخرج من صندوق امرأة ذات جمال عجيب وينام على ركبتيها وان المرأة في فترة نوم الجنى، وقد ابصرت الرجلين، أجبرتهما على أن يخضعا

1- عن ألف ليلة وليلة " انظر: مونتني: الحكاية بالشرق الاسلامي باريس جينيف، ن. أليسياف: المعاني والأشكال في ألف ليلة وليلة بيروت 1949 مع قائمة مصادر ومراجع مفصلة. يضاف اليهما خاصة. م. أ. جاهوت: فن القصّة: لندن 1963. ¹ والملاحظ أن كتاب ألف ليلة وليلة وهو تأليف جماعي قد طبع في البلاد العربية والاسلامية طبعات عديدة أكثرها "مهذبة" وشعبية كما ترجم إلى لغات عديدة ولعل طبعه بولاق سنة 1835-1251 أكمل الطبعات وقد نشر محسن مهدي بمطابع بريل بليدن سنة 1405-1984 كتاب ألف ليلة وليلة من أصوله العربية في جزأين وهي الطبعة الأولى شرقا وغربا في البلاد العربية وللمحمود طرشونة كتيب مفيد بعنوان مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة (المطابع الموحدة تونس 1407-1986)

لارادتها. وان شهريار بعد أن عاد الى عاصمته أمر بقتل زوجته وحاشيتها ثم قرر أن يتخذ كل ليلة زوجة يامر بقطع رأسها من الغد ودامت هذه الحالة ثلاثة أعوام في نهايتها وقعت الاحداث التي تكون الإطار الحقيقي فذات يوم لم يجد الوزير شهريار زوجة يقدمها للملك فتطوعت ابنته شهرزاد نفسها. وطلبت ان تصطحبها أختها دينارزاد وقد كلفت ان تطلب منها ليلا ان تحكي لها حكاية وان الحاكية بفضل حكاياتها التي كانت تقطعها كل صباح في مرحلة مشوقة قد أخرت قتلها وأصبحت بعد ألف ليلة وليلة ملكة.

وهذا التمهيد وهو في ثلاثة أقسام يتصل بثلاثة أغراض هندية انتهت الى العرب عن طريق الفرس فموضوع القصة التي تؤخر الموت اقدمها واهمها، وهو الذي يكون الإطار الذي تندرج فيه مجموعة من الحكايات وهذه الحكايات لها أصول مختلفة والمجموع عمل جماعي لا تعرف أسماء مؤلفيه ويمكن ان نتبين فيه ثلاثة رواقد مختلفة فقد تكون النواة متكوّنة من الألف قصة المترجمة قبل القرن X عن الفارسية، وتكون مجموعة ثانية قد انضافت ببغداد في القرن X وأخيرا فإن مجموعة ثالثة قد أضيفت بالقاهرة نحو القرن XII والى الكل انضاف عدد من القصص التعليمية واتخذ المجموع في القرنين XIII و XIV صورته التي يعرف بها على انها لم تضبط بصفة نهائية.

[180] ولغة 1001 ليلة اقرب الى العامية منها الى العربية الكلاسيكية رغم ان بعض الفقرات قد اعتني بها عناية أكبر -من ذلك مثلا فقرات الوصف والرسائل- وانها قد ضمنت مقطوعات من الشعر والسجع.

وأقل شهرة من ذلك بكثير قصص الفروسية وهي ناتجة عن الميل بالتاريخ نحو الاسطورة وتعود الى عصر متأخر لكنه غير مضبوط ومن اقدمها "سيرة

الأميرة ذات الهمّة (أ)، وموضوعها الأساسي يتكوّن من حروب العرب ضد
الامبراطوريّة البيزنطيّة إلى حوالي منتصف القرن IX

غير أنّ أشهرها والاقدر على تنمية زاد القصّاص العموميين هي "سيرة
عنتر" (1) ويطلها هو الشاعر الجاهلي عنتر، أنّ الشاب عنتر وهو ابن أمة قد
وهب قوة هرقليّة وإنّ بلاءه في الحروب سرعان ما كان جزاؤه اعتراف أبيه به
والحاقه بنسبه وقد حمّله حبّه لابنة عمّه عبلة على التغلّب على عقبات عديدة
ثم انه وقد غادر الجزيرة العربيّة قد قاتل بالشام وشهد الف مغامرة وأخضع
الافرنج لامبراطور بيزنطة وجاب أوروبا منتصرا. وعبر إسبانيا وأفريقيا
الشمالية وخلص روما من بوهيمند (ب) وقد حاصرها ثم دخل الى قلب افريقيا
وسقط في النهاية وقد انغرس فيه سهم رماه به عدوّه وزر بن جابر مع أنّه كان
قد أعماه. هذه لحمة القصة لنا منها ثلاث روايات واحدة حجازيّة وواحدة
عراقيّة وواحدة شاميّة. وجمع النصّ الأوّل ينسب الى اللغوي الأصفهاني
(740-828) ويغلب على الظنّ فعلا أنّ هذا العالم قد ساهم في جمع [181]
الأخبار التي كانت متداولة عن عنتر ولكنه من الواضح أنّ الأخبار الخياليّة
هي من تأليف قصّاص زخرفوا كما شأؤوا خطوط حياة الشاعر وهي بعد جزئيا
أسطوريّة. وهذه السيرة تعكس فضلا عن ذلك صورة خمسة قرون من التاريخ اذ
أنّها تردّد صدى الحوادث التي وقعت من نهاية العهد الجاهلي الى نهاية
الحروب الصليبيّة.

أ- طبعت بالقاهرة سنة 1327-1909 بعنوان "سير الأميرة ذات الهمّة وولدها عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطال
وعقبه شيخ الضلال وشومدرس المحتال" وهي مجهولة المؤلف وقد اعتنى بها المشرّقون عناية فائقة.
1- م. دفيك: مغامرات عنتر ابن شدّاد، قصّة عربيّة من العصور الجاهلية باريس 1864 ط. 2. 1878 وهي اقتباس
مختصر يختلف عن الأصل. وهناك اقتباس آخر ل. ف. روجي: قصّة عنتر من خلال النصوص العربيّة القديمة باريس
(بيازا) 1923. [والملاحظ أنّ سيرة عنتر طبعت طبعات عديدة شعبية من أهمّها طبعة القاهرة بين سنتي 1306-
1311 / 1888-1893 في 32 جزءا كما أنّها لا تزال تروى في الأسواق العامّة وقد اعتنى بها بصورة خاصّة
جماعة من المشرّقين]

ب - اسم للعديد من أمراء أنطاكية أولهم بوهمند 1 مات (1111) وآخرهم بوهمند السابع مات (1287)

وقصة أخرى من قصص الفروسية هي التي بطلها الأساسي السلطان المملوكي بيبرس (1223-1277) مرّم الاسلام الكبير بعد سقوط العباسيين فهي مزج حول بيبرس بين أحداث تاريخية وأخبار ملفقة وأمثال وقصص خيالية(أ).

إن القبيلة العربية التي زحفت على افريقيا الشمالية في منتصف القرن الحادي عشر أي بني هلال، لها ايضا ملحمة نعرف لها رواية شامية ورواية حجازية(ب). فهي تشمل ثلاثة أدوار: تاريخ القبيلة القديم والهجرة بنجد واخيرا الانتقال الى افريقيا الشمالية ومن البطلين الاساسيين فان واحدا فحسب له وجود تاريخي ويمكننا كذلك أن نذكر هنا سيف التيجان وهيروى المغامرات الخيالية لأمير غاز (1) وكذلك قصة سيف بن ذي يزن وهو أمير من بلاد العرب الجنوبية طرد منها الأحباش قبل الاسلام فهذه القصة وقد نشأت بمصر يعود تاريخها إلى حوالي القرن XV (2).

أ- رواية شعبية تاريخية تجمع بين النثر المرسل والمسجوع والشعر تخبر عن آخر عهد الأيوبيين وبداية سلطان المماليك وتقدم خاصة ترجمة الملك الظاهر بيبرس (حكم من 658-1260 إلى 676-1277 وقد طبعت سنتي 1326-1327 / 1908-1909 واعتنى بها الكثير من الباحثين وخاصة المستشرقين لما تقدمه من معلومات عن الحياة الاجتماعية والأدبية.

ب- يجب إضافة عدة روايات أخرى وخاصة من تونس. انظر مثلا أقاصيص بني هلال مجموعة من النصوص بلغة الدارجة التونسية نقلها إلى العربية الفصحى وقدم لها الطاهر قبيقة الدار التونسية للنشر 1968 . وكذلك الجازية الهلالية قصة من التراث الشعبي لمحمد الرزقي الدار التونسية للنشر 1978. وانظر خاصة قصة بني هلال وما جرى لهم في تغريبهم الروايات التونسية للسيرة الهلالية (باللغتين العربية والفرنسية إعداد : ميشليز قالي وعبد الرحمان أهراب : باريس مطابع أرمان كولين 1983).

1- ترجمها الدكتور برّون باريس 1862

2- ترجمها على باي: السلطان سيف ذو اليزن القسطنطينية 1847.

[181] التاريخ

بهذه القصص، نتصل بالتاريخ وقد ظلّ ثرياً جداً طيلة العصور المظلمة إذ هو يقدم للكتاب مادة ما انفكت تتجدد. وإن المؤرخين باستثناء ابن خلدون هم نقلة أو شهود يتبعون المؤلف ويسلكون [182] مسالك أسلافهم ويقدمون إلى القراء في شكل يتفاوت في الطول عرضاً شاملاً يغني عن المصادر القديمة.

ومن أوائل الكتب التي عرفت بأوربياً كتاب التاريخ العام لكاتب نصراني، وهو المكين (1205-1273) وقد ترجمه إلى اللاتينية أوربانيوس سنة 1625 وقد جاء في صورة سلسلة من التراجم مرقمة من آدم (عدد 1) إلى سنة 1260. [أ] وإن كاتباً آخر معروف جداً هو ابن العبري (1226-1286) وهو يهودي تنصّر وأصبح أسقفاً سنة 1246 وهو إلى جانب تأليفه في الدين والفلسفة والنحو والشعر قد ألف في اللغة السريانية تاريخاً عاماً عرب منه قسماً [ب].

وابن الطقطقي (1262-بعد 1301) ألف للسلطان الماغولي كتاباً في السياسة شفعه بمختصر في تاريخ الدول، نعني كتاب الفخري (1).

أ - هو جرجس بن العميد: كتابه "المجموع المبارك" أو تاريخ المكين بن العميد يتضمن جزأين 1 - في التاريخ القديم إلى ظهور الاسلام و2 - التاريخ الاسلامي إلى سنة 658 / 1260 سنة بداية حكم الظاهر بيبرس المملوكي وقد كان أوربانيوس كما لاحظت بلا نشر هذا التاريخ وترجمه إلا أن هذه الطبعة لم تنشر وقد أعاد نشره ك: كاهان بالعدد XV سنتي 1955 - 1957 من مجلة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق.

ب - كتابه مختصر الدول نشره وترجمه إلى الانجليزية أ. و. بودج في جزأين سنة 1932 وكان الأب انطوان صالحاني قد نشره في بيروت سنة 1870 .

1 - ترجمه إلى الفرنسية أ. أمار ونشره في "الوثائق المغربية" XVI سنة 1910 وعنوان الكتاب هو "الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية" الطبعة المتداولة اليوم هي طبعة المطبعة الرحمانية بمصر [1345-1927].

وَأَلَّفَ أَبُو الْفَدا (1273-1331) مختصراً في تاريخ الجاهلية والإسلام إلى سنة 1329 (1) واعتنى ابن الفرات (1334-1405) (أ) بالقرن XIV وما سبقه إلى القرن العاشر ناقلاً نقلاً حرفياً أقوال أسلافه. وقد «أجاد المقرئ (1364-1442) فنَّ تأليف الكتب الواسعة دون أن يضمنها سطراً واحداً من قلمه إلا أنه (اعتمد) في ذكاء مصادره لم تصل إليها بعد أيدينا» (ج. صوباجي) وإنتاجه التاريخي وهو ثري جداً ينطلق من تاريخ مصر وقد بسطه خاصة في "خطته" (2) ثم كمل به بتاريخ الفاطميين والأيوبيين والمماليك (3) [183] ويسلسلة من الكتب المفردة المفصلة في مسائل من تاريخ الحضارة لا سيما السكة الإسلامية (4) بقطع النظر عن العديد من الرسائل الأخرى في علوم مختلفة.

1 - ترجمه إلى الفرنسية ترجمة جزئية نوال دي فرجي في كتابه "حياة محمد" باريس 1837 وهو السلطان الملك المؤيد اسماعيل بن علي بن محمود صاحب حماة جعله عليها الملك الناصر وكتابه هو المختصر في تاريخ البشر وهو تاريخ عام في قسمين الأول في الجاهلية والثاني في الإسلام إلى سنة 729 / 1329 وقد طبع عدة طبعات وخاصة في أوروبا منذ 1723 بأكسفورد وطبع كاملاً في جزئين للمرة الأولى باستنبول سنة 1286-1869-1870 [1870]

أ - ابن الفرات كتابه "تاريخ الدول والملوك" نشر بعضه قسطنطين زريق "بيروت 1936 ثم بالاشتراك مع نجلاء عز الدين (بيروت - 1938) كما نشره بعضه أيضاً محمد حسن الشماخ (البصرة 1967)

2 - بلوشي باريس 1908 كما ترجمه أيضاً هوريان و. كزانوفاً في الكتاب الذهبي للكلية الشرقية ببيروت (1893) - (1920) ¹ والعنوان الكامل للكتاب المعروف بالخطط هو "كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" وقد طبع ببولاق سنة 1270 / 1852 وأعيد طبعه كاملاً أو من خلال بعض أجزائه. ونشر أحمد عبد المجيد الهويدي سنة 1983 فهارس في ثلاثة أجزاء منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار بالقاهرة .

3 - القسم الخاص بالسنوات 1250 - 1308 ترجمه إلى الفرنسية ف. كاترمار في جزئين باريس 1837 - 1845 الكتاب الخاص بالمماليك عنوانه: السلوك في معرفة الملوك وقد نشره بالقاهرة سنة 1934 محمد مصطفى زيادة وس ع عاشور أما الكتاب الخاص بتاريخ الفاطميين فعنوانه اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء وقد نشره بالقاهرة سنة 1367 / 1948 جمال الدين الشيال وأعاد نشره بالقاهرة سنتي 1971 - 1973 أ. حلمي

4 - س. دي ساسي كتاب السكك الإسلامية باريس 1797.

وقد ألف ابن تغري بردي (1441-1469) وهو تلميذ المقرئ وممن وصلوا خطاه معجما في التراجم وتواريخ مفصلة^[أ] وقد خصّ معاصره الدمشقي ابن عرب شاه (X) تيمولنك بكتاب^[ب]. وقد ألف ابن اياس (1448-1522 تقريبا) تاريخا لمصر هو حقا مذكرات برجوازي قاهري⁽¹⁾ في أخريات دولة المماليك" (ج. صوفاجي) ولعله في هذه الفقرة يجب أن نذكر كاتبها مصريا آخر من أصل فارسي وهو السيوطي (1445-1505) أخصب الكتاب غير مدافع في الأدب العربي على الإطلاق. وهو من سنة 1467 إلى 1501 قد درس الفقه الاسلامي إلا أن تدرسه قد ترك له الوقت ليصنّف الكتب الـ 561 التي تنسب اليه. وهو مثال المؤلف الجامع الذي يطرق المواضيع ويكتفي بنقول مفيدة لكن ليس لها طابع شخصي. وقد مكّنه التفسير ولا سيما مؤلفات من سبقه في أسباب النزول من أن يتم في أربعين يوما تفسيراً لأحد شيوخه لا يزال حجة عنوانه تفسير الجلالين. وقد أعدّ مجاميع عديدة من الاحاديث النبوية وكتبها في نقد السنة وفي أخبار يوم القيامة وفي النحو وموسوعة حاول ان يعمّم فيها على النحو

أ - المقصود بالمعجم كتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ومختصره الدليل الشافي وهي تراجم السلاطين والأمراء في ما بين سنة 650 / 1248 و 855 / 1451 مع بعض الاضافات حتى سنة 862 / 1458 وقد نشر منه ملخصا وعلق عليه ف فيات في مذكرات معهد مصر سنة 1351 / 1932 والمقصود بتواريخ مفصلة هو خاصة كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (وهو في تاريخ مصر من سنة 20 / 641 إلى عهده) وقد اعتنى المستشرقون بهذا الكتاب ونشروه نشرات مختلف والطبعة العربية المتداولة هي طبعة دار الكتب المصرية سنة 1348 / 1929 وله غير ذلك من الكتب.

ب) تيمولنك (737 - 808 - 1336 - 1405) قائد مغولي من ذرية جنكيزخان (563 - 625 / 1167 - 1227) مؤسس الامبراطورية المغولية ثار على الدولة وعيّن ملكا ثم سلطانا سنة 1388 واكتسح مناطق شاسعة بآسيا الوسطى - ايران سوريا والقسم الأوروبي من تركيا وهزم بابايزيد بأنقرة سنة 1402. وكتاب ابن عرب شاه هو عجائب المقدور في نواب تيمور وقد طبع طبعات عديدة آخرها طبعة مؤسسة الرسالة 1986

1 - هذا هو فعلا العنوان الذي عنون به ق. فيات ترجمته (باريس 1955 - 1960) ¹عنوان الكتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور طبع بالقاهرة بالمكتبة الاسلامية 1960 - 1963 كما ترجم إلى الفرنسية وغيرها.

مناهج الفقه الاسلامي، وكتبها في التراجم والتاريخ، تاريخ العالم عامة، تاريخ الخلفاء وتاريخ مصر. وفي ميدان الادب [184] الصرف فانه قد حاول ان يؤلف "مقامات" في مواضيع شتى وصف في احداها عشرون عالما يمثلون فنونا من العلم مختلفة ليلة زفافهم مستعملين الألفاظ الفنية التي ألفواها (أ). وهو لم يستنكف من أن يصنف مجاميع من النوادر بل ومؤلفات في الشؤون الجنسية. ثم إنه قد ألف ليثبت تبحره موسوعة عن أربعة عشر علما.

وجميع هؤلاء المؤلفين مشاركة ومصريين خاصة كانوا نقلة بارعين عملهم نافع لا غير. وإنه لمن سعيد الصدف أن برز بالمغرب بالضبط، في الوقت الذي دخل فيه الاسلام في عصر الظلمات المؤرخ العربي الحق الأوحى واحد كبار الانسانية وهو ابن خلدون (1332-1406).

ان أسرته، وهي من أصل يمني، قد استقرت باسبانيا في القرن IX ثم هاجرت إلى تونس في القرن XIII وإنما هناك ولد ابن خلدون ثم شغل بعد دراسات جديّة في النحو والفقه والشعر والفلسفة مناصب إداريّة في مسقط رأسه ثم ببسكرة وفاس ثم إنه - وقد غضب عليه سنة 1356 وسجن قد استعاد منصبه بعد ذلك بسنتين وسمح له بالذهاب إلى غرناطة ومنها إلى بجاية وانسحب من جديد إلى بسكرة سنة 1365 ورجع إلى فاس وغرناطة ونفي بتلمسان ثم انسحب إلى تاوغزوت حيث شرع في تأليف تاريخه وفي سنة 1382 سار إلى الحج إلا أنه توقف بالقاهرة فدرّس بالأزهر وعيّن قاضيا مالكيًا، وفي سنة 1399 عيّن قاضي القضاة بالقاهرة وحافظ على منصبه منقطعا عنه أحيانا إلى أن مات.

أ - هي : رشف الزلازل من السحر الحلال أو مقامات النساء وقد طبعت طبعا حجريًا بالمغرب سنة 1319 - 1901 وقد ترجمها إلى الفرنسية واني خوام دار ألبن ميشال باريس 1972. وانظر عن مؤلفات السيوطي أحمد الشرقاوي إقبال مكتبة الجلال السيوطي الرباط 1977.

انه وقد شارك من قريب في كامل سياسة افريقية يمكنه ان يتحدث عنها
حديث الخبير في كتابه: تاريخ البربر (1) وهو "ثمرة قرابة خمسين سنة من
الملاحظة المباشرة والابحاث المتعمقة في الكتب والتواريخ والوثائق
الديبلوماسية والوثائق [185] الرسمية في عصره" (ا.بال) ولهذا التاريخ قيمة
عظمى لمعرفة المغرب غير انه لا تكون له إلا قيمة وثائقية لو لم يكن مسبقا
بمقدمة هي التي صنعت مجد مؤلفه وجلبت له الاحكام الاكثر اطراء من قبل
النقاد الغربيين وانه في مقدمته (2) قد أراد نفسه المنظر لعلم التاريخ ووضع
- والقرون الوسطى ضاربة اطنابها - أسس علم الاجتماع.

(إن) "حقيقة التاريخ خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما
يعرض لطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات
وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك
والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش
والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعة من الأحوال"

ثم انه - وقد اتخذ للمرة الاولى المجتمع موضوع دراسة قد رأى بالتالي
من الضروري "أن يرسم مظاهر تقدم الحضارة في التطورات التي كانت قد

1- ترجمة دي سنان: الجزائر 1852 في أربعة أجزاء .

2 - ترجمه إلى الفرنسية م.ج.دي سنان باريس 1862-1862 ط 2 1932-1934 في 3 أجزاء وترجمه كذلك ف
موتناي بيروت 1967-1968 بعنوانه الكامل: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر
ومن عاصره من ذوي السلطان الأكبر وقد طبع طبعات مختلفة وترجم إلى لغات عديدة. والطبعة العربية المتداولة
اليوم هي طبعة بيروت 1956-1959 والمعروف أن المشهور من هذا التاريخ هو ما يسمى بالمقدمة وهي تشتمل
على الديباجة أو تصدير الكتاب وعلى مقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالمام لما يعرض للمؤرخين
من المغالط والأوهام وعلى الكتاب الأول وهو في طبيعة العمران في الخليقة في ستة أبواب أما التاريخ فقد جاء
في الكتابين الثاني والثالث. والدراسات عن ابن خلدون ومقدمته أكثر من أن تحصى وقد حاول إحصاها مثلاً: ر .
ج فيشل في آخر الجزء الثالث من ترجمة المقدمة إلى الأنجليزية من قبل ف روزنتال نيويورك 1958 كما حاول
إحصاها عبد الرحمن بدوي بعنوان مؤلفات ابن خلدون القاهرة 1962.

بلغتها في عصره وان يقدم لقرائه جميع المعارف الاولى التي على المرء ان يكسبها للمشروع في دراسة التاريخ دراسة مثمرة " (دي سلان) وقد ضبط القوانين التي على المؤرخ أن يعرفها والتي تتلخص في ما يلي:

يجب ان نتبع تسلسل الاحداث لان لقانون السببية دوره في التاريخ ويمكن اذ ان الماضي والحاضر يتشابهان أن نعتد الحاضر للحكم على الماضي لكن على شرط أن نعرف^[186] المؤثرات المختلفة التي تغير وضع المجتمع وإن المؤرخ يجب أن يحذر من أسباب الغلط ومن المؤسف أن ابن خلدون لم يطبق دائما في مؤلفاته هذا (1) المنهج الذي عرف كيف يحسن تحديده وان اسلوبه معتدل خال من الزخارف التي لا تفيد، دقيق مختصر وأحيانا موجز عريض.

وهذا المؤرخ يسيطر في نظرنا على علم التاريخ العربي بأكمله غير أن أبناء وطنه ودينه وهم يفتخرون به اليوم لم يحسنوا تبين طرافته العميقة ولا احترام القواعد التي كان قد ضبطها. ومن بين اهل اختصاصه وهم كثير بالمغرب (2) فان مؤرخي المغرب الأقصى يتميزون بهذه الظاهرة فهم يميلون إلى الاعراض عن كل ما لا يتعلق ببلادهم. فهم قد تخصصوا في تاريخ الدول وقد أصبح شبه رسمي وفي فن التراجم وهو كثيرا ما ينقلب إلى تراجم الأولياء ولا نكاد نجد شخصيات بارزة ولئن كان البعض منهم معروفا فلائهم قدّموا إلى الباحثين معلومات دقيقة عن تاريخ المغرب.

1- فصل من كتاب تاريخي آخر عن ملوك غرناطة نقله إلى الفرنسية م. ق. دي مونييه بالمجلة الآسيوية 1989

2- انظر أ. لفي بروفنصال (بالفرنسية): مؤرخو الشرفاء باريس 1922.

ويمكن ان نذكر قبل ابن خلدون ابن عذاري (القرن XIII) مؤرخ المغرب واسبانيا (1) وابن أبي زرع (م بعد 1324) مؤلف تاريخ للمغرب منذ الأدارسة (2) ولسان الدين بن الخطيب (1313-1374) وقد قضى حياة مليئة مغامرات وجعل من نفسه مؤرخ بني نصر بقرطبة (أ) وأصبح أكبر كاتب وشاعر ورجل دولة بغرناطة ان لم نقل بكامل اسبانيا العربية وهو في الآن نفسه آخر من كانت له قيمة كبرى". (ك.ف. سيبولد) وقد وجد مترجمه الخاص في شخص المقرئ (1591-1632) وهو تلمساني^[187] عاش طويلا بالمشرق تأليفه الأهم تاريخ لأسبانيا ولسان الدين، (ب) وهو نقل ثري في التاريخ والجغرافيا والأدب معا فيه قد نقلت كتب برمتها مما أفرح العلماء المتبحرين شديد الفرح.

ويحسن بنا ان نذكر بعد ابن خلدون الزياني (1734-1833) وهو رجل دولة من المغرب الأقصى ومؤرخ وضع تاريخا عاما للإسلام كان فيه للدول بالمغرب الأقصى (3) المقام الاول، والسلوي (1835-1897) وهو مؤلف كتاب هام أبرز

- 1- البيان^[المغرب] ترجمه إلى الفرنسية فانيان الجزائر 1901-1914 في جزأين¹ بعنوان الكتاب الكامل هو "البيان المغرب في اخبار ملوك الأندلس والمغرب" وقد اعتنى به خاصة المشرقون من الاسبان والفرنسيين ونشروا ترجمته وأفضل طبعاته طبعة ج. م. كولين ولفي بروفنصال ليدن 1948-1951 في جزئين²
- 2- ترجمة إلى الفرنسية بوميبي باريس 1860³ بعنوانه الكامل كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" وقد طبع طبعات عديدة منها طبعة الهاشمي الفيلاي لرباط 1936-1355.
- أ- يقصد المؤلف خاصة كتاب اللوحة البدرية في الدولة النصرانية وقد طبع بالقاهرة سنة 1347-1928 - 1929 ولاين الخطيب كذلك الاحاطة في أخبار غرناطة وقد طبعت طبعات عديدة منها طبعة عبد الله عنان بالقاهرة سنة 1955.
- ب- كتاب المقرئ عنوانه الكامل "نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" وقد اعتنى به الباحثون عربا وخاصة مستشرقين تحقيقا ونشرا وترجمة وآخر طبعة وهي تقريبا أفضل الطبعات هي طبعة بيروت 1968 بتحقيق احسان عباس.
- 3- ترجمة إلى الفرنسية ترجمة جزئية 1. هوداس باريس 1886 بعنوان المغرب من سنة 1631 إلى سنة 1812⁴ وعنوان الكتاب الكامل هو الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب.

أجزائه كتاب الاستقصاء (1) وهو تاريخ عام للمغرب الأقصى لقي منذ البداية نجاحا كبيرا لدى مؤرخي الاسلام وهذا الكاتب يظهر أحيانا روحا نقدية وهو يستعمل العربية بسهولة ورشاقة دون ما التجاء إلى السجع.

الجغرافيا

إنّ الادب الجغرافي، وقد ازدهر في القرنين X و XI تأثر بنتيجة الانحطاط الفكري الناجم عن انهيار الامبراطورية العباسية، وإن التقهقر وقد بدأ بعد منذ حين قد زادت سرعته وإن المؤلفين وقد بدا لهم أنّ كلّ شيء قد قيل شعروا بأنفسهم مشدودين إلى عظمة الماضي، فخضعوا منذ ذلك الحين لاعتبارات صوفية أو لمقتضيات عملية وقصروا عملهم على تبويب ما جمعه أسلافهم من المعلومات وعلى تجديده. وهذه الاهتمامات قد ظهرت في المعجمات الجغرافية وقد سبق ذكرها وفي كتب علم الفلك وفي الجغرافيا الكونية والموسوعات التاريخية الجغرافية.

وقد اعتمد علماء الفلك ما عرف من معلومات [188] عن الكون ليؤلفوا كتباً ذات صبغة وعظيمة كتاب عجائب المخلوقات " للقزويني (م1383) أنموذجها الأمثل : فالكاتب يتحدث عن الكواكب والشمس والملائكة والسماء والارض وهو يعرض عرضا واضحا ثمرة مطالعته. وكتابه "آثار البلاد" كتاب جغرافية كونية يعتمد التقسيم إلى أقاليم وهذا الكتاب وهو غني بالمعلومات التاريخية والتراجم هو مع ذلك من حيث استعماله أقل سهولة من معجم ياقوت.

1 - ترجم الجزء الرابع إلى الفرنسية فومي في وثائق مغربية سنة 1906-1907 وترجم القسم الأول أ. فردل وج س كولين من المجلة سنة 1923-1925 [عنوان الكتاب الكامل هو الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى وقد طبع مثلا بمصر سنة 1312-1894. وبالدار البيضاء 1956.

أ - عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات طبع وستيفلبد بقوتنغن 1849 وطبع بالقاهرة بدون تاريخ.

ب - آثار البلاد وأخبار العباد طبعه وستيفلبد بقوتنغن سنة 1848 واعتمد طبعة كما هو بيروت سنة 1960-1961.

والكتاب الانموذج في الجغرافية الكونية هو تقويم البلدان (1) لابي الفدا (1273-1331) فالكاتب بعد مقدمة في علم الفلك يصف الكرة الارضية مضمنا كل فصل بسطة عامة ثم معلومات أدق عن المدن والاقليم وغير ذلك.

ويقابل هذه الكتب العامة والموسوعات التاريخية الجغرافية أدب الخطط الاقليمي وهو يقدم وصفا جغرافيا واحصاءات خاصة بجهة معينة وخصوصا مصر والشام ، ويمكن أن نذكر في هذا الميدان مؤلفات ابن مماتي (م1204) (أ) وعبد اللطيف (م1229) (2) والصفدي (م1361) والمقرزي (م1442)

والادب الجغرافي في العصور المظلمة ، كونيا كان أو اقليميا عمليا كان أو صوفيا لا يقدم الا تنظيما جديدا للمعلومات وبعض الجزئيات الدقيقة دون ان يسجل تقدما حقيقيا وان الجغرافيا الوصفية وقد كانت جد مزدهرة في العصور السابقة قد اختفت وآخر من يمثل هذا النوع وهو ابن سعيد [المغربي] (م1274) (ب) لم يزد على أن جمع ما كتب أسلافه وخاصة الادريسي مضيفا بعض المعلومات الفلكية إلى القسم الوصفي.

1- ترجم إلى الفرنسية م. رينوس قوبار بعنوان جغرافية أبي الفدا باريس 1848 و 1883 في جزأين مع مدخل إلى جغرافية الترقبين وكان قد نشره كاملا ج ت رينو وم ف دي سنان بباريس سنة 1840.

2 - ترجمه دي ساسي رحلة عبد اللطيف إلى مصر باريس 1910.

أ - ابن مماتي: له خاصة كتاب قوانين الدواوين وقد نشره بالقاهرة سنة 1943 أ > س. عطية.

ب - ابن سعيد لعله مات سنة 685 / 1286 . والأغلب أن الكتاب المقصود هو : المغرب في حلي المغرب وقد طبعت عدة أجزاء منه مثلا ما يتعلق بمصر نشره زكي محمد حسن بالقاهرة سنة 1953 وما يتعلق بالاندلس نشره أحمد صديق القاهرة سنة 1953 وقد ساهم ابن سعيد في اتمام تأليف كان أبوه قد شرع فيه هو المشرق في حلي المشرق.

[189] كتب الرحلات (1)

انه لفي الرحلة، أو على الأقل في بعض نماذج هذا الفن يمكننا أن نجد الانتاج الأكثر طرافة والأكثر صبغة أدبية.

فمنذ القرن التاسع كانت تقارير الرحالة قد قدمت إلى الجغرافة معلومات متفاوتة من حيث الصحة وإنما لمعرفة مدى صحتها المؤلفون شرع في الرحلات بانفسهم وفي العصور التالية واصل رحالة اخرون تدوين رحلاتهم وهكذا كانت لنا رحلة بقلم الشهير لسان الدين بن الخطيب (1313-1374) ثم ان مشاركة كثيرين بعد ذلك رغبة منهم في معرفة البلاد التي كان اخوانهم في الدين قد غادروها نتيجة زحف الجيوش المسيحية قد رحلوا إلى اسبانيا ودونوا رحلاتهم (2)

ومن جهة اخرى فإن بعض العلماء وقد ارتحلوا في طلب العلم قد أخبروا عن رحلاتهم والاشخاص الذين التقوا بهم والعلماء الذين سمعوا منهم محلين قصصهم بنوادر مختلفة لكن دون اهتمام بوصف البلدان التي جابوها وهذا الفن يمثل به بعض الكتاب المشهورين مثل الخطيب البغدادي (م 1071) والسيوطي (1446-1505) وأخيرا لقد رأينا سفراء ينشرون لدى عودتهم قصة مفصلة عن سفارتهم وتواصلت السنة خاصة مع المغربيين تامغروطي (1560-1594) وهو قد قص رحلته إلى القسطنطينية (3) والزباني (1734-1833) وهو رجل دولة ومؤرخ وجغرافي دون مختلف بعثاته إلى الشرق.

1 - إن كتاب ب. ترايبي : الرحالون العرب في القرون الوسطى (باريس 1937) لغير كاف ويمكن الرجوع إلى مقدمه الصادق [ب عنوان فن الرحلة] في مجلة الدراسات العربية عدد 40 نوفمبر 1948¹ ويمكن أن نضيف على سبيل الذكر كتاب الرحالون المسلمون في العصور الوسطى تأليف زكي محمد حسن القاهرة 1945 وكتاب أدب الرحلات لأحمد أبو سعيد بيروت 1961. وخاصة كتاب: رحالو الغرب الاسلامي من القرن XIII إلى القرن XIV لصالح المغيربي منشورات كلية الآداب منوبة تونس 1996.

2 - انظر ه. بيراز: أسبانيا كما رآها الرحالون المسلمون من 1610 إلى 1930 (باريس 1937).

3 - ترجمه ه. دي كستري : رحلة سفارة المغربية إلى تركيا (1589 - 1591) باريس 1929.

[190] لكن منذ القرن XII ظهر نوع مغربي صميم هو الرحلة إلى الحج إلى مكة. وبين كتب هذا الفن نوع من الوحدة : فقد كتبها حجاج ، وهم غير راضين برواية تنقلاتهم رواية شفوية، يشعرون بالحاجة إلى تدوين ملاحظاتهم ليعدوا كتباً هي دليل بالمعنى التام ليعتمدها من سيحجون بعدهم. فإن الكتاب، بعد قصة الانطلاق وعرض اسباب هذا الانطلاق يقدمون يوميات رحلة ذاكرين أوقات الانطلاق والوصول بالنسبة لكل مرحلة مع ما عرض لهم من أحداث واصفين المدن ومعددين بنسبة متفاوتة الأهمية الشخصيات الأحياء منهم والاموات وصلب الرحلة يهتم بقصة الحج إلى مكة والمدينة وقد يصادف أحيانا ان يغتنم الحاج اقامته بالشرق ليزور المدن الكبرى مثل دمشق وبغداد فيوسّع هكذا قصته وهي تختتم في آخر الامر بجميع الجزئيات عن رحلة الأياب.

إن هذا الفن وقد افتتحه ابن عربي (1076-1148) على أن رحلته قد ضاعت ، بلغ أوجه مع ابن جبير (م / 1217) وانحدر مع العبدري (ألف بداية من سنة 1289) وهو لم يعد يعتني بالجزئيات الجغرافية أو كاد ، ثم استعاد قوته مع التيجاني (أونل القرن XIV) وقد "أجبر على قطع الحج غير انه خلف لنا رحلة جد مفصلة عن تونس وقسم من طرابلس (1) ثم اكتسب طابعا جديدا مع ابن بطوطة (م1377). واصحاب الرحلات في القرن XVII كاد اهتمامهم يكون مقصورا على الأولياء والعلماء وهذا هو خاصة شأن المغربي العياشي (م1628) (أ) وقد حجّ ماراً بالتوات وورقلة وطرابلس ومصر وقدم لنا في أسلوب أجوف ومتصنع معلومات تهتم تاريخ البلدان التي عبرها وجغرافيتها وتقاليدها ولكنه اعتنى بصفة [191] أخص بإعداد قائمة علماء العصر ومتصوفته.

1 - ترجمها إلى الفرنسية روسو في المجلة الآسيوية 1852 / 1853 وقد طبعت هذه الرحلة بعناية حسن حسني عبد الوهاب، نشرت بتونس سنة 1958.

أ - طبعة حجرية بفاس في جزأين.

ومن بين جميع الرحلات فان رحلتي ابن جبير (1) وابن بطوطة تستحقان عناية أشدّ فالاول كاتب ديوان لدى حاكم غرناطة حجّ حجة أولى سنة 1183 ثم رحل رحلتين أيضا إلى الشرق الاولى في فترة 1189-1191 والثانية سنة 1217، غير أنّه مات في طريقه بالاسكندرية، وان قصة الرحلة الأولى هي التي خلفها لنا: فانه من ميناء طريفة ابهر إلى الاسكندرية ومرّ بالقاهرة ثم عبر البحر الاحمر من عيذاب إلى جدة وذهب إلى مكة ثم إلى المدينة فالكوفة فبغداد فالموصل فحلب ودمشق ثم ركب البحر من عكا إلى صقلية وعاد إلى غرناطة سنة 1185 وقد استعرض وكأنّه ناقل صحافي عصريّ جميع مراحل سفره وذكر جميع ما تعرّض اليه من أخطار وأبدى ملاحظاته عن الشعوب التي لقيها ووصف المدن التي زارها "ان اسلوب ابن جبير فيه الوان من التنوع فهو احيانا دقيق إلى حدّ الجفاف اثناء وصف المدن والمعالم وهو احيانا مطنب بعض الاطناب ومتكلّف اثناء اللّمحات العامّة وهو يعنى بها عناية أشدّ بالنسبة إلى الأقاليم وهو يصبح على العكس من ذلك جدّ حيّ وملوّن اثناء الحديث عن الجماهير والجيش أو القوافل في سيرها حيث يظهر الكاتب فنانا واعيا بامكانياته وجدّ بارع في اختيار الجزئيات المميّزة والتي هي وحدها يهتم الاحتفاظ بها (ر.بلاشير)

وهذه الرحلة وهي النموذج في هذا الفن كثيرا ما قلّدها الرحالة المغاربة ويغلب عل الظنّ أنّ المكتبات الخاصّة بالمغرب الاقصى لا تزال تحتوي على عدد كبير من الرحلات المخطوطة غير انه من المشكوك فيه انها تقدّم لنا شيئا آخر عدا معلومات عن التراجم ان لم نقل عن تراجم الاولياء لانّ هذا هو فعلا الاتجاه الغالب وهذا ظهر وإن بنسبة [192] ضئيلة عند ابن بطوطة اشهر الرحّالة لأن رحلته أوسع بكثير من غيرها. إنّهُ وهو أصيل طنجة قد بدأ رحلته

1 - ابن جبير ترجمها وعلّق عليها بعنوان وثائق متصلة بتاريخ الحروب الصليبية قود فروا دي مون بيل باريس 1949 / 1956 ثلاثة أجزاء. وقد

إلى الحج سنة 1325 : فعبر شمال افريقيا والصعيد المصري ثم أنه عوض ان يعبر البحر الاحمر قد صعد نحو الشام وفلسطين ليذهب إلى مكة. ثم بعد أداء فريضة الحج ذهب إلى العراق وإلى بلاد ما بين النهرين وفي سنة 1329 رجع إلى مكة حيث أقام مدة ثم عبر جنوب بلاد العرب وزار افريقيا الشمالية والتحق بالخليج الفارسي ومن هناك حج حجة ثالثة سنة 1332 ثم عبر مصر والشام وذهب إلى آسيا الصغرى وبلاد القرم. ثم زار القسطنطينة وواصل طريقه حتى الهند حيث تولى القضاء بدلهي. ثم انه وقد كلف بسفارة إلى الصين توقف في بلاد الملديف حيث تولى القضاء سنة وأخيرا عبر سيلان والبنغال وجزر الصوند وصل إلى كنتون ورجع عبر صومترا إلى الجزيرة العربية وشق فارس والعراق والشام ووصل إلى مصر وعاد مرة رابعة إلى مكة. وفي سنة 1349 رجع إلى فاس ومنها ارتحل إلى غرناطة. وفي فترة 1352-1353 طوحت به رحلة أخيرة إلى السودان وتنبيكتو والتوات ثم انه لما عاد إلى المغرب الأقصى أملى قصة رحلاته على كاتب من بلاط بني مرين هو ابن جزى (م1356).

ويتبين القارىء أهمية مثل هذه الرحلة (1) لمعرفة جميع البلاد التي عبرها ابن بطوطة. فان الاسلوب وهو بسيط وتعميمي حين يقف ابن جزى عند تقييدات الرحالة هو على العكس من ذلك على درجة من الاناقة حين يحاول زحزفة أسلوبه مستعينا بقصص سابقة غير ان هذه الرحلة تظل رغم تنقيحات المحرر مصدرا جدياً.

1 - ترجمها دي فرامري وسنقنتي 4 أجزاء باريس 1853 / 1859 ، ط 3 1893 ، ترجمة انكليزية لـ. أ. ر. قيب
أ ي ب قمبريدج 1958 1962 . والطبعة العربية هي طبعة مكتبة الشعب السيارة.

انبعاث الأدب العربي (منذ 1800)

لمحة تاريخية

إن حملة بونايرت (أ) على مصر (1798-1799) وقد كانت ترمي الى قطع طريق الهند والى مضايقة حكومة "الدركتوار" (ب) كان لها من التأثير في حال البلاد العربية ما لا يقدّر . فعمل بونايرت ، وقد أصبح الشرق الادنى باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح خارج شبكة المسالك العالمية ، قد أرجعه إليها وأبرز أهميته الاستراتيجية.

وقد اصطحب الجنرال لفيفا من العلماء أذكوا في المصريين حبّ الاطلاع قبل أن يجعلوهم يقبلون اقبالا شديدا على العلم الغربي وإنّما من مصر فعلا انطلقت حركة التجديد بفضل محمد علي (1805-1848) واسماعيل (1863-1882) وإنّ الامبراطورية العثمانية، ولم تعد سلطتها إلا صورية، قد تمزقت في تلك الاثناء وهذا الانقسام، رغم الدعوة الإسلامية الى التوحيد، قد أقرته الحرب العظمى واكثر من ذلك فان تركيا الجديدة وهي تتجدّد على قواعد محدودة قد قضت على الخلافة سنة 1924 وجميع البلاد العربية، وقد نزعت عنها نير الاتراك، قد سعت جاهدة الى التخلص من الاستعمار والهيمنة الغربية وقد كانت آثارها واضحة خاصة في الميدان السياسي ، أما في الميدان الفكري فان الغرب لم يفرض آراءه بل ترك للعرب حرية التفكير والكتابة ما تماشى ذلك مع المحافظة على النظام ولكن الشرق نفسه هو الذي تتلمذ على اوروبا لياخذ عنها أسلحة بها يكافحها [194] كفاحا اجدي . غير انه قد ظهرت نزعتان متعارضتان : تمثلت الأولى في تيار محافظ متعلّق بالماضي لمقاومة المجددين والثانية في تيار تقدّمي متفتّح على المستقبل وإنّه ليتوازن هاتين القوتين وبالتوفيق بين الماضي والحاضر يرتبط مصير الفكر والآداب العربية.

1-بونايرت المقصود نابليون الأول (1769 - 1821) امبراطور فرنسا 1804 إلى 1815)

ب - حكومة الديركتوار: وهي التي حكمت فرنسا من 26 أكتوبر 1795 إلى 9 نوفمبر 1799 وعوضتها حكومة "القنصلية" من 10 نوفمبر 1799 إلى 18 ماي 1804 يوم أصبح القنصل الأول نابليون بونايرت امبراطورا.

قائمة مصادر ومراجع :

الكتب والمقالات المتعلقة بالاسلام الحديث عديدة جداً ، بمجموعة كراريس الشرق المعاصر "قائمة مراجع
مجددة وأساسي هو كتاب هـ. أ. ر. قيب (أ) "الاتجاهات الحديثة في الاسلام" ترجمة فرنسية ل : ب. برنسي :
باريس 1949 والادب العربي المعاصر لم يدرس بعد دراسة شاملة ويمكن الرجوع إلى أعمال هـ. بيراز بواكير
النهضة في الشرق في القرن XIX وقد نشر بحوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر I مقدمات الكتاب
العرب لرواياتهم أو مجموعاتهم القصصية وأقاصيصهم ، بنفس المرجع V الرواية والقصة والاقصوصة في
الادب العربي الحديث، نفس المرجع III وعمل ج . لوسرف ، "الادب العربي الحديث" بالمجلة الافريقية 1931 ،
الادب العامي والنهضة العربية الحديثة بمجلة: الدراسات الشرقية، بالمعهد الفرنسي بدمشق ، II ، III ، نهضة
اللغة والاداب العربية في : أحاديث عن تطوّر البلاد ذات الحضارة العربية ، باريس 1936 ، خمسون سنة من
الادب المصري "بمجلة القاهرة : فيفري 1953.

ونجد قائمة مراجع مفصلة كما نجد مقدّمة دسمة في هـ. بيراز ، الأدب العربي والإسلام باعتماد النصوص
(القرن XIX والقرن XX ، ط 5 الجزائر 1952) وعلى القارىء في ما يخصّ الفترة المعاصرة القريبة منا جداً
أن يعود إلى عدد كبير من الفصول المبثوثة بمجلات مختلفة (وخاصة مجلة الشرق) غير أن الأجزاء الثلاثة من
كتاب منتخبات من الادب العربي المعاصر" (المذكور اعلاه ص- 8) تقدم لنا صورة جدّ دقيقة وتسمح لنا أن
نقف في عرضنا الموالي عند بعض العموميات وعند الاعلام الذين هم مضمون لهم أكثر من غيرهم الا يلفهم
النسيان في عاجل الزمان.

[195] للأحداث السياسية انعكاسات عاجلة على النشاط الفكري ونحن
نشهد انبعاثاً يسميه العرب خطأ نهضة إلا أنه يمكننا والحق يقال أن ندرك
علامات تجديد قبل حملة بونابرت حين كان محمد بن عبد الوهاب
(1703-1787) يعدّ بالجزيرة العربية مذهباً ينزع إلى التخلص من جميع المظاهر
التجديدية اللاحقة للقرن IX وهو مجرد رجوع إلى الماضي وبناء الإسلام على
أصوله الاولى وسيكون هذا المذهب مصدر إلهام لقسم كبير من الفكر

نقل هذا الكتاب إلى العربية هاشم الحسيني ونشرته مكتبة الحياة بيروت 1966 .

الاسلامي في القرن XIX وفي القرن XX وفي نفس الوقت كان المبشرون الكاثولكيون في لبنان وسوريا يسعون إلى نهضة حقيقية غير أن جميع العقول لم تنهضاً تهيؤاً متساوياً للثورة الذي أحدثته حملة بونابرت وبكفيك ان تقرأ حوليات الجبرتي (م 1825) لتلمس ما استولى على المصريين من الدهشة لما جاء به من تجديد من رافقوا الغازي (1) من العلماء.

إن محمد علي، وقد أدرك كل ما يمكن أن يجنيه من اقتدائه بالامم الغربية في الميدان المادي أولى الاعمال العلمية اهمية من الدرجة الاولى فكلف تراجمة بنقلها من أوربا. وفي الآن نفسه اعتبر تطوير التعليم ضروريا فانخفض تبعاً لذلك عدد الاميين انخفاضاً ملموساً.

وزيادة على ذلك فقد ادخل بونابرت إلى مصر المطبعة والصحافة فأصبح منذ ذلك الحين من الممكن الاتصال بطبقات من الشعب في نمو متزايد ولقد ظهر التطور في جميع ميادين الحياة عند سكان مصر وسوريا واتجهت اليهم [196] انظار سائر المسلمين. إلا أن الاوضاع الجديدة في ميدان الأدب قد أثارت ردود فعل جد مختلفة لكن نستطيع أن نقول إن تاريخ الانبعث هو تاريخ التأثير الأوربي والتأثير الفرنسي بصورة أخص. فبعض المسلمين المتشبعين بفكرة أفضلية دينهم ولغتهم وأدبهم قد احتجوا ضد كل ما هو جديد وانعزلوا في وطنية ضيقة تبدو لمن يحللها مزيجاً من تخوفهم التجديد ومن مركب عظمة يشوبه بغض للأجنبي شديد. وقلد آخرون تقليداً أعمى جد اعمى ما عرض عليهم من أمثلة او بالأحرى ما يذهبون هم أنفسهم يبحثون عنه منها،

1- ترجمها إلى الفرنسية شفيق منصور وعبد العزيز كحيل وجبريل نيقولا كحيل واسكندر عمون في 9 مجلدات القاهرة 1888 - 1897. وكان هذا الكتاب وعنوانه: عجائب الآثار في التراجم والأخبار ويعرف بتاريخ الجبرتي قد طبع سنة 1297 / 1879 بالقاهرة في أربعة أجزاء بموافقة الحكومة بعد حذف ما كان في طبعة أولى من طعون ضد محمد علي ثم طبع طبعات أخرى على نفس الصورة.

وأعرضوا عن ماضيهم كأن لم يكن .

واخيرا قد حاول آخرون على طريقة امثال الجاحظ وابن قتيبة ان يحافظوا على تراث ماضيهم الثمين وان يبقوا تفوق العروبة ، وأن يتبنوا المفاهيم العصرية التي يمكن تبنيها دون كبير عناء ولا تزال هذه الاتجاهات الثلاثة متعايشة إلى يومنا هذا : فالتوفيق المرجو لم يحصل اذن غير ان المفكرين الأشد فطنة يعملون على ذلك في عزم قوي.

ويمكننا بصورة عامة ودون الدخول في التفاصيل ان نميز اربع مراحل كبرى منذ بداية الانبعاث:

- فإلى حوالي سنة 1880 أخذ الشرق بتعود على الظروف الجديدة وسار في ذلك متعشرا. فالمحافظون أقوياء غير أنهم كانوا عاجزين عن إيقاف سيل التجديدات التي أدخلت في شيء من التسرع. فمصر- وقد أغراها ما وصلت اليه أوربا من مستوى حضارى راق اتجهت نحو التقدم المادى وعملت خاصة في الميدان العلمي أما لبنان- وأغلب سكاّنه مسيحيون وهم من قبل أكثر تفتحا للتأثيرات المسيحية الغربية - فقد حمل لواء العروبة واهتم بفصاحة اللغة وازدهار الأدب.

-ومن 1880 إلى 1900 جنت مصر ثمار ما قام به لبنان من عمل تمهيدى وإنما على ضفتي النيل تجمع النشاط الأدبي واكتشف العرب^[197] في الأدب الغربي لذات لم تكن معروفة، وضاعفوا الترجمات بل قد ظهرت مؤلفات طريفة وتميّزت الفنون الأدبية تميّزا يكاد يكون بينا ويدفع من رجل من طراز عال هو الشيخ عبده طال التجديد الفكر الإسلامى إلا أنه تجديد متزن يتعارض مع اندفاع المجددين غير المتبصرين وأن التوازن على وشك الحصول.

وبداية من سنة 1900 نزع التفكير الإسلامي نحو التوفيق غير أن انتفاضات غير متوقعة قد دلت على أن الحالة لا تزال غير ثابتة وأن التوازن غير قار وفي ميدان الأدب فإن المدرسة السورية اللبنانية بأمريكا - ولم يكن هناك ما يدعوها إلى عرقلة التطور بل هي حاولت ناجحة أحيانا أن ترتفع إلى مستوى الآداب الغربية-، قد تزعمت الحركة الأدبية فترة من الزمن وانتجت آثار قيّمة غير أنها أبعد عن مثل أعلى عربي، على أنه لا يزال كثير الغموض، حتى تقبل بالإجماع.

- وتبدأ المرحلة الرابعة بانتهاء الحرب العالمية الثانية وهي قد أحدثت انقلابات هامة وعجلت حركة التحرر القومي في البلدان الناطقة بالعربية ولئن كان لا يزال لمواليد مطلع قرننا من ينافسهم ومن يذهب مذهبهم من جيل الشباب فإنه يمكننا أن نقول إن معاصرنا وقد تخلصوا من سلطة الغرب السياسية لم يتنفسوا مباشرة نسمة الحرية المستعادة ولا يزالون يشعرون أنهم يخضعون لقيود لا تطاق. وفي الحقيقة فإن الظواهر الأساسية التي نشهدها اليوم هي من ناحية "التزام" متعمد ومن جهة أخرى خلط في الأذهان كبير. فهذا يرى أن الغرب قد أفلس وسبيل النجاة الأوحى في الرجوع إلى قيم الإسلام الأصيلة وذاك يرى أنه على المفكرين والأدباء والشعراء أن يساهموا مساهمة كئيبة في الكفاح السياسي والمذهبي الرامي إلى تحرير البلاد الناطقة بالعربية من رواسب الاستعمار^[198] وآثار الاستعمار المقنع الهدامة بل أيضا إلى التعجيل بتركيز الاشتراكية زد على ذلك أن ربح يأس لا ندري مصدرها تهب عاتية على الربوع التي يحيط بها البحر الأبيض المتوسط جنوبا وشرقا. وهناك جماعة من الكتاب الشبان من ذوى الإنتاج الغزير والنشاط الوفير وهم يرفضون محققين كل تسخير فكري قد شعروا بالحيرة والعجز أمام ظلم القدر

الجارج لكرامتهم والمحطم لآمالهم. إنهم وقد سئموا كل شيء وثاروا على كل شيء ظلوا يبحثون عما يؤدي بهم إلى الإيمان والفعل وأصبح القلق عند أشدهم عزما ثورة على المجتمع القديم إسلاميا كان أو مسيحيا ثورة على القيود إجتماعية كانت أو عائلية وثورة على الدولة وثورة على الله. ففي لبنان حيث تسود الحرية ظهرت كاتبة مثل "صاقان" (او كولات؟) (أ) مسلمة بنت عشرين هي ليلي بعلبكي فشغلت الناس سنة 1958 برواية عنوانها أنا أحيا (1) عبرت فيها عن مثل أعلى في التحرر لم يكذبه من شبان جيلها مكذب. أمّا بمصر فلم يتسنّ للحيرة الماورائية والنزعة الثورية أن تظهر إلا لماما بما ظهرت عليه هناك من قوة ووضوح فإنّ القوم هنا ملتزمون وقد ظهرت الرواية الواقعية وهي تصف حياة عامة الشعب تلك الحياة البسيطة الضئيلة فنمت عن نوايا محمودة واتجاهات اجتماعية وسياسية ورغبة في التشنيع بالسيطرة والاستغلال وفي مقاومة الفاقة والأمية في حين طرق المسرح الرمزي المشاكل الفلسفية الكبرى وبالسودان نفسه طرق الكتاب والشعراء في حماسة ما تداول من أغراض اجتماعية وسياسية. أمّا العراق وقد كان عهدا طويلا محافظا فإنه قد تخلى عن تحفظه ودفع بأدبه رغم أصوات قليلة ناشئة نحو سبل الاشتراكية. وبشمال افريقيا أخيرا ظهرت اتجاهات مماثلة غير أنّ لغة الكتابة كثيرا ما كانت الفرنسية بالجزائر والمغرب الأقصى أمّا تونس فقد تميزت بمذهب انتقائي محمود حتى إنه لا يمكننا ونحن نقرأ مجلة أدبية كمجلة الفكر وهي [199]

أ - كولات كاتبة روائية وقصصية فرنسية (1873 - 1954) فرانسواز وصاقان هي أيضا كاتبة روائية فرنسية لا تزال تنشط في ميدان الكتابة.

1 - ترجمها إلى الفرنسية م. بربو باريس 1961 [وقد طبعت في لغتها الأصلية أي العربية طبعات عديدة]

تصدر منذ الاستقلال^[أ] أن نتبين بيسر النزعة الغالبة في هذه المجلة نشرت منذ شهر جويلية 1969 أول مرثية أوحى بها إلى شاعر غزو القمر المنتظر وصاغها حسب قواعد الشعر الكلاسيكي الشاب جعفر ماجد (1940...) (ب) هذا الذي يمثل مذهبه الكلاسيكي الجديد المنتصر دليلا يطمئنا على ثبوت أدب لن يمكن لإقبال مفرط على أساليب زائلة تتوارد من الخارج أن يثريه بدون انقطاع. ومهما يكن من أمر فأنه لا يزال من السابق لأوانه أن نبتأ مدعوما في أمر الآثار المنشورة بكثرة خلال هذه السنوات الأخيرة وفي مستقبل أدب لا يزال يتحسس مذاهبه غير أنه ينبغي لنا أن نتتبع تطوره لأنه يمثل ظاهرة اجتماعية وتاريخية مليئة عبرا.

الشعر

إن الشعر، يقينا، هو الرابط الأقوى بين الماضي والحاضر إذ الأدب العربي هو قبل كل شيء شعر، وهو فعلا لا يزال أحسن ما يتذوق من فنون التعبير، رغم أن الناطمين وهم لا يزالون عديدين ليسوا على مستوى واحد من البروز في جميع البلاد العربية: وفي حين كان بتونس شاعر كالشابي (1) (من 1909

أ - مع الأسف الشديد انقطعت الفكر عن الصدور بتنحية مؤسسا ومديرها السيد محمد مزالي عن الحكم (الوزارة الأولى) صيف 1986 إذ المعروف أن الكثيرين ممن يعتبرون اليوم من أبرز الكتاب والشعراء بتونس قد نشروا بها بعض إنتاجهم

ب - أعاد الشاعر نشرها ص ص 11 - 13 من ديوانه الذي عنوانه غدا تطلع الشمس (الشركة التونسية للتوزيع بتونس 1974)

1 - أبو القاسم الشابي "قصائد: ترجمها إلى الفرنسية غديره باريس 1959" وقد أثرى عامر غديره هذا العمل ونشره باللغتين العربية والفرنسية بتونس سنة 1986 والملاحظ أن ديوان الشابي "أغاني الحياة" طبع للمرة الأولى بتونس سنة 1955 ثم طبع عدة طبعات أخرى منقحة مكتملة والملاحظ كذلك أن الدراسات عن شعره عديدة مشرقا ومغربا وغربا وفي العدد 33 سنة 1984 من مجلة الحياة الثقافية - تونس - إحصاء آثار الشابي وما كتب عنه من دراسات (بالاعتماد على مخزون دار الكتب الوطنية بتونس). وأحدث إحصاء هو دليل الباحثين عن الشابي اعداد وتقديم أبو القاسم كرو وكمال عمران وهو الجزء الخامس من كتاب صدر في 6 أجزاء خصصت لجمع مؤلفات الشابي ومراجع دراستها نشرته وزارة الثقافة بتونس بمناسبة ستينية الشابي وطبعة دار العرب الاسلامي ببيروت سنة 1994.

إلى (1934) وهو حامل رسالة على أنه لم يتسنَّ له إبلاغها قد عرف وحده شهرة واسعة نسبيا وذلك بعد وفاته بفضل مجموعة من الدراسات عن أشعاره حيث نستشف سخطا عميقا وحساسية غير معهودة فالذين ذاع صيتهم هم أساسا مصريون ثم سوريون ولبنانيون وأخيرا عراقيون.

فالشعراء، كما كان الشأن في القرنين VIII و IX قد أوقفتهم عقبتان فهل يحسن بهم من [200] ناحية أن يحافظوا على الهياكل القديمة وأن ينظموا القصائد على النمط الجاهلي وأن يبكوا الأطلال وأن يصفوا رحلات شائكة عبر صحار لم يروها قطّ أوهم قد لمحوها فقط من خلال أبواب قطاراتهم، أم على العكس من ذلك أن يبدعوا هياكل جديدة وبحورا عصريّة وعروضا ثوريّا؟

وهل يجب عليهم من ناحية أخرى أن يحدّوا إلهامهم وأن يقتصروا على المعاني الكلاسيكيّة أو أن يدخلوا في الشعر جميع المواضيع الجديدة؟

وإنه ليظهر أن أوسع الشعراء شهرة مدينون بنجاحهم إلى ما يتّسمون به من أوجه الشّبه بينهم وبين الكلاسيكيّين الجدد الذين يستلهمونهم غير أن هذا الاحترام للآثار القديمة أو الناحية منحى القدم لا يبلغ حدّ مجرد التقليد.

فقواعد النظم هي بصورة عامّة متّبعة عندهم غير أنّهم لا يخضعون لمقتضيات القصيدة الثلاثيّة إلّا نادرا، بل ان المدرسة الشّاميّة الامركيّة (أ) قد بلغت بها الجرأة إلى حدّ استعمال نظم مقطعي هو صورة من

أ - الدراسات عن أدب المهجر كثيرة ومتفاوتة القيمة ونحن نوصي بالرجوع إلى كتاب الشعر العربي في المهجر تأليف محمّد عبد الغني حسن ط 3 1962 وأهم ما فيه المختارات الشعرية وإلى كتاب الشعر العربي في المهجر تأليف احسان عباس ويوسف نجم دار صادر بيروت 1957 وإلى كتاب النثر المهجري: كتاب الرابطة القلميّة تأليف عبد الكريم الأشتر لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة وعيسى الناعوري أدب المهجر دار المعارف بمصر 1959.

نظمنا [الفرنسي] والشعر الحر والشعر المنشور وهذا التجديد الطلائعي لم يستسغه- وهل من حاجة إلى ذكر ذلك؟ أكبر قسم من الجمهور غير أن ما يستحسن هو نبذ بهلوانيات القرون السالفة وظهور الفكر والعاطفة والالهام الشخصي. ونذكر جيداً هنا أن الشعراء وحتى الأكثر تقدماً هم وارثو ماضٍ شعريّ عريق وانهم- وهم يطرقون مواضيع معاصرة يقبلونها عن طيب خاطر شأن اجدادهم من القرن VIII- يحسنون الملاءمة بينها وبين الذوق العربي وأنهم ليسوا في حاجة إلى أن ينقلوا عن الأجانب.

وإنما في منتصف القرن XIX ظهرت بوادر النهضة الشعرية ولم يكن هناك من قبل إلا نظامون ومقفون يتفاوتون مهارة وأبرزهم ناصيف اليازجي (1800-1871) وهو مسيحي متعلق بالقديم إلى حد أنه قد حفظ في طفولته ديوان المتنبي... القرآن [201] وهذا الاستاذ اللبناني، وقد ثبت في وجه التأثيرات الأجنبية سعى في عناية إلى تنقية اللغة ولم يجد لتجسيم نظريته خيراً من أن ينظم أشعاراً قديمة وكذلك "مقامات" وقد ألهم شعر القرون الوسطى أيضاً ضابطين من الجيش المصري هما البارودي (1839-1904) (أ) على أنه يعتبر مجدداً، وحافظ إبراهيم (1872-1932) (ب) وقد طرق من ناحيته مواضيع اجتماعية وفي نهاية القرن XIX وبداية القرن XX بدأ التأثير الغربيّ يلمس فالشرقيون قد اكتشفوا عندنا [أي الغربيين غنائية ذكرتهم بكبار الشعراء العباسيين فمزجوا موفقين بين الإلهاميين، غير أنهم، لئن اقتبسوا "عن أوربا طرقها في استخراج العطر، فاننا لا نزال نشم في آثارهم عطور بلاد العرب" (س. ابن شنب) وأبرز ممثلي هذا الاتجاه هم اسماعيل صبري

أ - طبع ديوانه بعد موته طبعات مختلفة أفضلها طبعة القاهرة 1940 تقديم على الجارم ومحمد شفيق معروف والملاحظ أن البارودي اختار مجموعة من أشعار الشعراء المولدين أو المحدثين كذلك بعد موته في جزأين سنة 1909 وجزأين سنة 1911 بالقاهرة بإشراف ياقوت الرسي

ب - طبع ديوانه في حياته من ثلاثة أجزاء بين 1319 - 1329 / 1901 - 1911 وطبع بعد موته طبعات مختلفة ولعلّ أهمها طبعة 1937 بالقاهرة من اعداد أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري.

(1885-1923) (أ) وقد اطلع بفرنسا على إنتاج لامرتين (ب) واستلهمه في قصائد من طراز عال حلل فيها البؤس البشري، وشوقي (1868-1932) (1) ونحن نجد عنده مزيدا من الحياة في شعر لا يزال متعلقا بالهياكل القديمة. "قأمر الشعراء" هذا كما لقّب بذلك قد بدأ حياته شاعر الخديويين ثم نفي إلى اسبانيا ولم يعد إلى مصر إلا بعد الحرب الكبرى وإن غنائيته الزاخرة ونفسه القوي ولغته البالغة الثراء، كل ذلك مكّنه من أن يطرق جميع الاغراض الشعرية من المثل إلى القصيدة التاريخية ولا نجرؤ ان نقول الملحمة وحتى المسرح.

أما في العراق فإنّ السّنة البغدادية، تتّبع اتّباعا دقيقا غير أن الزهاوي (ج) (1863-1936) رغم أنّه يجهل الآداب الاوربية قد انتصب منظرا للشعر الحديث ودعا إلى التخلي عن القواعد التقليدية على أنّ العائق الوحيد لحرية الشاعر يظل النحو [202] العربي وقد خصص أشعاره لمواضيع فلسفية واجتماعية- تحرير المرأة في المقام الأول- وملحمة ووطنية وهي تفيض قوة وحساسية وسهولة وتنوعا.

والرّصافي (1875-1945) (د) على العكس من ذلك يحترم الشكل القديم في أشعاره وقد خصّصها للطبيعة وألوان من الوصف ومواضيع مستمدة من الحياة الاجتماعية. وفي حين أن المدرسة المصرية والعراقية باستثناء الزهاوي تحسّ أنها

أ- نشر ديوانه أحمد الزين بالقاهرة سنة 1938 مع مقدّمة بقلم طه حسين

ب- الشاعر الفرنسي الرومنطقي (1790 - 1869)

1- انظر هـ. بيراز، أحمد شوقي، سنوات الشباب والتكوّن الفكري بمصر وفرنسا بحوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر II، 1936. ونحن نوصي خاصّة بمقال مراجعات في ترجمة أحمد شوقي للمتجّي الشملي (حوليات الجامعة التونسية عدد 8 سنة 1971 وخصائص الأسلوب في الشوقيات رسالة دكتوراه دولة إعداد محمد الهادي الطرابلسي منشورات الجامعة التونسية 1981. وانظر قائمة مؤلفات أحمد شوقي وما ألف عنه اصدار قسم الارشاد بدار الكتب بالقاهرة سنة 1957 .

ج - طبع ديوانه انظر خاصّة ط 2 دار العودة بيروت 1979

د - طبع ديوانه طبعات عديدة انظر مثلا طبعة بيروت 1930 و ط 1932 طبعة بغداد ج 1 / 1956 وج 2 1957 بتحقيق مصطفى السّقا ثم طبعة بغداد منشورات وزارة الاعلام ج 1 1972 وج 2 1974 مع شرح وتعليقات بقلم مصطفى علي ولعلها أفضل الطبعات.

مشدودة إلى القديم فان المدرسة، اللبنانية وبصورة أخص فرعها الأمريكي - قد اتسمت بجرأة لا حدود لها، وهذه المدرسة وهي تعيش تحت التأثير المباشر للشعراء الغربيين الذين تتغذى منهم، قد تحررت من الفنون الكلاسيكية وتبنت الشعر الحر والمقطع بل وتركيبا يعتمد الشكل المطبعي يعطي القصيدة قيمة تصويرية.

وقد حقق اللبناني خليل مطران (1871-1949) (أ) هذا الانصهار بين الشرق والغرب في ميدان العروض أمّا أبو ماضي (1899-1957) (ب) فقد استقر بنيورك حيث نشر عدة مجموعات شعرية. وإنّ بشارة الخوري (ج) (1890-1968) وقد لقّب بالأخطل الصغير "قد خصّص القسم الأكبر من إنتاجه لألوان الظلم بالعالم الحديث كما خصّصها لأساطير استلهمها من الروايات التي كنّا شاهداً ميلادها بالقرن X. أمّا جبران (1883-1931) (د) وصاحبه ميخائيل نعيمة (هـ) [1889] فقد عرفا خاصة قصّاصين ولكنهما قد نظما كذلك عدداً من القصائد النثرية في مواضيع اجتماعية.

وإنّ سعيد عقل (1912-) قد بلغ به حبّ لبنان والميل إلى التجديد إلى أن ينظم ديوان شعر بالعامية ويا للطامة الكبرى - بالحروف اللاتينية. وتلك المحاولة وهي لحسن الحظ لم تعمّر، لا تبدو أنّها قد طمست مجد هذا الشاعر والمؤلف المسرحي الرمزي الذي يحذق اللغة العربية حذقاً جعله أحياناً صعب الفهم ويهدف خاصة إلى

أ - نشر ديوانه سنة 1908 في صورة مختارات ثم نشر كاملاً مرتباً ترتيباً تاريخياً سنة 1939
ب - من دواوينه: تذكّار الماضي (الاسكندرية 1911) وديوان ايليا أبو ماضي نيورك 1916 والجداول 1927 والخمائل 1946 وانظر خاصة زهير ميرزا: ايليا أبو ماضي شاعر المهجر الأكبر دراسة وشعر. ط 2 (مزيدة تحتوي شعر الشاعر كله) دار اليقظة العربية بيروت 1963 .

ج - انظر "شعر الأخطل الصغير" بشارة عبد الله الخوري طبع دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع بيروت ط 2 / 1972
د - طبعت مؤلفاته نشرًا وشعرًا طبعات عديدة ثم ضمن المجموعة الكاملة بيروت 1956 والمقصود بشعره هر خاصة "المواكب" وقد نشر منذ 1918 بمرآة الغرب وأهم آثاره النثرية قصصه في "عرائس المروج" (1906) والأرواح المتمردة (1908) ثم رواية الأجنة المتكسرة (1992) والدراسات عنه عديدة ولعل أهمها أطروحة خليل حاوي بكثيره (1992) وأطروحة انطوان كرم بالصربون (1958) وترجمة حياته بقلم ميخائيل نعيمة (بيروت 1934)
هـ : طبعت آثاره مفردة ثم جمعت في "المجموعة الكاملة في 7 أجزاء. بيروت لبنان طبعات عديدة.

انسجام الجملة أو البيت في حين [203] أن آخرين كثيرين يستعملون كما يشاؤون أسلوباً خشناً متقطعاً مخالفاً تماماً لعبقريّة اللغة العربيّة.

وقد تكونت هنا وهناك نواد أدبيّة، "أبولو" "بمصر (أ) و"شعر" بـلبنان (ب) واعتمدت مجلات غزارتها قد آل بها الأمر إلى إدهاش القارئ. وقد تلزمنا مجلدات لنحصى ونحلل جميع هذه النشريات شدّ ما كان عدد الذين يعتقدون أنّهم اصحاب رسالة إلى الإنسانيّة عدداً كبيراً. وضمن هذه الكثرة شخصيات يعسر ذكرها دون أن نغضب الآخرين فالأحسن أن نترقب حكم الزمن.

إن الشعر، من حيث الفنّ، يغلب عليه الاضطراب ففي حين أن الهيكل الكلاسيكي هو في أغلب الأحيان محترم حتى في لبنان وهو يتنزل في الطليعة فإن شعراء شبّاناً، وهم يزعمون التعبير عن قلق البشريّة ونبذ جميع القيود، يصرون على أن تكون ثورتهم ثورة شاملة إنهم، وهم يتحرّرون من جميع القوالب قد بلغ بهم الأمر إلى أن نبذوا القافية والإيقاع بل والشعر الحرّ وسعوا فحسب إلى انسجام الأصوات فمحاولات المدرسة الأمريكيّة القديمة الجريئة قد وقع بالتالي تجاوزها أيّما تجاوز بلا فائدة تذكر على ما يبدو.

السّجع

إن السّجع، وقد اعتبر وسطاً بين الشعر والنثر والمرسل، لاقى في القرن XIX بعض الأنصار من بين الكتّاب الولوعين بفصيح الكلام والصنعة لكن يبدو أنه قد قام ناعيه.

أ - أصدر هذا النادي مجلة أبولو صدرت شهرياً من 1932 إلى 1934 بمصر وكان رئيس تحريرها الشاعر أحمد زكي أبو شادي

ب - أصدر هذا النادي مجلة شعر أصدرها بانتظام من 1957 إلى 1959 يوسف الخال ثم صدر منها بعض الأعداد الأخرى ثم توقفت.

إنّ ناصيف اليازجي (1800 - 1871) أدّت به جهوده في تخليص العربية مما علق بها من صدى منذ عصور الانحطاط، إلى استعمالها في أفصح صورة. وقد رأى أنّ أكثر الفنون الأدبيّة ملائمة لعمله في الدفاع عن اللغة العربيّة هو بالإضافة إلى الشعر- بطبيعة الحال السجع والمقامة فألف ستّين مقامة جمعها بعنوان مجمع البحرين^[204] (أ) وقد تعاطي كذلك فنّ المقامة دون أن يخضع للنشر المسجوع خضوعاً مستمراً لبناني آخر هو فارس الشدياق (1804-1887) وهو علم من أعلام الانبيعات عمل مدّة محرراً بالرائد الرسمي المصريّ ثم أقام بعد ذلك بمالطة وفرنسا ولندن وسجّل ملاحظات جمعها في مقالتين ثم أعاد كتابتهما في كتابه الساق على الساق ونشره بباريس سنة 1855 (ب) وهو: «نقد لا يكاد يخفى عبّر فيه عما تركته في نفسه من أحقاد قيود صباه» (هنري بيراز) نقد لمجتمع الشرق الأدنى تأثر فيه الكاتب برابلي (ج) وكانت له أحيانا شراسته.

وقد ألف كذلك كتاب آخرون في القرن XIX مقامات لم تكن ذات قيمة كبرى وخاصّة العراقي محمود الألوسي (1803-1853) (د) والمصري عبد الله باشا فكري (1834-1889) (هـ) غير أنّ أهمّ المحاولات وأنجحها هي التي قام بها في

أ - طبعت لأول مرة سنة 1856 وانظر عنها مثلاً مقال أحمد عبد السلام مجلة المباحث التونسية سنة 1946

(وقد أعاد نشره في كتابه استكشاف السبل تونس 1982)

ب- انظر عنه مثلاً مقال أحمد عبد السلام السابق الذكر.

ج - الكاتب الفرنسي (1494 - 1553) ألف عدّة روايات من أشهرها ينتقروال (1532) وقرقنتويا (1534).

د - المشهور بالشهاب الألوسي ومن تأليفه 5 مقامات بدون راو وبدون بطل تضمّنت بعض المعطيات عن حياته وبعض النصائح إلى أبنائه وقد طبعت طبعاً حجرًا بـكريلاء سنة 1273 / 1856 .

هـ - ضمن أعماله "الآثار الفكرية" (بولاق 1315 / 1897) توجد عدّة مقامات وقد نشرت إحدى مقاماته : "المقامة الفكرية في المملكة الباطنية" بالقاهرة سنة 1289 / 1872).

مطلع قرننا محمد المويلحي (1868-1930) وقد حاول إحياء هذا الفن في كتابه "حديث عيسى بن هشام" (1) واقتبس اسم الراوي فيه من مقامات الهمذاني. «ولقد صور فيه الصراع الادبي بين جيل النصف الثاني من القرن XIX وجيل بداية القرن XX وكذلك مشاغل المجتمع المصري الاساسية في الميدان السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي في صدق بين وبطريقة تعليمية حيناً وأحياناً في دقة تذكر ببالزك (أ) وفلوبير (ب)» (هنري بيراز) ولهذا الأثر قيمة خاصة لأنه أول أثر أدبي جليل في القرن XX وهو أيضاً على ما يبدو آخر انموذج لفن المقامة ولعلنا نستطيع أن نقول إنه آخر أثر رائع في الأدب الكلاسيكي وعلينا مع هذا أن نلاحظ أن السجع لم يستعمل في كامل الكتاب حتى إننا نتبين في حديث عيسى بن هشام الحد [205] الفاصل فصلاً واضحاً بين المقامة والرواية الحديثة.

والى النشر المرسل سيلجأ الكتاب العرب من ذلك الحين فصاعداً لا دون أن ينمقوا أسلوبهم ببعض الفواصل وشيء من الجناس تبعث فيه من رائحة

1 - انظر : هـ. بيراز: أصول رواية شهيرة من الأدب العربي: ... بمجلة المعهد الفرنسي بدمشق مجلد X سنتي 1943 - 1944) [وقد طبع كتاب حديث عيسى بن هشام طبعات عديدة بالشرق (انظر عنها مقال هـ. بيراز وطبع بتونس ضمن سلسلة عيون المعاصرة سنة 1984 مع تقديم لمحمود طرشونة وكنا ننتظر طبعة أفضل محققة مشروحة مفهومة وإن الدراسات عن هذا الكتاب كثيرة جداً نوصي من بينها باثنتين: مقال أحمد عبد السلام بمجلة المباحث التونسية سنة 1946 وقد أعاد نشره في كتاب استكشاف "السبل" تونس الدار العربية للكتاب 1982 وكتاب رشيد ثابت الهنية القصصية ومدلولها الاجتماعي في حديث عيسى بن هشام تونس 1975
أ - بلزك: الكاتب الفرنسي (1799 - 1850) ألف ما يقارب 95 رواية صُنِّفَت بعنوان : دراسات اجتماعية ثم بداية من 1841 بعنوان "الملهاة الانسانية"
ب - فلوبار: الكاتب الفرنسي (1821 - 1880) ألف عدة روايات من أشهرها "سلام بر" (1862) والسيدة بوفاري (1857) والتربية العاطفية (1869).

القديم شذا ليس البتة كريها وإن من أكثر الكتاب استعمالا لهذه الالوان اللطيفة من الصنعة هو بلا شك محمد كرد علي (1876-1953) وهو دمشقي غزير الانتاج كان في الآن نفسه صحفيا وناشرا للنصوص القديمة وناقدا أدبيا ورخالة ومؤرخا وفق إلى نشر مذكرات مفيدة سنة 1948 وهو فن لم يعرفه الأدب القديم الا نادرا ولقد قص علينا في كتابه «غرائب الغرب» (أ) ما شاهده في رحلاته بأوريا همّه من ذلك إفادة مواطنيه أما كتابه «خطط الشام» فهو تاريخ لدمشق ضخّم في ستة أجزاء لخصّ المصادر القديمة ونظمها ولا يمكن أن لا يذكر محمد كرد علي من بعض الوجوه بابن قتيبة فقد دافع، وهو مثله من أصل غير عربي، عن الثقافة العربية غير أنه قبل في اتزان وذكاء العناصر الاجنبية الثرية قصد التأليف بينها تأليفا متناسقا.

النشر المرسل

هذا العمل التألفي المرجو إنما سيتحقّق في النشر المرسل ويمكن القول إن الانبعاث الحديث هو بعد ثار للنشر من أساليب التعبير الأخرى ، إن التنقية التي شرع فيها اليازجي وواصلها ابنه ابراهيم ويطرس البستاني (1819 - 1883) وقد لعب دورا هاماً بفضل معجميه وجرائده ودائرة معارفه هذه الانتقاء الضروري لإعادة بناء أدب، لم يكن في الجملة الا عملا تحضيرياً أي مهمة سلبية كان لابد ان تشفع بعمل بناء : إثراء اللغة من ناحية وخلق فنون جديدة من ناحية اخرى.

[206] وفي هذا الميدان فإلى الغرب يرجع الفضل في تسهيل تغيير اتجاه الأدب النثري، ومرة أخرى فإن الحركة تنشأ ببلبنان في حين أن مصر لم تشارك فيها مباشرة الا منذ بداية القرن XX أما طيلة كامل القرن XIX فعلا فان مصر كانت خاصة منشغلة بقضايا سياسية ومشاكل مادية تطرق في الصحافة الناشئة وفي مؤلفات مستلهمة من الغرب. إن نهاية القرن XIX يسيطر عليها جمال

الدين الافغاني (1838 - 1897) وقد وسم بطابعه الحركة الفكرية ، فهذا الشخص وهو في الآن نفسه فيلسوف وكاتب وخطيب وصحافي قد كانت غايته الأساسية أن يقاوم التأثير الغربي وأن يقدم للدول العربية أسلحة تقود بها هذه المقاومة بصفة مجدية في الميدان السياسي والاجتماعي وأن يعيد اخيرا بناء الامبراطورية الاسلامية وهذا المثل الأعلى وقد كرّس له كامل حياته هو أساسا ديني. ومن ثمة فإنّ الأفغاني ساهم في أن يحافظ في الشرق على سيطرة الفكر الديني فقد سافر عديد المرات ناشرا آراءه باللسان وبالقلم مجتهدا في إذكاء الشّعور القومي والحصول على إصلاحات خصبة. وقد حلل في جرائد العاصمة^[الفرنسية] أثناء مدة قضاها بباريس آراءه عن سياسة الامم الاوربية ثم جادل "رينان"^(أ) وقد كان أنكر انتاجية الاسلام العلمية بل إنه أسس جريدة عربية^(ب) قاومت عمل انقلازا وإن حياته المضطربة والمقالات العديدة التي نشرها في العديد من الجرائد وايمانه القوي خدمة لقضية كبرى كل هذا قد جعل من جمال الدين الافغاني الشخصية الأغرب وواحدة من الأكثر استقطابا للعناية في القرن XIX إلا أن دوده الشخصي في تطوير الادب دور ضعيف⁽¹⁾ وقد كان له تلميذا وخلفا محمد عبده (1849- 1905)^[207] إنه وهو أزهرى، ومن ثمة محافظ، قد اندفع بفضل الافغاني في كفاح سياسي جعل منه خصم الأوساط المحافظة وبينما كان شيخه يرى النجاة في ثورة دعا هو إلى إصلاحات

أ - ارناست رينان (كاتب فرنسي 1813 - 1892) كان ألقى بالصرخون يوم 19 مارس 1883 محاضرة عن "الاسلام والعلم" وقد جادله جمال الدين الافغاني في مقال نشر يوم 18 ماي 1883 بجريدة المناقشات الصادرة بباريس.

ب - العروة الوثقى وقد صدرت بباريس العدد الأول يوم 15 جمادى 1301 / 13 مارس 1884 والعدد والأخير يوم 16 ذي الحجة 1301 - 17 أكتوبر 1884 .

1 - كتابه: الرد على الدهريين وقد كتب بالفارسية ترجمه إلى العربية الشيخ عبده وقد ترجمته إلى الفرنسية أ. م. قراشون. باريس 1942

مرحليّة وبصفة أدقّ إلى تطوير تعليم مسابر للعصر وتجديد اللّغة العربيّة والرجوع إلى دين السلف وإرساء الديمقراطية. ثمّ أنّه، وهو في الان نفسه خصم للتأثير الأوربي والاستبداد المحلي، قد مجّد وطنيّة العرب غير أنّه يوصي، مع المحافظة على معاني الاسلام الاساسيّة، بأخذ ما صلح من الحضارة الغربيّة. فهو أساسا متفتّح إلى الآراء الجديدة يرجو التقدّم في إطار إصلاحات تدريجيّة . وهو، بالاضافة إلى مقالاته العديدة ، قد ترك لنا رسالة عن الدين الاسلامي (رسالة التوحيد (1) وتفسيرا للقرآن لم يتمّه ، وشرحا لمقامات الهمداني ومؤلفات اخرى أقلّ قيمة وقد واصل عمله تلميذه رشيد رضا (م 1935) وكان زعيم الحركة الاصلاحية السلفيّة(أ)، وقد نشر جميع كتاباته في مجلته الشهيرة : المنار (2).

ولا يمكن إلا أن نشير إلى هذه الاهتمامات إذا أردنا ان نتتبع تطور الادب العربي الحديث حيث البحث عن توازن قار هو الغاية الاساسيّة غير ان هذه المؤلفات التي تصدر عن قلم هؤلاء المناضلين وهؤلاء المفكرين وهؤلاء الصحافيين لا قيمة لها إلا في المعاني المعبر عنها فيها : وهي لما تعد تنتسب إلى الادب المحض فلو لا اهتمامنا بأن نكشف باسرع ما يكون الخطوط الكبرى لادب عربي اللغة يبتعد ايما ابتعاد عن الماضي ليقترّب من الاثار الغربيّة لكننا مضطرين اضطرارا إلى التوسع اكثر في هذه الكتابات التي تذكّر باكثر من [208] صفة بعدد عديد من آثار القرون الوسطى غير أنّه اليوم يمكننا دون مانع

1 - هذا الكتاب الذي يعود تاريخه إلى 1897 قد ترجمه إلى الفرنسية د. ميشال وم. عبد الرزاق باريس 1925.
أ - عن الحركة السلفيّة انظر مقال هنري لاووست حركة الاصلاح السني للسلفية وخصائص العامة لاتجاهها الحالي وقد نشره بالفرنسية سنة 1932 بالقسم الثاني من المجلد الرابع من مجلة الدراسات الاسلامية وأعيد نشره بكتابة التعددية في الاسلام باريس 1983.

2 - انظر ه لاووست: الخلافة أو الإمامة العظمى في نظرية رشيد رضا بيروت 1938، ج جومبي: تفسير المنار باريس 1954 الملاحظ أن محمد عبده شرح الفاتحة والبقرة وآل عمران وبعض سورة النساء وواصل رشيد رضا تفسير سورة النساء ثم المائدة والأنعام والأعراف والتوبة ويونس وهود ويوسف. وقد نشر التفسير تباعا بمجلة المنار التي أسسها رشيد رضا بمصر سنة 1898 ثم جمع في مجلد واحد.

خطير أن نسكت عنها إذ أنه لدينا فعلا أدب لا يخضع ظاهرياً لأي اهتمام سياسي أو ديني.

ان الحدث الذي جاء ووقر للمصريين فرصة إنشائه له مع ذلك صبغة سياسية بقدر ما هي ادبية إذ تمثل في نشر ترجمة زغلول باشا سنة 1899 كتاب آدمون ديمولين: "سر تقدم الانقليز السكسونيين". ومعروفة هي المنافسات التي كانت قد جعلت فرنسا وانقلترا تتصادمان بمصر فان دراسة ديمولين جاءت إذن في الإبان لتبين للمصريين المترددين المتحيرين أن فرنسا التي كم كانوا يعجبون بها ويقلدون لها كانت تعترف بتفوق الانقليز السكسونيين ولم يكن يجب أكثر من ذلك لتنطلق فوراً في مصر محاسبة للنفس وبحث يتفاوت صدقا عن أسباب ضعف العالم العربي فشرح بعض الكتاب في بلدانهم في أبحاث كانت منطلق رواية تحليل العادات والرواية الاجتماعية وفي الأثناء فإن الرواية التاريخية، وقد كانت نشأت في لبنان، كانت تواصل تطورها في حين كانت الصحافة تساعد على إشعاع الأقصوصة وإن المسرح، وهو لا يزال يبحث عن نفسه، كان يتميز ويتخذ صورة هي مؤقتاً مقبولة.

الرواية والاقصوصة

إن الرواية التاريخية، وقد تعاطاها الكتاب لغاية تعليمية، قد ظهرت هي الاولى. وقد ألف اللبناني جميل مدور (1862 - 1907) سنة 1888 رواية عن عصر هارون الرشيد (أ) مستلهما مغامرات تيليماك (ب) ورحلة الشاب

أ - اشتهر جميل مدور بكتابه "حضارة الاسلام في دار السلام" وصف فيه الدولة العباسية ابان ازدهارها من خلال رسائل على لسان وحالة فارسي لقي الخليفين المهدي والرشيد وقد طبع الكتاب ط1 1888 وط3 1932 بالقاهرة وان بعضهم قد شكك في نسبة هذا الكتاب إلى جميل المدور.

ب - رواية تعليمية ألفها الكاتب الفرنسي فينولون (1651 - 1715) مستلهما الملحمة اليونانية "الأوديسه" وقص فيها في نشر شعري رحلات تليماك للبحث عن أبيه أوليس.

أناكرزيس (أ) باليونان. وقد بلغ هذا الفن أوجه مع جرجي زيدان (ب) (1861 - 1914) فقد حصل هذا اللبناني معارف جمّة وقام بعمل [209] تعميمي مستقيا من المصادر العربية والاوربية وذلك بصورة ربما لا تخلو من التسرع وإن مؤلفاته في التاريخ والحضارة والأدب واللغة العربية لا يستهان بها ولا يزال يمكننا أن نعود إليها فنستفيد ولكن الأغلب أنه يوفق أحسن توفيق في جلب اهتمامنا بالرواية التاريخية ومؤلفاته في هذا الميدان قسمان: فالتاريخ الحديث أوحى إليه بموضوع روايات خصصها لمحمد علي وعرابي باشا والثورة التركية سنة 1908 (الانقلاب العثماني 1911) (1) وأوحى إليه من جهة أخرى تاريخ القرون الوسطى والفتوحات الإسلامية وهارون الرشيد والبرامكة (2) بعدة روايات قيّمة ولقد سيطرت الاهتمامات العلمية والتعليمية طول تلك المدة على الرواية التاريخية بل ويمكن أن نتساءل إلى أي حدّ لم تعد تسيطر؟ وقد عرّب فرح انطون (1874 - 1922) «حياة عيسى» (ج) لرينان " ثم بول وفرجني (د) وألف بدوره "القرشليين الجديدة" ونهج نهجه بسوريا الدمشقيّ معروف الأرنؤوط (1885 - 1893 [1948 - 1948]) وقد استلهم عصور الإسلام الاولى لتأليف روايتين تاريخيتين(هـ) عن النبي والخليفة عمر في لغة متكلفة عسيرة لما فيها من إفراط في النعوت لا يتصور وقد كان من الطبيعي ان تستقي الرواية التاريخية مواضيعها من تاريخ الاسلام . والاغلب انّ الترجمات لم تكن لتلقى نجاحا عظيما لدى القراء وهم لا يعتنون الاّ عناية ضئيلة بتاريخ الامم الاخرى. والأمر على خلاف ذلك في الفنون الأخرى وقد غزت المكتبة العربية ترجمات لآثار مؤلفين هم خاصة من الفرنسيين وقد أحصاها هنري بيراز في قائمة هي جدّ مفيدة(3)

أ - هذا الكتاب من تأليف القسّ الفرنسي ج. ج. بارتيليمي (1717 - 1795) وهو رحلة خيالية إلى اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد .

ب - انظر عن جرجي زيدان : حياته ومؤلفاته ص ص 283 - 285 من الجزء ٤ من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية دار الهلال د . ت . وقد راجع الطبعة وعلّق عليها شوقي ضيف وقد ترجم لجرجي زيدان وذكر ص 283 مجموعة من الكتب المؤلفة عنه.

١ - نقلها إلى الفرنسية م. بيطار وت. صاندر باريس 1924 .

2 - العباسة أخت الرشيد: نقلها إلى الفرنسية م. بيطار وش مولبي (مع تقديم بقلم ك. فرّا) باريس 1912 .

ج- ألّف الكاتب الفرنسي رينان (1823-1892) حياة عيسى سنة 1863 وعرّبه فرح انطون بعنوان تاريخ المسيح.

د- رواية ألّفها الكاتب الفرنسي: برناردان دي سان بيار (1737-1814)

هـ - سيد قرش في ٣ أجزاء وعمر الخطاب في جزأين

3- الرواية والقصة والاقصوصة في الأدب العربي الحديث بحوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر III / 1937.

[210] وتتواصل هذه الحركة إلى عهدنا غير أن المترجمين قد أجروا اختياراً أدق وأكثر تنوعاً مقتصرين بصورة عامة على إثراء الأدب العربي بآثار لها قيمة عالمية. وذوق المواظبين على المطالعة قد بدأ فعلاً يتكوّن منذ أن وضعت بالمشرق رواية عربية خالصة. وقد ظهرت بعد الترجمات المتفاوتة الأمانة ظاهرة الاقتباس من 1904 إلى 1918 مع المنفلوطي (1876-1924) وقد كيّف لقرائه شاتوبريان (أ) -و- الاسكندر دوما. (ب) والفونس كار (ج) وبارنارد دين دي سان بيار. (د) وفرنسوا كوبي (هـ) فاخترع أسلوباً جديداً بالإفراط في استعمال صور مجازية طرب لها أيّما طرب جيل كامل من شباب العرب وإن المنفلوطي بأسلوبه ذي الصور المجازية والثراء المحتفظ بصيغة شعرية لكن المشرب بشيء من البكائية في كتاب مثل العبرات والنظرات (و) يقترب من المدرسة السّوريّة الأمريكيّة تلك التي ترك لنا أجلاً ممثليها جبران خليل جبران (1883-1931) مجموعة من القصص والروايات والدراسات الاجتماعيّة هي أحياناً كثيرة نقد لاذع للمجتمع اللبناني. وإن هذين الكاتبين وقد اعتبرهما العالم العربي بأسره مدّة طويلة عبقرين وأعجب بهما هما اليوم يتقلّصان أمام الجيل الجديد من الروائيين والقصاصين.

وفي سنة 1914 نشر محمد حسين هيكل (1888-1956) رواية في أخلاق الريفيّين تمثّل حدثاً غيرأنها لم يؤه لها وقتها. على أن المؤلف قد نشر تحت اسم مستعار كتابه - زينب - حيث حاول أن يصوّر في صدق وواقعية الرّيف المصريّ وذلك كما قال "خشية ما قد تجني صفة الكاتب القصصيّ على صيت المحامي" ونتبيّن من هنا كلّ ما كان يصطدم به الروائيون الأوّل من عراقيل

أ- الكاتب الفرنسي (1768-1848)

ب- الكاتب الفرنسي (1824-1895)

ج- الكاتب الفرنسي (1808-1890) ترجم له كتاب تحت ظلال الزيزفون ط 1919.

د- الكاتب الفرنسي (1737 - 1814) ترجم له قصّة "بول وفرجني بعنوان الفضيلة.

هـ - فرنسوا كوبي (1842 - 1908) ترجم له رواية في سبيل التاج (ط 1920)

و - النظرات مجموع مقالاته بجريدة المؤيّد ط 1910، والعبرات ط 1915.

اجتماعية. وآثار هيكل الأخرى: ولدي (1932) وهكذا خلقت (1955) أكثر سذاجة ولاقت وخاصة الأخير منها نجاحاً أقل بكثير ممّا لقيته روايات أكثر عصريّة وأمّا حافظ إبراهيم (1872-1932) فهو من جهته منشيء الرواية الأخلاقية بكتابه - ليالي سطوح - حيث طرق^[211] نفس المشاكل التي طرقها فكتور هوغو (أ) في "البؤساء".

وإنّ الرواية بعد ما لاقت في البداية من صعوبات وبعد مرحلة الترجمة والافتباس قد ازدهرت ونمت نمواً عظيماً وقد يكون من الإطالة والإملال أن نذكر أسماء جميع الذين هم بالشرق يكتبون الآن روايات وقصصاً فهذا اللون الأدبي الأخير رائع الآن راجعاً إذ هو لا يقتضي من القارئ غير انتباه قصير المدى كما أنه يمكن المؤلفين من أن ينشروا بسهولة ما يكتبونه في النشريات الدورية العديدة التي تصدر بالشرق الأدنى وأمريكا. ومنظر القصة هو محمد تيمور (1892-1921) وقد كتب لوحات واقعية من الحياة الاجتماعية العصرية إلا أنّ موته المبكر قد حال دون إتمام إنتاج جدّ واعد وقد نحا منحاه عيسى عبيد مصوّر حياة سكان الدلتا القرويين والطبقات الحضرية الثرية وخاصة أخوه محمود تيمور (1894) وهو يحتل المرتبة الأولى بين الكتاب المعاصرين مع المازني (1890-1949) وتوفيق الحكيم (1898-1988^[1]) وطه حسين (1889-1973)

ويقترّب المازني بسخريته من القصّاص الانقلو-أمريكان من أمثال مارك توين (ب) وهو يعتني بتصوير جميع طبقات المجتمع وقد حقّق محمود تيمور

أ- الشاعر الفرنسي (1802-1885) وقد عرّب له حافظ رواية البؤساء وهي المعنية بالأمر.

ب- الكاتب الأمريكي (1835-1910) صوّر في كتابه "مغامرات طوم ساريار" مناظر الولايات المتحدة وتقاليدها في أسلوب خفيف.

الملقب بموسان(أ) المصري آمال أخيه وقد كان يرغب في مقاومة تقليد النماذج الغربية تقليدا أعمى لخلق أدب واقعي مصري صرف نعم إنه يمكننا أن نعيب على هذا الاتجاه الجديد - ولم يتخلف النقاد عن ذلك البتة - واقعية صارخة وميلا مفرطا إلى تصوير الطبقات الاجتماعية الوضيعة غير أنه يمكننا أن نجد في ذلك لونا محليا يميز طرافة الانتاج المصري وقد كتب محمود تيمور، في أسلوب بسيط رصين مجرد من جميع مظاهر التصنع المعهودة، قصصا استوحاها من الحياة اليومية وتقاليد بلاده ، بخلق نماذج من الشخصيات على درجة عالية من السخرية وحب الشهوات وفساد الاخلاق وبصورة خاصة النساء وقد بقين شأنهن في جميع القصص العربية^[212] محتالات متعنّات هن دائما يتحينّ خيانة ممكنة. (1) أما توفيق الحكيم، وهو كاتب مسرحي، وروائي فهو احد الكتاب العرب المعاصرين الاكثر شهرة بفرنسا. ورواياته عن مصر المعاصرة وكذلك عن مواضيع دينية اجتماعية "تعبّر عن ارتسامية تنبض حياة تغري على حدّ سواء الجمهور الشرقي والجمهور الغربي" : (هـ.بيراز) ولغته ممتعة وان كان استعماله الدارجة في بعض المقاطع من شأنه أن يحدّ من إشعاع إنتاجه. (2)

ثم أنّ طه حسين هو من بين الكتاب العرب أشدهم تأثيرا في النفوس إنّه، وقد عمي منذ صباه المبكر، قد درس مع ذلك دراسة تقليدية بالأزهر ثم أقام بفرنسا حيث أعدّ أطروحة عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ثم سعى، بعد أن

أ - الكاتب الفرنسي 1850 - 1893

1 - الأعمال المترجمة إلى الفرنسية : مجموع حكايات وأقاصيص بعنوان غراميات سامي متبوعة بعشر أقاصيص مصرية باريس 1938، سمسار الموت وأقاصيص مصرية أخرى باريس 1951.

2 - آثاره المترجمة إلى الفرنسية : عودة الروح نقل خضري وموريك باريس 1937؛ يوميات نائب في الأرياف . نقل ق. قيات وزكي محمد حسن في مجلة القاهرة 1939 .

عاد إلى مصر، إلى التعريف بطرق النقد الحديثة وحاول أن يوسّع أفق مواطنيه المحدود بجلبهم إلى دراسة الآداب الكلاسيكية. ودراساته في النقد، وسنعود إلى الحديث عنها، ومهامه بصفته استاذاً فعميداً فوزيراً (شغل منصب وزير التعليم) قد سمحت له بأن يساهم شخصياً في الحركة الأدبية وأن يؤلف بالإضافة إلى ترجمة ذاتية جدّ مؤثرة ، عدة روايات ورحلات(1).

ومصريون كذلك هم أعلام الرواية المعاصرة وهي رواية واقعية فيها أبداع نجيب محفوظ^[213] (1912-) بثلاثيته وقد أصبحت بعد مشهورة وقد أخذت عناوينها من بعض أحياء القاهرة - بين القصرين- قصر الشوق - السكرية) فهو من خلال شخصيات نموذجية قد عبّر في أسلوب بسيط ودقيق عن مصائب مصر والعالم العربي ومشاكلهما.

وقد يكون من الظلم أن نحذف من هذه النظرة السريعة كل الأدب النسائي الذي ازدهر ونما بالانطلاق من فكرة أنّ المرأة المسلمة يجب ان تتحصّل في مجتمع حديث على تحرّر يتماشى مع قواعد الأخلاق التقليدية ويوافق ما على الامهات من واجبات في تربية الاجيال الجديدة . ورائد تحرير المرأة ، قاسم امين (1865-1908)، قد كافح من اجل إزالة الحجاب. وسرعان ما تبعه نساء كنّ تحررن

1 - آثاره المترجمة إلى الفرنسية: الترجمة الدانية: الأيام ج 5 نقله ج لوسرف باريس ج II نقله قاسطون فيات القاهرة 1942 ، شجرة اليوس نقلها ق. فيات في مجلة القاهرة 1940 - 1947 ، دعاء الكروان نقله (فرنسيس باريس 1950. ¹عن آثاره ذه حسين وما ألف عن انتاجه من دراسات انظر: مجلة الطليعة العدد الأول السنة العاشرة يناير (جانفي) 1974 ومجلة الأدب العربي (جامعة كليفرنيا) المجلد السادس (1975) وخاصة مجلة فكر: سنة 1989: طه حسين وتاريخه مع العلم.

بعد، مسيحيات خاصة ثم مسلمات قد ساهمن مساهمة نشيطة في الحركة ونشرن عددا عديدا من الفصول والبيانات في جرائد وفي مجلات مناصرة للمرأة بلغن حتى رئاسة إدارتها. وموضوع هذه الكتابات الاساسي هو طبعاً المرأة ودورها الاجتماعي. فملك حفني ناصف (أ) (1886-1918) وهدي شعراوي (ب) (1882-1947) هما أبرز المناضلات وأشدهن نشاطاً. وعديدات هن من ناحية أخرى المثقفات الشابات اللواتي ساهمن في حساسية نسائية محض في الحياة الأدبية لهن في ذلك أحيانا اشتغالات تربوية واجتماعية وأحيانا لمجرد التعبير عن عواطفهن وخواطرهن. ويكون من المفيد أن نجرى تحقيقاً عميقاً في هذا الميدان لنرى هل أن النساء يستطعن من جانبهن أن يشرين الادب الحديث وان يكون ذوق القراء وان النتائج التي تحصلت عليها تلك التي لم تزل إلى عهد قريب أشهر هؤلاء الأدبيات المسيحية مي (زيادة) (ج) (1895-1941) تسمح لنا بجميع الآمال أن مي وقد تشقت ثقافة عربية وفرنسية وانجليزية- نشرت ديوان شعر بالفرنسية وترجمت بتصرف روايات أوربية وألفت في اللغة العربية آثاراً طريفة قدمت فيها نغماً مؤثراً من الكآبة المضطربة [214] والحيرة الفلسفية " (هـ.. بيراز) وأقرب إلينا الشاعرة العراقية نازك الملائكة (د) (1923) وهي تثنى أنات ألم على مصير المرأة في " عاشقة الليل" (1947) وخمس أغان للألم (1957) .

-
- أ - الملقبة بباحثة البادية جمع مجد الدين ناصف جميع مقالاتها وخطبها ومحاضراتها ونشرها بالقاهرة سنة 1962.
- ب - قادت حركة تحرير المرأة وأسست سنة 1923 الاتحاد النسائي بمصر وأصدرت مجلة المصرية.
- ج- مي زيادة: طبعت أعمالها الكاملة سنة 1987 تحقيق سلمي الحفار الكزيري في جزأين وطبعت بعض مقالاتها المنشورة ببعض الدوريات بين 1911 و 1938 بتحقيق جوزيف زيدان : تقديم غادة السمان نشر المجمع الثقافي في أبو ظبي 1996 .
- د - جمعت مختلف دواوينها في ديوان نازك الملائكة بيروت 1979 ولها خاصة كتاب قضايا الشعر المعاصر ط 1 بيروت 1962.

النقد الأدبي

إن أغلب الكتاب هم أيضا من النقاد وقد حاول علنا بعض المنظرين وذلك لأول مرة في تاريخ الأدب العربي أن يوجهوا نشاط رجال الأدب فلم يقتصر الأمر على أن يقدم بالدوريات الأدبية كل كتاب جديد يصدر بل أن الروايات ومجموعات القصص والاقاصيص كذلك كثيرا ما يقدم لها بمقدمة يحاول فيها الكاتب تحديد القواعد الواجب اتباعها في هذا الفن الأدبي أو ذاك . وإنه لنقد جدّي وبناء مداره الحاضر والمستقبل في حين يخضع عدد من الشبان المثقفين متأثرين بالطرق الأوروبية التي تعلموها بالجامعات الغربية آثار الماضي الجليلة إلى دراسة كثيرا ما كانت دقيقة موفقة.

فالعقاد (1889-1964) (أ)، وقد تشقّف ثقافة عربية وانجليزية، شاعر مرموق وروائي وناقد نشر خواطر عن مطالعاته وبحوثا مفردة عن مؤلفين قدامى ودراسات عديدة عن الشعر وقد سعى، وهو منظر، إلى تجديد الشعر العربي وتحقيقا لهذه الغاية اقترح اتباع نماذج انجليزية عوض نماذج فرنسية. ويمثل الروائي المازني (1890-1949) نفس الاتجاه "الحديث" شأن العقاد وقد أصدر معه كتابا في نقد الشعر (ب) وقد نال الأدب العربي القديم نصيبا وافرا من اهتمامات أحمد ضيف فهو بالاضافة الي اطروحته لشهادة الدكتوراه عن النزعة

أ- عن مؤلفات العقاد "انظر عبد الستار عبد الحق الخلو في مطبعة دار الكتب القاهرة 1964.

ب - المقصود الديوان وقد نشره سنة 1921 وهو في الحقيقة بداية مشروع كتاب في النقد في عشرة أجزاء إلا أنهما اقتصرنا على نقد شوقي والمنفلوطي وعبد الرحمان شكري وانظر عن المازني مثلا كتاب نعمات أحمد فؤاد أدب المازني القاهرة 1961.

الغنائية والنقد الادبي عند العرب (باريس 1917) (أ)، قد درس المؤلفين الاندلسيين ووضع مقدمة للادب وقد أعاد زكي مبارك (1891) في اللغة العربية كتابة أطروحته عن النثر العربي في القرن الرابع (باريس 1931) ودرس التصوف كما درس عدد كبيراً من الشعراء القدامى. وقد قام أحمد أمين (1887-1957) [215]، مصيباً في ذلك كل الاصابة، بدراسة تطوّر الثقافة العربية دراسة نقدية (ب). واشتهر الزيات (ج) (1885-1968) ببعض الترجمات وبمجلة أدبية من طراز عال هي "الرسالة" ويتاريخ للأدب العربي يستحق ما لقيه من نجاح.

غير أنه لبيدو أنّ حركة النقد الادبي وقد عرفت ايضاً بعض من يمثل الاتجاه الارتسامي القديم لا تزال يوجّهها طه حسين (1889-1973) وقد اشتهر سنة 1926 بدراسة شكّ فيها في صحّة الشعر الجاهلي وقد أثارت تلك الدراسة عاصفة من المعارضات وأحدثت ردود فعل من قبل المحافظين وكان أن راجعها صاحبها وحدّ منها في كتاب ثان ظهر في السنة الموالية.

ويذكر كتابه حديث الاربعاء "بسانت باف" (د) إلا أن طه حسين أساساً ذو تفكير ديكارتي (هـ) وهو لهذا اقرب إلى عقليتنا [الفرنسية] من أي كاتب آخر وقد كتبت آثاره النقدية وهي غزيرة جداً في لغة سهلة بيّنة ومتناسقة. وطه حسين هو خاصة معمم وكاتب ذو أسلوب متميّز وهو بهذا الاعتبار قد لعب دوراً من الدرجة الاولى في الانبعاث الحديث.

-
- أ- عن مؤلفات أحمد ضيف انظر كتاب علي شلش: أحمد ضيف نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1992.
- ب - المقصود كتب أحمد أمين فجر الاسلام القاهرة 1928 ضحى الاسلام القاهرة 1933 - 1936 وظهر الاسلام القاهرة 1945 - 1953 ثم تعددت طبعاتها .
- ج - المقصود تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا وقد طبع عشرات التراث منذ ط 26 دار الثقافة بيروت د.
- د- الكاتب والناقد الفرنسي (1806 - 1869) وله جملة فصول نقدية بعنوان أحاديث الاثنين
- هـ - تفكير ديكارتي: نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي أر الأوربي ديكارت (1525 - 1650).

التاريخ والجغرافيا

انه لمن الواضح ان التاريخ والجغرافيا -وقد تعرضنا اليهما في دراستنا العصور السابقة وكانا يمثلان مظهرًا من المظاهر الرئيسية للحركة الادبية - ينزعان في المرحلة الحالية إلى الانفصال عن الادب لدخول ميدان التقنية والتربية. غير انه قد سبق لنا ان ذكرنا تاريخ دمشق لكرد علي وتاريخ الحضارة العربية لجرجي زيدان ومؤلفات أحمد أمين وهم جميعهم يحاولون أن يعتمدوا في كتبهم طرق النقد التاريخي المتبعة بأوربا.

ومنذ مدة ليست بالبعيدة^[216] خصّص طه حسين كتابًا ضخماً للخليفة الراشد الثالث -عثمان- و سيرته وكم تجادلت الاقوام حولها في القرون الوسطى (أ).

ومن جهة أخرى فان فنّ الرحلة قد رَمّمه وبعث فيه الشباب وتعاطاه كتّاب عديدون وفي القرن XIX سافر إلى السودان محمد التونسي (1789-1857) وهو تونسي قد استقرّ بالقاهرة - واقام به مدة طويلة وألف عنه بطلب من الدكتور "برون" كتابين فيهما المعلومات الاولى عن هذه البلدان (1).

ومن بعده اعتبر رحّالون آخرون انه من الواجب الاكيد عليهم ان يبلغوا مواطنهم انطباعاتهم عن رحلاتهم في العالم.

أ - الفتنة الكبرى: جزآن ج 1: عثمان ط 1 : دار المعارف 1947 وج 1: علي وبنو ط 1 دار المعارف 1953 واعيد طبع الجزئين مرارا عديدة.

1- ترجمه الدكتور برّون: رحلة إلى الدرفور بقلم الشيخ محمد بن عمر التونسي القاهرة 1845 ثم رحلة إلى وادي بقلم الشيخ بارس 1851 (والتونسي هو الذي راجع تعريب كتب الطبيب الأوربية وكان يعمل تحت إشراف الدكتور برّون مدير مدرسة الطب).

ورحلة كرد علي. "غرائب الغرب" هي بهذا الاعتبار نموذجية. وقد ترك لنا كتاب آخرون عديدون وخاصة طه حسين كذلك "تسجيلات" لا تخلو من فائدة : فهي تساعدنا فعلا على ان نعرف أحكام العرب عن الشعوب التي صادف أن اتصلوا بها ومواقفهم من المظاهر الجديدة للحضارة الغربية(1).

الفقه والفلسفة

ان كتب التفسير والمؤلفات العديدة التي حررها المحافظون او المجددون وآثار الافغاني والشيخ عبده ورشيد رضا التي قد أشرنا اليها في بداية هذا الفصل تنتمي الي الفقه والفلسفة انتماءها إلى التاريخ او إلى (217) السياسة. وان رد مصطفى الرافعي (م 1937) نظرية طه حسين في الشعر الجاهلي يحمل عنوانا ذا مغزى : «تحت راية القرآن» (أ) وكتاب الاسلام واصول الحكم (2) لعلي عبد الرزاق وهو يدعو الي الفصل بين السلطة الدنيوية والسلطة الدينية يعتمد على معلومات دينية أكثر من اعتماده على معلومات سياسية. وعلينا وان كنا نفضل الاهتمام هنا بمظاهر الادب العربي العصرية حتى نبرز الخطوط الكبرى للتطور الجارى الا ننسى ان "الطريقة" القديمة لم تمت وان عدة كتاب يمضون كتبها ينشرونها يمكنها على حد سواء ان تكون كتبت في القرون الوسطى.

1 - انظر هـ. بيراز المسلمون بأوروبا في القرنين XIX و XX بمجموعة المقالات المهداة إلى مسبيرو ج III القاهرة 1935 .

أ - تحت راية القرآن طبع

2 - ترجمة إلى الفرنسية ليون برشي بمجلة الدراسات الاسلامية 1933 - 1934 . وقد طبع

فهذا التّضارب الحادّ بين المحافظين والمجدّدين وهذا التّعايش بين الماضي والحاضر هما - وهذا معلوم - احدى خصائص العالم العربي القارة.

الصّحافة

ان جميع هذه الحركات الفكرية سواء منها الادبية او الفلسفية أو، الدينية او السياسية قد ساعدها مساعدة قوية وجود صحافة هي بعد جدّ مزدهرة لها في الشرق دور اقوى مما هو عليه بأوربا ويوم 20 نوفمبر 1828 كان يوم صدور العدد الاول من نشريّة دوريّة (الوقائع المصرية) بالقاهرة وقد تأسّست تحت رعاية محمّد علي وقد ظلت هذه الجريدة الرسمية طيلة ما يقرب من ثلاثين عاما الجريدة الوحيدة باللغة العربية غير ان الصّحافة بعد صدور جريدة بيروت: حديقة الاخبار، لم تنفك تنشر وتزدهر في جميع البلاد العربية حتى انه يمكننا ان نعد آلاف من النشريات اختلفت^[218] مدّة قصر صدورها وانتشرت في جميع الجهات التي يعيش بها ناطقون بالعربية اي في جميع القارات.

ونحن إن اهلنا النشريات المحلية التي لا اهمية حقيقية لها وتلك النشريات التي تصدر حين يتمكن مديرها من الحصول على ما يكفي من اعلانات اشهارية ومساهمات رسمية بل على مقادير من المال تغتصب بالتهديد وقصرنا عنايتنا على الجرائد ذات المظهر الجدّي فانه لا يسعنا الا ان نندهش لغزارة ما يصدر بمكان واحد او بمدينة واحدة من الجرائد التي تظلّ على قيد الحياة بفضل جمهور لا يكاد يكفي لتبرير صدور الف نسخة او ثلاثة آلاف. وانه على العكس من ذلك يبدو لنا أنّ مستوى الصحافة بمصر حيث تنشر جرائد حقيقية يمكنها ان تنافس اعظم جرائدنا اليومية هو مستوى جدّ عال لكن احداثا قريبة العهد بينت

لنا ان اكثر الجرثه نزاهه واجدرها بالاحترام كانت قادرة بايعاز من اصحاب
غايات سياسيه دنيئه بعض الدناءه على التواطؤ مع بعض الدعايات المفرضه
وعلى نشر اغرب الاخبار.

غير ان الصحافه العربيه هي مع ذلك - لكثرة النشريات التي تتخذ اكثر
الاشكال تنوعا وغير ذلك - مدعوه ان تساهم مساهمة قويه في حركه التجديد
فهي بالاضافه الى دورها الاعلامي تساهم في خلق العربيه العصريه وتعميمها
وفي تبسيط المذاهب والآراء الجديده في جميع الميادين وفي تعليم القراء
وتكوين ملكة النقد عندهم. أضف إلى ذلك ان الكتاب يجدون في المجلات -
وهي في غالب الاحيان حسنة الطبع - اعمدة واسعة لنشر اقاصيصهم
ومقالاتهم.

[219] المسرح العربي (1)

إنَّ الرِّوَايةَ والقِصَّةَ والاقصوصة هي في الادب الحديث ابداعات مهد لها تقليد الغرب غير اننا لم نكن نعدمها في صورة مخالفة منذ القرون الوسطى. وليس الامر كذلك بالنسبة إلى المسرح وهو مستورد كلياً من الخارج . غير ان القصّاص الشعبيين والمهرّجين والحركاتيين لم يكونوا يقتصرون دائماً على ان يسردوا مفردة حكاياتهم بل كانوا احياناً يعملون في اطار مسرحي . ومن جهة اخرى فان المقامة تتضمن جميع عناصر التمثيلية لكن لم يبلغ اي فن من هذه الفنون غاية تطوره. غير ان فناً آخر ، وقد كان في الغرب منطلق المسرح الحديث ، قد تطور في بلاد الاسلام : نعني حكاية آلام (أ) الامام الحسين ، ابن الخليفة علي ، وقد انتجت في فارس ضرباً من المسرح الغريب هو في الان نفسه من باب الدراما "والقرند قينيول" (ب) ولا نصيب البتة من هذا للعرب فان الشرق الادنى قد عرف منذ القرن VII مسرح خيال الظل (كركوز) وهو نوع مسرحي من أصل تركي لا يزال ألهيه شعبيةً ويبدو في تقهقر ان لم نقل امام المسرح الحديث اذ ان الجمهور ليس هو هو ، فعلى الأقل امام السينما.

1- انظر ج. م. لنداو دراسات في المسرح والسينما العربيين نقله إلى الفرنسية عن الانكليزية عن الانكليزية فد. ل. كليش¹ وقد نقله إلى العربية أحمد الغازي وراجع الدكتور لويس عوض القاهرة 1972 وانظر يوسف اسعد داغر معجم المسرحيات العربية والمعربة (1848 - 1975) منشورات وزارة الثقافة والفنون بالجمهورية العراقية 1978 وقد لاحظ هذا المؤلف حول تعريب كتاب لنداو ما يلي "في الترجمة اغلاط كثيرة شوّهت النص وتحريف شنيع في أسماء الأعلام والمؤلفين غير المصريين لا تخلو منها صفحة ولذا لا يمكن التعويل ابداً على هذه الترجمة ويجب استعمالها بحذر" معجم المسرحيات ص 19.

أ - المقصود ما يسمى التعزية - انظر عن هذا النوع مقال انريكو شرلي المسرح الفارسي ص ص 281 - 294 بكتاب "مذهب الشيعة الامامية. مطابع فرنسا الجامعية باريس 1970 وهو يضم الأبحاث المقدمة في ندوة استرازيور (ماي 1968).

ب- قينيول: شخصية شعبية تمثل في المسرح مقاومة كل السلطة مقاومة ساخرة عنودا وهذا الفن ايطالي الأصل أدخله إلى فرنسا وركزه بها بليون مورقي سنة 1791.

وان السينما وقد ذكرت عرضا هنا جديرة ان نقف عندها لحظة لمنافستها المسرح وهو في بدايته ان المسرح هو عند الامم التي لها بعد ماض مسرحي عريق يحتفظ بسلطانه ويشد اليه في الآن نفسه من أهل الذكر ومن أهل المظهر، الا اننا نعرف ما يلاقيه من صعوبات ليبقى وليقاوم منتصرا ضد الشاشة وهي توفر عرضا أقرب منالا واكثر تنوعا وفي الغالب وخاصة داخل البلاد - اشد اكتمالا في [220] انجازه الفني. وفي البلاد التي أدخل فيها المسرح والسينما يفصل بينهما فاصل زمني قصير ، وهذا هو شان البلاد العربية، فان المسرح لا يتذوقه الا جمهور محدود لانه يتطلب مسبقا اعدادا خاصا ونحن نفهم ان يتردد مديرو القاعات طويلا قبل الاعداد لتمثيل مسرحية جديدة. فهم يفضلون غالبا ان يدعوا فرقا اجنبية تمثل بمهارة مشهود بها مسرحيات من السجل العالمي وامر اللغة ثانوي اذ ان اغلب هواة المسرح لهم ثقافة مزدوجة وفرنسية خاصة وهم تستهويهم احدى الروائع الاوربية اكثر بكثير مما تستهويهم مؤلفات محلية تخيب الامل ان كثيرا وان قليلا...

والى هذه الحجة وهي تبدو هامة تنضاف المشاكل التي عرفها منذ البداية المسرح العربي بصفة مطلقة. اولها مشكل لغة الحوار ، ثلاثة حول ممكنة: ان يجعلوا جميع الشخصيات دون اعتبار لعاداتهم في الكلام ينطقون باللغة الكلاسيكية الفصحى ذاك ما حاوله الشاعر شوقي ولمسرحياته قيمة تاريخية اكبر منها حقيقية. او الا يستعملوا الا العامية الا ان هذا الاسلوب يخشى منه ان يقصر انتشار المسرحية على الجهة التي ألقت فيها غير ان محمد تيمور والمسرحيين الشمال افريقيين (1) قد حاولوا ان يستعملوا هذا الاسلوب في اطار محدود واخير فان احترام الحقيقة يقتضي بالاحرى الملاءمة بين لغة كل شخصية ومنزلتها الاجتماعية وشرف الموضوع. وان هذا الحل الوسط وقد نادى به توفيق

1- انظر مثلا: أ. روث: المسرح الجزائري في اللغة العامية 1926 - 1954 باريس 1967

الحكيم(أ) هو بلا شك الحل الافضل الا انه يقتضي ان يستعمل بحذق.

اما المشكل الثاني فهو مشكل عروض. وان اشعاع مسرحنا الكلاسيكي قد قاد شوقي إلى ان يؤلف مسرحيات شعرية على انه لم يقف عند صعوبات [221] النظم فقد حلّ المشكل منوعا البحور وغير مهتمّ بوحدة القافية وفي الواقع فان النشر هو الذي بصورة خاصة يستعمل الآن وان اختيار الممثلين والممثلات هو المشكل الهامّ الاخير. وفي البداية فقد كانوا هواة على ان الادوار النسائية يؤدّيها رجال ثم مسيحيات او يهوديات واخيرا ففي السنوات الاخيرة من القرن XIX ظهرت على المسرح مسلمات في حين ان المحترفين المتكونين باوروبا كانوا يعوّضون الهواة. وان تكوين فنيين اصليين قد رافقته مظاهر تقدّم محسوسة على المستوى الفني فاذا بقاعات تبني ومتخصصين يكلفون بالاضاعة وجميع المهام الثانوية التي تتطلب معارف خاصة.

ونتبين من هذا كم كانت عديدة المشاكل التي تتطلب الحلّ وندرك ان الفنّ المسرحي لم يكن قد نشأ عفويا في أرض عربية

وفي البداية يجب ان نأخذ بعين الاعتبار تمثيل مسرحيات قصيرة ألفها المعلمون ومثلها التلامذة بمناسبة حفلات توزيع الجوائز في المعاهد الطائفية بلبنان ويكون الامر قد اقتصر مدة طويلة على هذا المسرح المشرف عليه لولا اللبناني مارون النقّاش (1817-1855) وهو بعد ان شهد بايطاليا بعض العروض المسرحية اخبر مواطنيه باكتشافه ومثّل سنة 1848 مسرحية مستوحاة من موليار(ب) وكان عنوانها فعلا "البخيل" انه وقد شجّع نجاحه الاول قد مثل

أ - خاصة في مسرحية الصفقة وما قاله بعد أن نبين أن الفصحى ليست نهائية في جميع الأحوال وأن العامية ليست مفهومة في كل زمان ومكان "كان لا بدّ من تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجافي قواعد الفصحى وهي في نفس الوقت ما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا يناهض طبايعهم ولا جوّ حياتهم : لغة سليمة يفهمها كل جيل وكل قطر وكل إقليم ويمكن أن يجري على الألسنة في محيطها تلك هي لغة هذه المسرحية (الصفة ص ص 159 - 160).

ب - الكاتب المسرحي الفرنسي (1922 - 1973) وقد اشتهر خاصة بفنّ الملهاة واشهر مسرحياته البخيل.

بواسطة فرقته وهي من الهواة عدة مسرحيات أخرى وخاصة ملهاة طريفة موضوعها مستمد من ألف ليلة وليلة (أ) وان جمهوره كان لا يزال محدودا غير انه يمكننا ان ننسب الى النقاش الفضل في انه حجب المسرح إلى اللبنانيين.

وخلال النصف الثاني من القرن XIX فلبنانيون فعلا هم الذين يسيطرون على كامل الانتاج فقد عكفوا في أغلب الاحيان علي ترجمة أو اقتباس آثار من السجل الغربي وان كرناي (ب) وموليبار وشكسبير (ج) وفكتور هوغو والاسكندر دوما قد قدموا [222] اللوحة التي نسجت عليها صور مأخوذة من البيئة المحليّة غير انه في مصر قد أسس الخديو اسماعيل الاويرا وخصّصها وهذا جدير بالملاحظة للفرق الارويّة لا غير. والحالات النادرة التي خرق فيها هذا الحصر لم تنجح الا قليلا وان يهوديا مصريا يعقوب صنّوع وهو يمتاز بموهبة مسرحي جدّ ممتازة قد سمح له بان يمثل بها مسرحيات من تأليفه ثم ان لبنانيا قد استغلّ السابقة التي حصلت بذلك لتمثل مسرحيته "الظالم" (د) فرأى فيها الخديو مقاصد سياسيّة فاذا بالعروض تتوقف في الحين.

أ - المقصود ابو الحسن المغفل هارون الرشيد هزلية 3 فصول وضعها مارون النقاش سنة 1853 ونشر كتابه ارزة لبنان بيروت 1869 .

ب - الكاتب المسرحي الفرنسي (1606 - 1684) وقد اشتهر خاصة بفنّ المأساة وأشهر مسرحياته السيد.

ج - الكاتب المسرحي الانكليزي (1564 - 1616) اشهر مسرحياته هملات وعطيل.

د - في معجم المسرحيات العربية والمعربة ليوسف أسعد داغر لا توجد رواية بعنوان "الظالم" ولكن توجد رواية بعنوان الظلوم دعجا. أو حفظ الوداد تأليف سليم خليل النقاش.... طرد بسببها من مصر اذ ظنّ الخديوي اسماعيل انها تعرض به وبإدارته (المعجم ص 368 رقم المسرحية 1956) فلعلها الرواية المقصودة.

في تاريخ آداب العربية ج IV ص 141 لجرجي زيدان: وفي سنة 1878 انتقل [يوسف] الخياط بجوقه إلى القاهرة مقرّ الخديوي ورجال الدولة فنشّطه اسماعيل وأمر أن تفتح له أبواب الأوبرا ليمثل روايتها ووعد أن يحضر التمثيل هو بنفسه فمثل الخياط فيها رواية "الظلوم" وكان اسماعيل حاضرا فغضب لما تخلّل التمثيل من ذكر الظلم والظالمين وراى أنهم يعرضون به وبأحكامه فأمر بإخراج الخياط وجوقه من مصر فعادوا إلى سوريا....

وإنّ مؤلفي ذلك العصر وقد كانوا لا يزالون قليلين يجهلون بصورة عامة التقنية المسرحية وآثارهم تنقصها الواقعية والقيمة السيكولوجية والجمهور نفسه لم يكن له التكوين الكافي غير أنّ المربين قد أدركوا كلّ الفائدة التي يمكنهم ان يجنوها من هذا الفن وأكثروا من العروض المدرسية فأعدت أهل الذكر في المستقبل.

والمرحلة الثانية وهي تصل إلى نحو 1920 قد عرفت تقدماً واضحاً ، فالآثار الاجنبية قد فهمت فهما احسن وترجمت او اقتبست بصورة افضل فنشأ عالم للمسرح وتحسّن فنّ التمثيل وإنّ ممثلاً مثل جورج ابيض وقد كان تلميذ سيلفان(أ) قد أسس سنة 1912 فرقة ممتازة اعادت ناجحة تمثيل سجل المؤلفين المسرحيين الاوائل غير أنّ جميع هذه الاقتباسات لم تزل اجنبية عن الوسط الذي يعيش فيه يومياً النظارة وهؤلاء بالرغم من الاتصالات التي ما فتئت تتمتّن مع الغرب لا يفهمون دائماً مسرحيات لم تؤلف لهم وإنّما منذ 1920 فحسب نشأ مسرح عربي الالهام. وليس جورج ابيض غريباً عن إشعاعه : واثر جولات له في العالم العربي شاهدنا انه قد ظهرت إلى الوجود بدفع منه عدّة جمعيات مسرحية ساهمت في نطاق محدود في نشر هذا الفن الذي لم يكن يعرف الا قليلاً والحدث الاساسي [223] هو اعداد نظرية الفضل فيها يرجع إلى محمد تيمور (1892-1921) (ب) انه أيام كان طالباً بباريس قد أغرم بهذا الفنّ واثّ له ذلك اثر عودته إلى مصر قد

أ - سيلفان ممثل فرنسي (1851 - 1930)

ب - مؤلفات محمد تيمور 3 أجزاء 1: وميض الروح مع مقدمة بقلم محمود تيمور، 2: كتاب حياتنا التمثيلية مع مقدمة بقلم زكي طليمات 3: كتاب المسرح المصري مع مقدمة بقلم محمود عزّي. وفي هذا الكتاب مسرحيات محمد تيمور (العصفور في القفص عبد الستار أفندي ثم العشرة الطيبة. وهي مسرحيات هزلية. وانظر عباس خضر محمد تيمور حياته ومؤلفاته القاهرة 1965.

انخرط رغم معارضة ابيه في جميعيّة كانت تقدّم عروضاً مسرحية أنّه وقد كان ممثلاً ثم مؤلفاً قد ظهرت براعته خاصة في مسرحيات هزليّة ألفت في لغة الحوار ثم في أعمال نقدية دعا فيها إلى احترام اللون المحلي وبالتالي إلى أن تستعمل كل شخصيّة اللغة التي تناسب مستواها الاجتماعي وقد لقيت مسرحيات تيمور الهزليّة نجاحاً باهراً إذ انها كانت تناسب المسرح وتروق للجمهور لمراعاتها للحقيقة ولدقة الملاحظة

وقد استخلص شوقي (1868-1932) العبر من تجربة تيمور الا انه رغم احترامه للون المحلي والحقيقة التاريخية فان مسرحياته المأسويّة المقتبسة عن تاريخ مصر والعرب القديم والمؤلّفة نظماً كلاسيكياً لا تمثّل تقدّماً في تاريخ المسرح.

ومنذ سنوات طويلة خلت ، فان امام المسرح العربي غير مدافع هو المصريّ توفيق الحكيم (1898-1987¹) والكثير من مسرحياته في متناول القراء الفرنسيين(1) وأنّ انتاجه الغزير جداً ، وهو رمزي يستلهم الأساطير الكلاسيكيّة وتاريخ مصر القديم وأساطير اسلاميّة وألف ليلة وليلة. ومن بين كتّاب اللغة العربيّة الذين تأثروا بالادب الفرنسي فإنّ هذا المسرحي والروائي الغزير الانتاج هو بدون شك أوسعهم بعداً عالمياً . وانه لمن المرجح أنّ من لجنة جائزة نوبل وهي لا يبدو أنّها تريد تتويج طه حسين - أن تفكّر في أقرب الاجال في توفيق الحكيم(أ).

1 - شهرزاد ، وهي مسرحية رمزية ترجمت إلى الفرنسية من قبل أ. خضري وموريك برين باريس 1936 وقد نشر قسم من انتاجه في سلسلة الأيمة الأجانب بعنوان مسرح عربي.
أ - لم تجز لا هذا ولا ذاك وانما استندت جائزة الآداب إلى نجيب محفوظ سنة 1988.

وإنّ بشر فارس (1906-1963) (أ) وهو مؤلف أطروحة ممتازة عن "العرض [224] عند العرب قبل الاسلام". (باريس 1932) وقصص ارتساميّة وفصول في النقد الادبي والاثار وتاريخ الفن هو كذلك شاعر اقرب إلى الغموض ومسرحي مذهبه الرمزي الجديد لا يفهمه الا عدد قليل من المتخصّصين ،لذلك فقد حاول ان يترجم هو نفسه مسرحياته : مفرق الطريق وجبهة الغيب(ب).

والسد(ج) للتونسي محمود المسعدي هو ايضا مسرحية رمزيّة تمثل الصراع الدائم بين الحلم والواقع بين الانسان ومصيره

والمؤلفون المسرحيون الذين قد يجدر بنا ان نذكرهم هنا لايزالون عديدين لكن لعله من الاحسن ان لا نفعل خاصة وإنّ الملاحظات النقدية الدقيقة لعارف بالمسرح معرفة عميقة جداً وهو ابن حليلة (د) يجب ان تدعونا إلى الاحتفاظ برأينا.

-
- أ-انظر عنه مقال شارل فيال بالجزء الثاني من المجلد 10 جوان 1963 من مجلة أريكا.
- ب - مفرق الطريق مسرحية في فصل واحد مع توطئة ط1 القاهرة 1938 وط2 1952 وقد مثلت بالفرنسية 1950 أما جبهة الغيب فقد وضعت باللغتين العربية والفرنسية طبعت سنة 1960 وقد طبعت معها القصة التي كانت أصلها وهي قصة رجل وقد كانت نشرت في القاهرة سنة 1914 في مجلة المقطف.
- ج- السدّ رواية في ثمانية مناظر قال المؤلف أنه ألفها من سبتمبر 1939 إلى جوام 1940 وقد ظهرت أولى سنة 1955 عن شركة النشر لشمال افريقيا بتونس ثم تعددت الطبعات والطبعة الأخيرة هي طبعة دار الجنوب للنشر تونس سنة 1992 في سلسلة عيون المعاصرة مع مقدمة لتوفيق بكار. والملاحظ أن الدراسات عن السدّ وعن سائر مؤلفات المسعدي عديدة ومتفاوتة القيمة وقد حاول إحصاها محمود طرشونة في كتابه الأدب المريد في مؤلفات المسعدي ط 1 لدار التونسية للنشر 1978 ط 4 1989 ونشير إلى أن عز الدين قلوز ترجم السدّ إلى الفرنسية ونشرت الترجمة مطابع نعمان بكيباك بكندا سنة 1981.
- د - يقصد المؤلف حمادي بن حليلة وأطروحته أعراض المسرح العربي المعاصر الاساسية وهي أطروحة رئيسية للإحراز على شهادة دكتوراه الدولة من باريس وقد نشر ضمن منشورات الجامعة التونسية سنة 1969 والأطروحة التكميلية بعنوان "نصف قرن من المسرح العربي بتونس وقد نشرت ضمن نفس المنشورات سنة 1974 (والكتابهان باللغة الفرنسية والرجاء ان يعرّيهما صاحبهما).

[225] نتائج ختامية

يبدو من الواجب علينا في خاتمة هذه البسطة الموجزة عن لغة العرب وأديهم أن نستنتج اذ تنقصنا -الخلاصة النهائية- بعض النتائج من شأنها أن تمكننا من ابراز الخصائص القارة لنشاط أدبي ما انفك غزيرا رغم ظروف سياسية كثيرا ما لم تكن مساعدة

فالواجب علينا بالرغم عما يتمسك به من المواقف أشد أنصار العروبة تحمسا أن نوافق ابن خلدون إذ يجزم "أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم العجم" (أ) فنحن اذن بازاء ادب باللغة العربية وأدب ثروته لم يعرف لها مثيل ان نحن اعتبرنا كل ما كتب طيلة الاربعة عشر قرنا الاخيرة غير ان لغة الادب وقد أعيد انشاؤها بعد ظهور الاسلام وحفظت بصورة اقرب إلى الاصطناعية وأثرتها اضافات عديدة عبر العصور لم تعد توافق موافقة تامة الخصائص الأساسية للأمة التي تمكنت بفضل دين جديد وبفضل قوة السلاح أن تفرضها على شعوب متباينة تباين أهل العراق والبربر. وإن الاسلام وهو يقبل بصدر رحب التنوع قد طبع في الآن نفسه أتباعه على مذاهب في التفكير وحدتها تظهر ظهورا جليا في الادب فاللغة العربية في أساسها لغة شعرية اي ان كل لفظ يوحى إلى القارىء أو الي المستمع بصور خاصة بها يقصر عنها ادراكنا. [226] والتفكير العربي كذلك هو أساسا شعري واكبر الكتاب يحتقر نبوغه متى بان في النظم نقصه غير ان هذا التفكير أولي ولا يبدو قابلا لتحولات

أ - المقدمة طبعة دار الجبل بيروت د.ت. ص 600 " من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا في القليل النادر وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرماه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي".

حاسمة وهو قد حافظ عبر القرون على طابعه الاصلي وصمد في وجه جميع محاولات التحرر التي قام بها شعراء من العجم في القرنين VIII و IX وكذلك الشعراء المعاصرون وليس لهم من العروبة الا قليل . وقد سجلت منذ القرن IX عودة إلى القديم ولاشيء يدل على أن العرى مع الماضي قد انفصمت اليوم حقاً.

وقد استقرت القوالب الشعرية منذ العصور الاولى في حين ان المعاني التي يوحى بها تأمل الصحراء لم تتجدد البتة بعد ذلك.

"وامتداد موطن العربي الصحراوي القاحل لم يكن ليتمكن الخيال الا من نظرة امتداد غير محدود وخلود وإن نفس هذه النظرة للارض الجرداء قد كانت نظرة اجيال متعددة وكانت في ظاهرها قارة فرضت على العرب أن يكون تصوّرهم لمصيرهم تصوّراً قاراً ونهايياً شأنه في ذلك شأن الامر نفسه الذي كان بعث عليه" (أ. ضيف) وان ما توحى به الصحراء هو حتماً قلماً يختلف. فالعالم المقتصر على الأفق تتولد عنه هذه الذاتية التي يتميز بها الانسان البدائي وهذه النزعة الفردية المستمدة من تأمل طبيعة هي دائماً على ما هي عليه. والعواطف الاساسية هي عواطف بسيطة وهي الاعجاب والخوف والغضب والرغبة ويعبر عنها المدح والهجاء والرثاء والغزل مع بعض الوصف لما في المحيط الخارجي. وقد تغنى الشعراء بالحب والحرب والخمر والناقة والفرس ووجدوا لذلك صوراً لم تأت البتة أية روية لتنقيحها.

ان هذا العربي البدائي وهو محبب إلى النفس ببعض جوانب طبيعته الفخور والكريم ليصل به الامر إلى ان يشعر باعتزاز قبلي وشخصي يبلغ في القوة ما ينفي الوجود عما سوى القبيلة وفي نهاية الامر عما سوى "الأنا" ويظهر في تلك

الاثناء كتاب سماوي يزيد في بقوة هذا الاعتزاز ويدفع العربي إلى ان يحتقر وبالتالي أن يتجاهل كل ما هو أعجمي. وقد أصبح له منذ ذلك الحين لحياته اليومية القرآن كما كان له^[227] -كأدب - سنة شعرية قد تقادمت بعد ؛ وتلك هي القاعدة الأساسية التي سيعتمد عليها لكامل نشاطه الادبي. فالقرآن لا يمكن أن يؤتى بمثله. فالواجب اذن أن ينبذ السجع والنثر المرسل لا وجود له. فلم يبق اذن سوى الشعر وهو ديوان العرب وسجلهم ديوان لم تثره الا قليلا إضافات جديدة تتماشى والنموذج الأدبي القديم المقدس وقد حدد بصفة نهائية. ومن الديوان القديم يغرف الشعراء بملء أيديهم لتطعيم كل تأليف جديد.

والالتقاء بالثقافة الفارسية قد أحدث الاضطراب حيناً وكان لابد من بروز بعض ذوي العقول النيرة لينقدوا لا خصيصاً نزعة التعرّب في حدّ ذاتها بل الاسلام وهو يعتمد بالذات عليها والخطر الحقيقي ان بعض العرب وقد اكتشفوا انهم ليسوا رغم كلّ شيء أكثر شعوب البشرية تقدماً قد اغرتهم حضارة من غلبوا "الفرس المغلوبة غلبت غالبها الألد" (أ) في حين ان آخرين قد انعزلوا في صحرائهم وعادوا إلى حياة البداوة.

أمّا الترجمات عن اليونانية فقد حوكت العقول بعض التحويل نحو ثقافة أقلّ خطراً بصفة مباشرة ففي حين كان الفرس الذين دخلوا في الاسلام في الميدان فان التأثير اليوناني -مهما بلغ من القوة- يبقى كتبياً علمياً: وقد عرف العرب افلاطون (ب) وارسطاطاليس (ج) ولكنهم جهلوا تمام الجهل هوميروس (د)

أ- وردت العبارة باللغة اللاتينية.

ب- الفيلسوف اليوناني (428 - 348 ق. م.)

ج- الفيلسوف اليوناني (384 - 322 ق. م.)

د- الشاعر الأسطوري الملحمي اليوناني IX (القرن ق.م) صاحب الإلياذة وقد ترجمها شعراً وشرحها سليمان البستاني (ط1 مطبعة الهلال بالقاهرة 1904).

وارسطوفان(أ). واما الأدب الفارسي فانه على العكس من ذلك قد اكتسح حتى ميدان الشعر وذلك ان بعض الشعراء الاعاجم وهم يقدمون بعض الاشعار شواهد اخلاص للقديم قد قوضوه من الداخل ونشروا الاغراض الخفيفة والماجنة على انهم لم يتمكنوا مع ذلك من فصم العرى التي تربط العرب بتقاليدهم الشعرية. فان من أظهر من الشعراء قطع الصلة بالماضي سرعان ما عادوا اليه وراحوا يبحثون عن صورهم في معازل الصحراء أو فحسب عند المتقدمين ، وتتقهقر الحملة التجديدية أمام رد فعل المحافظين وان الانموذج الذي لا يمسه يصبح من جديد منذ القرن IX الشعر القديم وقد تجمد وحافظ على طابعه الاصلي. والنقاد كثيرا ما تلاعبوا بلفظ بيت وهو يدل في الآن نفسه على البيت الشعري وعلى المنزل وذكروا [228] ان البيت الشعري منزل جدرانه بنيت بناء نهائيا وأثائه لا يتغير وبابه هو الذي فقط يتصرف فيه الشاعر على هواه فالجدران هي الهياكل والأثاث المعاني والباب هو اللفظ. فالناظم عبد يكون كامل السعادة اذا تمكن من التعبير عما عبر عنه غيره لكن تعبيرا احسن وهو اذن اجتنابا للابتذال سيوجه كل جهده نحو الأسلوب وعلى ذلك فحسب سيكون الحكم له أو عليه وهو بالالفاظ فحسب سيبعث في النفس هزة جمالية وان المحتوى -على هذه الصورة واعتبارا لعدد الشعراء المتزايد باستمرار سرعان ما سينفذ وهكذا فان الفن اللفظي حيث انه من المستحيل على الشاعر ان يتحرر من قيوده والا اتهم بالتجديد اي بالبدعة سيعوض الفكر الشعري والالهام الطريف حتى ان التصنع

أ - الكاتب المسرحي اليوناني (450-386 ق.م.) وقد ألف عدة مسرحيات وصلتنا منها 11 نقل بعضها إلى العربية مثل مسرحية السحب ترجمها علي عبد الواحد خضرة (دار النهضة المصرية القاهرة 1971) وملهاة الضفادع وقد ترجمت عدة مرات مثلا ترجمة أمين سلامة (دار الفكر العربي بالقاهرة 1966) والملاحظ أن العرب المعاصرين تلاقوا ما أشار إليه ش. بلا فترجموا بالإضافة إلى ما سبق بعض مسرحيات سوفوكليس (406 - 496م) واسخيلوس (456 - 525م) أوريبيد (480 - 406 ق.م) انظر قائمة المسرحيات اليونانية المعربة من القديم والحديث ضمن معجم المسرحيات العربية والشعرية ليوسف أسعد داغر.

والبهلوانية اللفظية والقونفورية قبل ظهورها ستعوض مدة عصور الانحطاط
الالهام الحي والاحساس وملاحظة الواقع.

وبمثل الانبعاث المعاصر محاولة أخرى من محاولات التحرر قد كان لها
قطعا أنصار جدّ متحمسين الا أنها لاقت ايضا معارضين ويخضع شعراء الطليعة
حتى وان كانوا من أصل عربي لمؤثرات أجنبية خضوعا يبلغ حدا لم يعد لشعرهم
معه من الطابع العربي الا القليل للفتته. ولا يزال هناك شعراء ينظمون قصائد
كلاسيكية وهؤلاء هم الشعراء العرب الحق ولعلهم سينتصرون في نهاية الامر
-شأنهم في ذلك شأن أسلافهم من القرن IX -على جميع المحاولات التجديدية
حين يكون ذوق العصر الرائج قد كسد.

اما في ميدان النشر -مع العلم ان اكبر الكتاب ليسوا من العرب- فان بعض
الملاحظات المماثلة تفرض علينا نفسها ، فالتفكير الاسلامي قد تجمد في
القرن IX لما "اغلق باب الاجتهاد الشخصي" حسب عبارة الفقهاء ، وانه منذ ذلك
الحين لاشيء جديدا يمكن انتاجه بصورة جدية وللكاتب الحق فحسب في ان
يعيد في صورة اخرى ما قد كان قيل ويقابل في هذا الميدان النظامين والسفلة
من الشعراء جامعو الاحاديث [229] والمفسرون وأصحاب المختصرات غير ان
الصدمة مع يونان قد قفزت بالتفكير قفزة لم تلبث السنة ان تصدت لها بنجاح
غير انه قد امكن في نهاية الامر وذلك بمشابة الفلاسفة ان تهضم الشفافة
اليونانية هضمًا نسبيًا. أمّا التاريخ فهو لحسن الحظ مادة تتجدد كل يوم وهو
فن يروق للكتاب العرب الراغبين في الكتابة للتعبير عن شيء ما الا انه في
هذا الميدان ايضا قد ظهر التجمد والرتابة وعبء الماضي ظهورا قبيحا. فان
النقول المكملة قد توالى بدون طرافة اذ ان الكتاب جميعا قد تكونوا تكونوا
واحدا وكان لهم بالتالي نفس الطريقة ونفس الاسلوب. اما الجغرافيا فلعلها من

بين أنواع النشر الفنيّة الفنّ الأكثر تنوعا وذلك لعظمة اتساع ما يوصف من البلدان غير انها بعد ان بلغت أوجها في القرن X قد توقّفت عن التطور ثم استعادت بعض نشاطها على أيدي الرّحّالين ثم وقعت من جديد في الجمود.

وأما في ميدان الأدب الصرف فقد ضبّطت معالم النشر الادبي المرسل ضبّطا نهائيا في القرن IX على أيدي كُتّاب من العجم أدخلوا وطوّروا هذا اللون من الوان التعبير ولم يكن قبل مستعملا وهو بعد اشراقة جميلة قد انطفأ في القرن الموالي ليصبح أداة وقفا على الفنّيين. ولاشك ان الكُتّاب لم يكونوا جميعا منذ ذلك الحين يكتبون سجعا غير أنّه كان يحسن بمن أراد منهم ان يتّسم بنوع من الصنعة الفنيّة ان يذهب مذهب الشعراء وان يخضع شأنه في ذلك شأنهم الموضوع للأسلوب وهذه ظاهرة عربيّة صميّة وانه لعربي صميم ايضا ما وجّهت اليه الفنون الادبيّة في ميدان النشر اذ اصبح من الممكن طرقها لذاتها كما هو الشأن بالنسبة لادب وصف الطبائع وتصوير المجتمع والمقامة نفسها وكلّ هذا يتطلب قدرة ما على الملاحظة والتخيّل ومن الاسهل إلى حدّ كبير ان يتزود من خزانة الجواهرز ومن مجاميع النوادر والتحاليل النفسيّة والصور التقليديّة التي جمعها كتاب العصور الزاهيّة وانّ الادب [230] وقد كان جدّ ثريّ ومتنوعا قد اصبح ادب تقويمات ولم تعد المقامة صالحة الا لتعليم غريب اللغة او لما دون ذلك من عرض سعة المعلومات. وان اسلوب الرسائل نفسه وفيها عادة تتدفق الاراء تلقائيا والتعابير بديهة ، قد عاد حشدا لقوالب تقليديّة تستر ببراعة لا شك فيها التفكير الحقيقيّ الا انها تجرد من كل قيمة انسانيّة فنا كان يجب ان يكون أساسا جدّ شخصي.

ويكون من الاجدر بمعاصرينا من ذوى اللغة العربيّة عوضا عن الدفاع العقيم ان يدرسوا بمزيد من الروح النقديّة آثار الماضي ليكتشفوا فيها أسباب

قلقهم فان المظاهر الاساسية القارة التي حاولنا ابرازها هي فعلا مليئة بالعبر
وانه ليكون بدون شك من الظلم لمصير الادب العربي بل للغة نفسها التي بها
يكتب الا نقرأ البتة لذلك حسابا. وفي حين انه يضمن وذلك بفضل الترجمات
التي تكاد تكون فورية للآثار الادبية التي لها بعض القيمة ان تسير في العالم
أجمع وان أي رواية ناجحة تخرج سينمائيا بعد بضعة شهور فحسب من خروجها
من المطابع فان المؤلفين العرب يتألمون من كونهم عامة مجهولين في الخارج
ومن انهم سيظلون غير معروفين ان صادف ان يترجموا إلى لغة أوربية بل
واكثر من ذلك فان الناشرين الشرقيين يقرّون ان كبار مؤلفات القرون الوسطى
التي يطبعونها ويعيدون طبعها تحظى لدى الجمهور بعناية تفوق ما يحظى به
الادب الحديث فهذا لا يهم على الجملة غير عدد قليل نسبيا من القراء هم
-وهم بصورة عامة مزدوجو اللغة- قادرون على الحكم والمقارنة والنقد.

ولئن كان العرب ومن انطبع تفكيرهم بلغتهم قد استطاعوا في القرون
الوسطى ان يجعلوا اللغة العربية تلائم مقتضيات العصر وان يجعلوا منها أداة
لا مثيل لشروتها قد ساعدتهم على ان ينقلوا ويتعمقوا تراث القرون الماضية
ولئن كانوا قد انتجوا في ميدان الادب شعرا غزيرا وآثارا نثرية قيّمة ،طريفة
[231] ولا تزال جديرة بان تعرف فانهم لم يعيروا أبدا الف ليلة وليلة أي انتباه
وجهلوا ابن خلدون وان هنا لقطيعة لم تتبين تبينا كافيا .

وفي حين ان الغرب نفسه يتساءل عن ماهية الأدب فإن كتاب اللغة
العربية وشعراءها يتساءلون عما يجب ان يكون عليه الادب العربي وهل يمكنه
المحافظة على مميزات خاصة ام هل يساير على العكس من ذلك ما يكتب
خارج العالم العربي وان الاندماج في الادب العالمي وهو رغبة الكثير لا يزال
يتطلب جهودا طويلة على ان ذلك ليس من المؤكد ان يكون حقا مرجوا. فما

السبب في ان رواية يكتبها كاتب جزائري في اللغة الفرنسية تعتبر اثراء لادبنا [الفرنسي] وتصبح اذا عرّبت لا تقرأ ولا طعم لها؟ وما السبب ايضا في ان المتكلم بالعربية يقول في نفس الوقت ضعفين دون ما يقوله في لغة اوربية وياقل دقة بكثير فان المعنيين بالأمر سيدركون عندما يكونون قد اجابوا عن اسئلة من هذا النوع ان اللغة العربية يحتاج من يستعملها إلى المزيد من المراعاة وإلى العناية بها عناية مستمرة وانه على الكاتب ان يفكر في اللغة العربية دون ان يسمح لتاثير اجنبي بالطغيان عليه ومسح تعبيره وسيدركون ان الكم لا يعوض الكيف وسيدركون اخيرا ان الموهبة اذا انعدمت العبقرية شرط اساسي للنجاح المنشود ولعل الجمهور سيشرع عندها في تقدير اثار ستحتفظ بنوعيتها ولن تكون مجرد نقل متعثر إن كثيرا وان قليلا وتأخذ مكانتها إلى جانب آداب الانسانية ذات القيمة وتثريها ولا شك .

فهرس الأعلام

- أعشى همدان : 102 .
- الأغلب بن جُشم : 135 .
- الأفغاني (جمال الدين) : 249 ، 262 .
- أفلاطون : 275 .
- أكيلينا (J.) Aquilina : 42 .
- ألفونسو السادس : 148 .
- الألوسي : 247 .
- ألي (Alphonse) Allais : 112 .
- أمرؤ القيس : 90 ، 92 .
- أمين (أحمد) : 260 ، 261 .
- الأمين العباسي : 127 .
- أمين (قاسم) : 257 .
- أناكرزيس لجيت-دخخثخ : 253 .
- أنطون (فرح) : 253 .
- أنور عبد الملك : 22 .
- أوربانيوس : 222 .
- أولنسنينقل Eulenspiegel : 113 .
- إيزوب Esope : 113 .
- ابن
- ابن آجروم : 49 .
- ابن الأبار : 184 .
- أ —
- آدم أبو البشر : 46 ، 222 .
- آدم (A.) Adam : 6 ، 182 .
- الآمدي : 176 .
- أباضة : 6 .
- أبان اللاحقي : 137 .
- إبراهيم (حافظ) : 243 ، 255 .
- الإبشيهي : 217 .
- أبيض (ج) : 269 .
- الأخطل : 100 ، 101 ، 126 .
- إخوان الصفا : 197 .
- الإدريسي : 194 ، 230 .
- أرسطو : 61 ، 196 ، 197 ، 275 .
- الأرناؤوط : 253 .
- أسامة بن منقذ : 183 .
- الأسواني : 191 .
- الأشعري : 199-201 .
- الإصطخري : 193 .
- الأصمعي : 47 ، 140 ، 220 .
- الأعشى ميمون : 90 ، 95 ، 98 ، 125 .

ابن خلدون : 174 ، 215 ، 225 ،
 227 ، 228 ، 256 ، 273 ، 279 .
 ابن داود : 154 .
 ابن دريد : 208 .
 ابن رُسْتَه : 189 .
 ابن رشد : 197 ، 201 .
 ابن رشيق : 174 .
 ابن الرومي : 142 ، 149 .
 ابن زيدون : 151 .
 ابن سعد : 183 .
 ابن سعيد المغربي : 230 .
 ابن السكيت : 48 ، 140 .
 ابن سناء الملك : 153 .
 ابن سينا : 197 .
 ابن شرف : 14 ، 174 ، 208 .
 ابن [أبي] شنب : 21 .
 ابن شهيد : 13 ، 14 ، 148 ، 176 .
 ابن الطفيل : 197 .
 ابن الطقطقي : 222 .
 ابن عاصم : 138 .
 ابن عباد (المعتمد) : 151 ، 205 ، 206 .
 ابن عباس : 83 .
 ابن عبد الحكم : 182 .
 ابن عبد ربه : 137 ، 150 ، 166 .
 ابن عبد القدوس (صالح) : 134 .

ابن أبي زرع : 228 .
 ابن الأثير : 182 .
 ابن إسحاق : 179 .
 ابن إياس : 224 .
 ابن باجة : 197 .
 ابن باشكوال : 184 .
 ابن بدرون : 137 .
 ابن بسّام : 176 .
 ابن بطوطة : 232 ، 233 .
 ابن تغري بردي : 224 .
 ابن تيمية : 202 .
 ابن جبير : 232 ، 233 .
 ابن جزري : 234 .
 ابن جني : 48 .
 ابن الجوزي : 203 .
 ابن حزم : 14 ، 150 ، 154 ، 155 ،
 200 .
 ابن حليمة (حمادي) : 11 ، 271 .
 ابن حمديس : 152 .
 ابن حنبل : 82 .
 ابن حوقل : 193 ، 194 .
 ابن خاقان (الفتح) : 141 .
 ابن خرداذبه : 189 ، 231 .
 ابن الخطيب (لسان الدين) : 228 ،
 231 .

ابن عبد الوهّاب (محمد) : 236 .
 ابن عبدوس : 151 .
 ابن عبدون : 137 .
 ابن العبري Bar Hebraus : 222 .
 ابن عذارى : 228 .
 ابن عربشاه : 224 .
 ابن عربيّ (محيي الدين) : 86 ، 130 ، 203 .
 ابن العربيّ (أبو بكر) : 232 .
 ابن عساكر : 184 .
 ابن عمّار : 151 .
 ابن العميد : 205 .
 ابن الفارض : 130 .
 ابن الفرات : 223 .
 ابن الفرضيّ : 184 .
 ابن فضل الله العمري : 216 .
 ابن فضلان : 191 .
 ابن الفقيه : 191 .
 ابن القارح : 147 .
 ابن قتيبة : 14 ، 48 ، 165 ، 166 ، 172 ، 174 ، 180 ، 198 ، 204 ، 238 ، 249 .
 ابن قزمان : 154 .
 ابن القوطيّة : 183 .
 ابن قيّم الجوزيّة : 202 .

ابن ماجة : 83 .
 ابن مالك : 49 ، 138 .
 ابن مسرّة : 197 .
 ابن المعتزّ : 129 ، 137 ، 142 ، 149 .
 ابن مفرّغ (يزيد) : 13 .
 ابن المقفّع : 14 ، 114 ، 116 ، 157 ، 160 ، 204 .
 ابن ممتّاي : 230 .
 ابن منظور : 50 ، 215 .
 ابن ناقيّا : 209 .
 ابن نباتة (الشاعر) : 212 .
 ابن النديم : 39 .
 ابن هانيء : 150 .
 ابن هشام صاحب السيرة : 179 .
 ابن هشام النحويّ : 49 .
 ابن الورديّ : 213 ، 215 .
 ابن ونّاس (رفيق) : 6 ، 7 .
 ابن وهبون : 13 ، 51 ، 151 .

أبو

أبو بكر (الصدّيق) : 73 ، 77 ، 78 .
 أبو تمام : 139 ، 141 ، 145 ، 149 ، 176 .
 أبو حنيفة (الدينوريّ) : 180 .
 أبو حيّان (التوحيديّ) : 168 ، 170 .

البحتريّ : 141 ، 145 ، 149 ، 176 .
 البخاريّ : 82 ، 83 .
 برتزل Pretzl : 74 .
 برزق بن شهریار : 192 .
 برقشتراسر Bergstrasser : 74 .
 برنشويك Brunschvig : 120 ، 211 .
 بروكلمان : 23 ، 41 .
 برون (الدكتور) : 261 .
 بريخا Pareja (F.-M.) : 74 .
 البستانيّ (بطرس) : 63 ، 249 .
 بشار بن برد : 131 ، 136 .
 بشاره الخوري : 245 .
 بطليموس : 188 .
 البغداديّ (الخطيب) : 184 ، 217 ،
 231 .
 البغويّ : 83 .
 البكري (صالح) : 6 .
 البكريّ : 187 ، 194 .
 بلاّ Pellat (Ch.) : 74 .
 بلاّ Pellat (Yvette) : 15 .
 البلاذريّ : 179 ، 180 .
 بلاشير Blachère (R.) : 5 ، 6 ، 12 ،
 20 ، 41 ، 74 ، 81 ، 145 ، 191 ،
 216 ، 233 .
 البلخي : 192 ، 193 .

أبو داود : 183 .
 أبو عبيدة : 177 ، 179 .
 أبو العتاهية : 134 .
 أبو العلاء المعريّ : 146-148 ، 176 .
 أبو عُيَيْنَة : 139 .
 أبو الفداء : 223 ، 230 .
 أبو فراس : 145 .
 أبو الفرج الأصفهانيّ : 186 .
 أبو ماضي (إيليا) : 245 .
 أبو المطهر الأزديّ : 170 ، 208 .
 أبو مخنف : 179 .
 أبو النجم : 136 .
 أبو نعيم : 184 .
 أبو نواس : 112 ، 127 ، 129 ،
 132-134 ، 136 ، 137 ، 149 ،
 154 .

— ب —

بارناردين دي سان بيار Bernardin de
 Saint Pierre : 254 .
 البارودي (محمود سامي) : 243 .
 باسي Basset (R.) : 5 ، 74 ، 213 .
 الباقلاّنيّ : 175 ، 200 .
 بال Bel (A.) : 226 .
 البتّاني : 188 .
 بشينة جميل : 105 .

بلزاك Balzac : 248 .

البوميري : 213 .

بونابرت Bonaparte : 26 ، 235-237 .

بوفـا (L.) Bouvat : 211 .

بوهيمند Bohémond : 220 .

بيـرس (الظاهر) : 221 .

بيراز Pères (H.) : 5 ، 236 ، 247 ،

248 ، 253 ، 258 .

بيرسن Pearson : 24 .

البيرونيّ : 189 ، 195 .

البيضاوي : 85 .

ت -

تأبط شرّا : 92 .

التامغروطيّ : 231 .

الترمذي : 83 .

التنوخيّ : 167 .

تودوروف Todorov : 5 .

تورّي Torrey : 142 .

توميش (نادا) : 42 .

التونسيّ : 261 .

توين (M.) Twain : 255 .

التيجانيّ : 232 .

تيليماك Télémaque : 252 .

تيمور (محمد) : 255 ، 266 ، 269 ،

270 .

تيمور (محمود) : 255 .

ث -

ثروت عبد الخالق : 21 .

الثعالبيّ : 168 ، 182 .

ثعلب : 142 .

ج -

الجاحظ : 12 ، 14 ، 112 ، 117 ،

160 ، 172 ، 190 ، 203-208 ،

238 .

الجاحظ الثاني (ابن العميد) : 206 ،

جبران (خليل جبران) : 14 ، 245 ،

254 .

الجبرتي : 237 .

جُحا : 112 .

الجرجانيّ : 176 .

جرير : 101 ، 108 .

جميل بثينة : 105 .

الجُنيد : 203 .

الجَهمَثباري : 167 .

الجواليقيّ : 58 .

الجوهريّ : 50 .

الجيّهانيّ : 193 .

- ح -

- حاتم الطائي : 93 .
 حاجي خليفة : 39 .
 الحارث بن حلزة : 90 ، 93 .
 حارثة بن بدر : 126 .
 حازم القرطاجني : 174 .
 الحاكم (النيسابوري) : 184 .
 الحريري : 209 .
 حسان بن ثابت : 98 .
 الحسن البصري : 203 .
 حسين (طه) : 88 ، 255 ، 256 ،
 260-262 .
 الحسين بن الضحّاك : 132 .
 الحسين بن علي : 265 .
 الحصري (إبراهيم) : 174 .
 الخطيئة : 97 .
 حفص : 80 .
 حفني ناصف (ملك) : 258 .
 الحكم المستنصر : 150 .
 الحكيم (توفيق) : 255 ، 256 ، 260 ،
 270 .
 الحلاج : 203 .
 الحلي : 212 .
 حماد الراوية : 89 ، 140 .
 حميد الله (محمد) : 14 ، 15 .

الحميدي : 185 .

حيزم (صالح) : 6 ، 7 .

- خ -

- الخديوي إسماعيل : 222 ، 235 ، 268 .
 الخفاجي : 59 ، 214 .
 خلف الأحمر : 140 .
 الخليل بن أحمد : 47 ، 50 .
 الخنساء : 93 .
 الخوارزمي : 60 ، 188 ، 206 .
 خوام (R.) Khawam : 21 ، 22 .

- د -

- الدارقطني : 83 .
 دافيد (J.) David : 21 .
 داود الأصبهاني : 200 .
 درمنقام Dermenghem : 21 .
 دعبل : 13 ، 142 .
 دورم Dhorme : 41 .
 دوما (A.) Dumas : 268 .
 دونيزو (Cl.) Denizeau : 42 .
 ديال Diehl : 74 .
 دي برسفال De Perceval : 74 .
 دي سلان De Slane : 227 .
 دي مرتينو Di Martino : 21 .

— ذ —

- ذات الهمّة : 220 .
ذو الرمة : 101 .
ذو كِنَاز : 126 .

— ر —

- رابلي Rabelais : 247 .
الرازيّ : 160 .
الرازيّ (فخر الدين) : 85 ، 196 .
الراعي : 101 .
الراغب الأصفهانيّ : 166 .
الرافعيّ : 262 .
الرسول (محمد ﷺ) : 12 ، 73 ، 76 ،
77 ، 96 ، 98 ، 116 ، 178 ، 179 ،
198 ، 253 .
رشيد رضا : 86 ، 251 ، 262 .
الرصافيّ (معروف) : 244 .
الرماديّ : 150 .
روجار (لجار) الثاني : 194 .
رودنسون (M.) Rodinson : 74 .
رؤبة بن العجاج : 135 .
الرياشي (محمد بن يسير) : 13 .
رينان (E.) Renan : 41 ، 253 .

— ز —

- الزبيديّ : 50 .
الزركليّ : 7 .
زرياب : 149 .
زغلول (سعد) : 252 .
الرمخشريّ : 48 ، 85 ، 187 ، 209 .
الزهاويّ : 244 .
زهير بن أبي سلمى : 90 ، 93 .
الزيّات (أحمد حسن) : 260 .
الزيّانيّ : 228 ، 231 .
زيد بن ثابت : 77 ، 78 .
زيدان (جرجي) : 253 ، 261 .

س

- سام بن نوح : 42 .
سانت بوف Sainte-Beuve : 260 .
سركيس : 39 .
السلّاويّ : 228 .
سليمان النبيّ : 113 .
سهل بن هارون : 116 ، 117 .
سوردال (D.) Sourdel : 74 .
سيبولد (C.F.) Seybold : 228 .
سيبويه : 47 .
السيد الحِميريّ : 103 .

— ص —

- الصابي (هلال) : 183 .
صاقان (F.) Sagan : 240 .
صالح بن عبد القدوس : 134 .
صبري (اسماعيل) : 243 .
الصفدي : 216 ، 230 .
صلاح الدين الأيوبي : 12 ، 119 ،
206 .
صمود (حمادي) : 5 .
الصنوبري : 145 .
صنوع (يعقوب) : 268 .
صوفاجي (J.) Sauvaget : 21 ، 211 ،
223 ، 224 .
الصولي : 182 .

— ض —

- الضبي (صاحب البغية) : 185 .
الضيبي (المفضل) : 110 ، 140 .
ضيف (أحمد) : 159 ، 175 ، 259 .

— ط —

- الطبري : 84 ، 85 ، 181 ، 182 .
طريبة (E.) Tarabay : 22 .
طرفة بن العبد : 90 ، 94 .
الطرماح : 103 .

سيزكين Sezgin : 7 ، 23 .

سيف بن ذي يزن : 221 .

سيف التيجان : 221 .

سيف الدولة : 143 ، 206 .

سيلفان Sylvain : 269 .

سيلفستر دي ساسي Sylvestre de Sacy :
209 .

السيوطي : 85 ، 215 ، 224 ، 230 .

— ش —

الشائي : 241 .

شاطوبريان Chateaubriand : 254 .

شام (حام) بن نوح : 42 .

شاه الزمان : 218 .

الشدياق (فارس) : 247 .

شعراوي (هدى) : 258 .

شكسبير : 268 .

الشنفري : 143 .

شهریار : 218 .

شو (G.-B.) Shaw : 112 .

شوالي Schwally : 74 .

شوفين Chauvin : 24 .

شوقي (أحمد) : 244 ، 266 ، 270 .

الطغرائي : 143 .

طنطاوي جوهري : 86 .

ع -

العبّاس بن الأحنف : 132 .

العبدري : 232 .

عبد الجليل : 19 .

عبد الحميد الكاتب : 115 ، 157 ، 204 .

عبد الرازق (علي) : 262 .

عبد الرحمان الثالث : 148 ، 183 .

عبد اللطيف : 230 .

عبد الله بن الزبيري : 97 .

عبد الملك بن مروان : 115 .

عبد (محمد) : 86 ، 238 ، 250 ، 262 .

عبيد (عيسى) : 255 .

عثمان بن عفان : 78 ، 261 .

العجاج : 135 .

عدي بن زيد : 95 ، 96 ، 125 ، 128 .

عراي باشا : 253 .

عزة : 105 .

العسكري (أبو هلال) : 173 .

العقاد : 259 .

عقبة بن ربيعة : 135 .

عقل (سعيد) : 245 .

العلوي : 215 .

علي بن أبي طالب : 15 ، 73 ، 103 ، 142 .

العماني : 136 .

عمران بن حطان : 103 .

عمر بن أبي ربيعة : 106 ، 107 ، 131 .

عمر (بن الخطاب) : 253 .

عمرو بن كلثوم : 90 ، 93 .

عنبرة : 90 ، 93 ، 220 .

العيّاشي : 232 .

غ -

الغزالي : 197 ، 199 ، 201-203 ، 209 .

الغزنوي : 182 .

ف -

الفارابي : 196 ، 197 .

فارس (بشر) : 66 ، 271 .

الفتح بن خاقان : 141 .

الفرّاه : 48 .

فرحات (جرمانوس) : 213 .

الفرزدق : 100 ، 101 ، 108 .

فكري (عبدالله) : 247 .

فلوبير (G.) Flaubert : 248 .

فليش (H.) Fleish : 41 .

فؤاد (الملك) : 80 .

فوك (J.) Fück : 42 .

فويني Fouinet : 21 .

فيات (C.) Wiet : 20 ، 22 .

الفيروزابادي : 50 .

فيشر Fischer : 42 .

ق -

القاشاني : 86 .

القاضي الفاضل : 206 ، 214 .

قدامة : 173 ، 190 .

قرانجري Grangeret de la grange : 21 .

قروسي Grousset : 211 .

قرونباوم Von Grunebaum : 120 .

القزويني : 187 ، 229 .

القشيري : 200 ، 201 .

قطري بن الفجاءة : 103 .

قلان Galland (A.) : 218 .

القلقشندي : 217 .

قوتير (E.F.) Gauthier : 211 .

قودفروا Gaudefray - Demombynes :

211 ، 74 ، 41 .

قيب (A.-R.) Gibb : 236 .

قيس بن الملوّح : 105 ، 169 .

ك -

كار (Alphonse) Karr : 254 .

كثير : 105 .

كحالة : 7 .

كرّا دي فو Carra de Vaux : 197 ،

198 .

کرد علي : 249 ، 261 .

كريمير Von Kremer : 127 .

الكسائي : 48 .

كعب بن زهير : 98 .

الكلبي (هشام) : 179 .

الكندي : 196 .

الكواكبي : 85 ، 86 .

كوبي (F.) Coppée : 254 .

كولات Collette : 240 .

كولين (G.-S.) Colin : 5 .

كوهين (M.) Cohen : 41 ، 42 .

ل -

لامرتين Lamartine : 244 .

لامانس (الأب) : 100 ، 202 .

لييد : 90 ، 93 .

لقمان : 113 .

المبرّد : 142 .
 متر (Adam) Mez : 120 .
 المتنبي : 144-146 ، 149-151 ،
 176 .
 المتوكل العباسي : 141 ، 199 .
 المحاسبي : 203
 محفوظ (نجيب) : 257 .
 محمد علي الكبير : 235 ، 237 ، 253 .
 المدائني : 167 ، 179 .
 مدوّر (جميل) : 252 .
 المراكشي : 185 .
 المسعدي : 5 ، 12 ، 271 .
 المسعودي : 185 .
 مسكويه : 168 .
 مسلم (بن الحجاج) : 82 ، 83 .
 مسلم بن الوليد : 129 ، 139 .
 مطران (خليل) : 245 .
 معاوية : 103 .
 المعتصم العباسي : 141 .
 المقدسي : 12 ، 193-195 .
 المقرئ : 228 .
 المقرئزي : 223 ، 224 ، 230 .
 المكين : 222 .
 المنتصر العباسي : 141 .
 المنصور بن أبي عامر : 148 .

اللمسي (الحبيب) : 7 .
 لوكونت (G.) Leconte : 41 .
 ليسارف (J.) Lecerf : 236 .
 ليفي بروفنسال (Lévi-Provençal) : 120 ،
 149 .
 ليلي بعلبكي : 240 .
 ليلي العامرية : 105 .

- م -

الماتريدي : 200 .
 ماجد (جعفر) : 241 .
 مارسى (G.) Marçais : 74 ، 211 .
 مارسى (W.) Marçais : 33 ، 41 ، 74 ،
 91 ، 181 .
 مارين الصوري : 188 .
 المازني (إبراهيم عبد القادر) : 255 ،
 259 .
 ماسينيون (L.) Massignon : 10 ، 130 ،
 203 .
 ماشويال (L.) Machuel : 21 .
 ماكريوس (Makarius) : 22 .
 مالك بن أسماء : 126 .
 المأمون العباسي : 85 ، 119 ، 192 ،
 199 .
 مبارك (زكي) : 260 .

المنفلوطي : 254 .
 موليير Molière : 267 ، 268 .
 مونتاي Monteil (V.) : 22 .
 المويلحي : 248 .
 مي زيادة : 258 .
 الميداني : 111 .
 ميشال Michel (F.) : 21 .
 ميكال Miquel (A.) : 6 ، 20 ، 74 .
 ميني Meillet (A.) : 41 .
 - ن -
 النابغة : 90 ، 95 .
 نازك الملائكة : 258 .
 ناصر الدين : 113 .
 نالينو Nallino (C.) : 13 .
 النسائي : 83 .
 نعيمة (ميخائيل) : 245 .
 النقاش (مارون) : 267 .
 نوح : 113 ، 215 .
 نوريس Noris (L.) : 22 .
 نولدكه Noldeké : 74 ، 129 .
 النويري : 216 .

- ه -

هارون الرشيد : 119 ، 127 ، 132 ،
 252 ، 253 .

هشام الثاني : 150 .
 الحمداني (بديع الزمان) : 206-209 ،
 248 ، 251 .
 هوغو Hugo (V.) : 268 .
 هومبار Humbert : 21 .
 هويار Huart (Cl.) : 19 ، 209 .
 هيام أبو الحسين : 14 ، 15 .
 هيكل (محمد حسين) : 254 .
 الواقدي : 179 .
 والبة بن الحباب : 127 ، 133 .
 ورد العقيلين : 169 .
 وزر بن جابر : 220 .
 الواشاه : 169 .
 الوطواط : 217 .
 ولادة : 151 .
 الوليد بن يزيد : 108 ، 126-128 .

- ي -

اليازجي (إبراهيم) : 63 ، 249 .
 اليازجي (ناصيف) : 63 ، 243 ، 247 ،
 249 .
 يافت بن نوح : 42 .
 ياقوت : 187 ، 229 .
 اليعقوبي : 180 ، 192 .

الفهرس العام

5	بيان
9	شارل بلا
19	توطئة
25	مقدمة: مراحل اللغة والأدب العربية الكبرى
27	- خصائص الأدب العربي العامة
28	- أساليب الكتابة
36	- لمن يكتب الكتاب
38	- حالة المحافظة على الأدب القديم
41	الفصل I: اللغة العربية وتاريخها
45	العربية الفصحى
52	نظام العربية الصرفي والصوتي والنحوي
57	ألفاظ العربية الفصحى
67	العربية العامية
73	الفصل II: نشأة الأدب العربي
75	النثر المسجّع
76	القرآن
82	العلوم الدينية

86	الشعر الجاهلي
92	شعراء البدو
94	شعراء الحضرة
96	الشعر والرسول
99	الشعر في القرن VII وفي بداية VIII
100	الشعر على النمط القديم
104	غزل البدويين
106	شعراء غزلون من مدن الحجاز
107	شعراء مدن العراق والشام
109	النثر المرسل
119	الفصل III: نهضة الأدب العربي
122	الشعر
125	الشعر المحدث
125	- شعر الخمرة
131	- الشعر الغزلي
135	الرجز
139	الشعر الكلاسيكي والكلاسيكي المحدث
143	الشعراء الشاميون
148	الشعر الأندلسي

159	ادب
171	النقد الأدبي
177	التاريخ
187	الجغرافيا
196	علم الكلام والفلسفة
202	التصوف
204	النثر المسجوع
205	أسلوب الترسل
207	المقامة
211	الفصل IV: عصور الأدب العربي المظلمة
212	الشعر
214	النثر المسجّع
215	النثر المرسل
216	الأدب
218	القصص وروايات الفروسية
222	التاريخ
229	الجغرافيا
231	كتب الرحلات

235	الفصل V: انبعاث الأدب العربي
241	الشعر
246	السجع
249	النثر المرسل
252	الرواية والأقصوصة
259	النقد الأدبي
261	التاريخ والجغرافيا
262	الفقه والفلسفة
263	الصحافة
265	المسرح العربي
273	نتائج الختامية
281	فهرس الأعلام
293	الفهرس العام